**كِتَابُ**

التعليم المسيحي الروماني

المعروف

بالكاتيكيزمو رومانو

المنشأ بأمر المجمع التريدنتيني

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ترجمهُ ترجمة جديدة مهذبة الخوري يوسف ضاهر

البستاني عفى عنهُ

طبع بأمر ونفقة السيد الجليل المفضال مار يوسف الدبس

رئيس أساقفة بيروت

برخصة مجلس معارف ولاية بيروت الجليلة

بالمطبعة العمومية الكاثوليكية في بيروت 1891

(3)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**مقدمة للمترجم**

**الحمدلله تعالى**

أما بعد فيقول العبد الفقير إلى عفو ربه الوفير الخوري يوسف ضاهر البستاني لما كان الكتاب المعروف بالتعليم المسيحي الروماني من أعلى الكتب الدينية منزلة في بيعة الله المقدسة وأعظمها أهمية واعتباراً في باب الإرشاد والتعليم لجماعة المعلمين والمتعلمين من المؤمنين كما شهد به شهادة حقة المخلد الذكر الحبر الأعظم البابا بيوس السادس في رسالتهِ الآتي ايرادها إلى الاكليروس الكاثوليكي لشرقي والتي بها يهديهم هذا الكتاب الجليل مترجماً إلى العربية ومطبوعاً برومة العظى ويغزيهم باعتماده في إرشاد رعاياهم إلى سبل الحقائق الدينية الخلاصية والتقوى وكانت ترجمتُه من اللاتينية منذ عهد مائة سنة ونيف بقلم مجهول غير مستوفيه الضبط والسداد والصراحة فضلاً عن ركاكة العبارة وتشوشها أوعز إليَّ مسند العلم والتعليم ومصدر التهذيب والتقويم نادرة العصر وآية الفخر سيادة سيدي ومولاي المطران يوسف الدبس رئيس أساقفة بيروت بأن أصلح هذه الترجمة بتسديد عبارتها العربية وتحسين أساليبها مع مراعاة تطبيقها على اصلها

(4)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

اللاتيني كما نقتضيه الترجمات المدققة فلبيت امره بالطاعة والإمتثال كما يتوجب عليَّ أخذت أعارض الترجمة والأصل فما عتمت أن وجدت تلك الترجمة لا تصلح لما فيها من وفرة الخلل والنعي والغلط في ألفاظ اللغة العربية وأصولها فرأيت ترجمة الكتاب ثانية أصلح وأسهل. فمن ثم أخذت أترجمهُ كلهُ بدون التفات إلى الترجمة القديمة حتى انتهيت منهُ فجاءَت بحولهِ تعالى ترجمة سديدة العبارة صريحة المعنى سهلة المآخذ خالية من الخلل والزياغ وافية بالغرض من وضع هذا الكتاب وقد تقدمت للطبع بأمر وعناية ونفقة سيادة المطران المشار إليه فنسألهُ تعالى أن ينفع به قارئيه وسامعيه ويشدّد بايده القدير رعاة النفوس الذين لأجلهم خصوصاُ ألف هذا الكتاب

على حسن القيام بوظائفهم هذه الخطيرة لمجده

الأعظم وخلاص العباد فهو حسبنا وعليه

الاتكال في كل آنٍ وحال

آمـــــين

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(5)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

﴿ رسالة﴾

إلى البطاركة والمطارنة والأساقفة وبقية الأكليروس العالمي والقانوني

من الطقس الشرقي الحائزين شركة الكرسي الرسولي

من البابا بيوس السادس

أيها الأخوة المحترمون والأبناء الأعزاء السلام والبركة الرسولية

اننا دلالة على الشركة الكاثوليكية وبرهاناً وعربوناً لمحبتنا الأبوية لكم أيها الإخوة المحترمون والأبناء الاعزاء نقدم لكم التعليم المسيحي الروماني مترجماً إلى العربية الذي قد اعتنينا بمزيد الاجتهاد في طبعهِ بمطبعة مجمع انتشار الإيمان. فلا نظنكم تجهلون ما لهذا الكتاب من عظيم الشهرة والنفاسة ولو بعدتم عن رومة بعداً شاسعاً براً وبحراً واختلفتم طقساً ولغة عن الكنيسة الغربية لأنكم إذا نظرتم إلى مقام هذا الكتاب ترونه قد ألفهُ بأمر المجمع التريدنتيني المسكوني رجال علوا ذرى العلوم وبذلوا مزيد الاجتهاد والعناية في وضعهِ وطُبِعَ بأمر سالفنا وحلَّ عند الجميع محلاً سامي الاعتبار حتى اثنى عليه باتفاق الكلمة اثنان وعشرون مجمعاً اقليمياً وتلقاه جميع الأساقفة اللاتينيين بحميم القبول وترجموه إلى أكثر لغات شعوبنا وتتداوله أيدي الجميع ليس فقط في كامل كنيسة الغرب بل في خارج التخوم الغربية أيضاً وان لاحظتم التعليم المورد في هذا

(6)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الكتاب تجدوه يشتمل على كل ما يتضمنهُ التعليم المسيحي من جهة الإيمان والرجاء والمحبة أي أنكم ترون حقائق الإيمان المسيحي موضحة جلياً في شرح قانون الإيمان وما يختص بالرجاء الذي به نتجه إلى الله ونستمد منه العون والاسعاف فهو محرر في شرح الأسرار التي منها تفيض علينا ينابيع النعم الغزيرة وفي بيان الصلاة الربية التي تعلمناها من فم مخلصنا يسوع المسيح نفسه تعليماً جلياً وصريحاً كيف ينبغي لنا أن نصلي وأما ما يتعلق بالمحبة تلك الفضيلة السامية السنية الموكول عليها الناموس كله والانبياء فهو يتضمن في شرح وصايا الله العشر تضميناً محكماً بموجب التعليم المثبت من الكنيسة العامة. وزبدة الكلام أن هذاالكتاب كله قد وُضع ورُتِبَ وضعاً وترتيباً أحكم فيهِ بيان كل من عقائد التعليم المسيحي وقواعد الآداب لأجل إرشاد الخوارنة وتصرفهم

وعليهِ فقد رأينا من أنسب الأمور عملاً ان يطبع باللغة العربية هذا الكتاب النفيس المشتمل على كامل تعليم الإيمان والآداب الواجب على المؤمنين أن يتدرّبوا به كي يتوفر لكم أيضاً تداوله ومطالبتهُ فيعنيكم إذاً أيها الأخوة المحترمون أن تكبوا عليه كي يجني منهُ الخراف المفوضة إلى حراستكم ثمرة اهتمامنا الجديدة ولهذا يجب أن توجهوا أول عنايتكم بهذا الشأن إلى أن كلاً من الكهنة الذين يتعبون معكم في خدمة النفوس يمشون في تفقيههم الشعب على هذا الرسم الجليل ولاسيما حين يجتمع المؤمنون إلى حضور خدمة

(7)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

المقدسة ومثلهم الذين تقلدوا خدمة الانذار بكلام الله ان يغذوا قلوب المؤمنين بقوت هذا التعليم السماوي.

مع ذلك لا يخال بفكر أحد منكم أن هذا التعليم الروماني لنضمنِه طقوساً واحتفالات كثيرة تلائم خدمة الأسرار في الكنيسة الرومانية وتختلف عن الاستعمال والرتب الجارية عندكم نريد به أن تنبذوا شيئاً من العوائد الشرقية المقدسة المسلمة إليكم من سلفائكم الأقدمين والمثبتة من هذا الكرسي الرسولي لأن ذلك يغاير مشرب الكرسي الروماني المقدس ورسمهُ ومراسيم الأحبار الرومانيين سلفائنا الذين بذلوا في كل زمان أقصى جهدهم واهتمامهم في سبيل ارجاع الشعوب الشرقيين المنفصلين عن الكنيسة الرومانية بعثرة الارطقة والانشقاق إلى وحدة الإيمان وشركته وبمثل هذه العناية والاجتهاد قد سعوا دائماً أن الطقوس الشرقية الموقرة التي لا تضادً الإيمان الكاثوليكي ولا تسبب خطراً للنفوس أو تشوّه البهاء الكنائسي تبقى محفوظة ثابتة بحسب رسم كل كنيسة كما أمر سالفنا البابا بناديكتوس الرابع عشر في منشوره إلى رعاة الدين في البلاد الشرقية في العدد 47 وما يليه

فلا نقصد أيها الأخوة المحترمون في ارسالنا لكم هذا التعليم المطبوع باللغة الجارية عندكم الاّ أمراً واحداً نتوق إليه من صميم فؤادنا وهو ان نكون مرتبطين فيما بيننا بأمتن رباط المحبة والسلام ونكون أشد إرتباطاً أيضاً في حقيقة الإيمان وتعليم قواعد الآداب وأن تكون الكنيسة الشرقية واللاتينية بمنزلة كنيسة واحدة باتحاد الكلمة وبيتاً واحداً لأبى العائلة العامة.

(8)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فاقبلوا منا اذاً بطيبة الخاطر أيها الأخوة المحترمون والأبناء المودودون تعليم أمكم الكنيسة الرومانية المقدسة وارشادها العمومي والداعي للخلاص في كامل أقطار المسكونة كنور الشمس الممتد طولاً وعرضاً في جميع أمصار الأرض فإن هذه الكنيسة تحتضن وتربط جميع الكنائس بوحدة الإيمان بمنزلة رئيسة للعالم كله كما قال حسناً القديس غريغوريوس النزينزي نور الكنيسة. والأن نحضكم ونتوسل إليكم (كما قال رسول الأمم) باسم ربنا يسوع المسيح أن تقولوا كلكم قولاً واحداً ولا يكون بينكم انشقاق ثابتين في هذا الرأي عينهِ وفي هذا العزم نفسهِ (قورنتية 1) واحفظوا وحدةالروح برباط السلام روحاً واحداً ورأساً واحداً (فيليبي ص 2). وبما أن مخلصنا يسوع المسيح نفسه قد انبأ بوقوع الشكوك لا محالة لأن العدو لا يكف من زرع الزوان في حقل الرب فحذراً من أن تهووا إلى حجر العثرة وصخرة الشك لوجودكم في معامع الارطفات وبين الكنائس الشرقية المهشمة بالانقسام والبلبال فالتجوا إلى الصخرة الأخرى التي بنيت عليها الكنيسة أي بطرس وتمسكوا بعروة الكنيسة الرومانية الوثقى التي قامت بهِ وإتحدوا معها بعهد الإيمان والمحبة الوثيق ونخاطبكم هنا بالكلام الذي خاطب بهِ الشرقيين سالفنا القديس جالاسيوس في كتابتهِ لهم : ترى لماذا كان خطاب ربنا يسوع متجهاً على الغالب إلى بطرس لعلَّ باقي الرسل القديسين لم يكونوا مثلهُ متدرعين بالقوة فمن يحسر على هذا القول ولكن قد أقامهُ رأساً حسماً لأسباب الشقاق وبياناً لجعل جسد المسيح واحداً ينقاد إلى الرأس الواحد باتفاق المحبة المجيدة ولكي تكون الكنيسة

(9)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

واحدة فيركن إلى قولها باطمئنان وبيتاً واحداً لرب واحد ولفادٍ واحد تغذونا بخبز واحد وكأس واحدة فلذا السبب كان الآباء الأقدمون معلمو الكنائس الأجلاء أنوار الشعب المسيحي الساطعة الذين استحقوا بفضائلهم ان ينالوا اكليل الاعتراف المجيد وتيجان الاستشهاد اللامعة يرسلون إلى هذا الكرسي الذي جلس عليهِ هامة الرسل لدى ارتقائهم الدرجة الكهنوتية السامية وهم ممتلئون من محبة المسيح مستمدين درع الأيد المنيع لتقوية ضعفهم وتثبيتهم ونحن على يقين بحسن انقيادكم ويحق لكم أن تنظروا منا دلائل انعاماتنا الرسولية واحسانات محبتنا. واخيراً نضرع لله سبحانهُ الكلي الجود والصلاح ان يعضدكم بيمينهِ العلوية الضابطة الكل ويسعد كنائسكم ويجعلها كحصون وأسوار منيعة للديانة الكاثوليكية ثم اننا نرغب منكم أيها الأخوة المحترمون المكافاة لنا عن ذلك بأن توازرونا بالأدعية لله سبحانهُ لكي يشملنا برحمتهِ ويرشدنا كما رقانا بتدبيره إلى المقام السامي في هذه الخدمة الرسولية كيلا يتمكن تعليم الغش في مدة حياتنا هذه القصيرة من خداع الشعب المؤمن ولا تستطيع احكام السفاهة أن تظلم ضياء الكرازة الرسولية بل يستمر التعليم السماوي كما استلمناه على يد الطوباوي بطرس من الحق ذاتهِ ثابتاً لا يعروه فساد في العالم كلهِ باسعاف استحقاقاتهِ وأخيراً نمنح جميعكم وجميع الشعوب المفوضة إلى اهتمامكم الرعائي البركة الرسولية

أُعطي برومة بجانب كنيسة مار بطرس تحت ختم الصياد في 22 ك 1 سنة 1787 والثالثة عشرة لحبريتنا عن السيد الكردينال براسكي دي أونستي برنردينوس ماريسكوتي

(10)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

بسم الآب والابن والروح القدس

الاله الواحد آمين

مقدمة

التعليم المسيحي الروماني

وفيها الكلام على لزوم الرعاة في الكنيسة وسلطانهم ووظيفتهم

وفي رؤوس التعليم المسيحي الخصوصية

أولاً: إن الإنسان لا يستطيع بقواه الطبيعية أن يدرك الحكمة الصادقة والطرق الوثيقة لبلوغ السعادة. من حالة العقل البشري وإدراكه أنهُ قد أدرك بنفسهِ بعد مزيد العناء والاجتهاد والتقصي أموراً كثيرة تتعلق بمعرفة الأشياء الإلهية. إلاَّ أنهُ لم يقدر قط أن يعرف ويدرك بنور الطبيعة الناطقة أكثر الحقائق المتعلقة عليها الخلاص الأبدي الذي هو العلة الأولى لخلق الله الإنسان وابداعه على صورته ومثالهِ فقد قال بولس الرسول : لأن غير منظوراته قد أبصرت منذ خلق العالم إذ أُدركت بالمبرؤات وكذلك قدرته الأزلية وألوهته (رومة ص 1 عـ 20) ولكن ذاك السر الذي احتجب عن الدهور والاحقاب كما قال رسول الأمم (قولوسا ص 1 عـ 26) قد فاق المدارك البشرية بحيث أنهُ لم يعلنهُ الله للقديسين الذي أحب أن يكشف لهم عنى مجد هذا السر في الأمم الذي هو المسيح بموهبة الإيمان لما كان استطاع الإنسان مع كل

(11)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

اجتهاده أن يدرك تلك الحكمة.

ثانياً: من أين ندرك منحة الإيمان الوسيمة.

لما كان الإيمان يدرك بالسمع كما قال الرسول المعظم (رومية ص 10 عـ 17) تبين جلياً أنهُ لابدّ من معلم ثقة وخادم أمين لنيل الخلاص الأبدي لأنهُ قيل : كيف يؤمنون بمن لا يسمعونهُ وكيف يسمعون بلا منادٍ وكيف ينادون ان لم يرسلوا (رومية ص 10 عـ 14)

وبالحق أن الله الحنان الرأُوف لم يهمل عبيده قط منذ إنشاء العالم ولكنهُ بأشباه كثيرة وأنواع شتى كلم الآباء بواسطة الأنبياء (عبرانيين ص 1 عـ 1) وهدَاهم حسب مقتضيات الزمان سواء السبيل إلى السعادة الأبدية

ثالثاً: قد جاءَ المسيح إلى العالم ليعلِّم الإيمان الذي بثّه فيما بعد الرسل وخلفاؤهم.

قد أنبأ اشعيا النبي أن المسيح مزمع أن يجعل معلماً للبر ونوراً للأمم ليكون خلاصهُ إلى أقاصي الأرض (ص 49 عـ 6) والرسول المعظم يقول : كلمنا أخيراً في هذه الأيام بالابن الذي جعلهُ وارثاً لكل الأشياء (عبرانية ص 1 عـ 2) اذ نزل عليه الصوت من السماءِ بمجد عظيم يأمر الجميع ان يسمعوا لهُ ويطيعوا وصاياه (بطرس ص 1 عـ 17). ثم الابن أعطى بعضاً أن يكونوا رسلاً وبعضاً أنبياء وبعضاً مبشرين بكلمة الحياة لكي لا نكون

(12)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

بعد اطفالاً متقلبين ونتصرف بكل ريح تعليم بل نتوطد على أساس الإيمان الوطيد لنصير شركاء البنيان ومسكناً لله بالروح القدس (أفسس ص 4 عـ 11).

رابعاً: كيف يجب أن يكون مسموعاً كلام رعاة الكنيسة.

لا يؤخذ كلام رعاة الكنيسة بمنزلة كلام الناس بل بمنزلة كلام المسيح كما هو الواقع (تسالونيكي ص 12 عـ 12) لأن مخلصنا نفسهُ خوّل الرعاة المشار إليهم سلطاناً عظيماً حتى قال : من سمع منكم فقد سمع مني ومن احتقركم فقد احتقرني (لوقا ص 10 عـ 16) ولم يشر بكلامهِ هذا إلى الذين كان يخاطبهم فقد بل إلى جميع الذين يخلفونهم أيضاً خلافة حقة في وظيفة التعليم أولئك الذين وعدهم بأن سيكون معهم كل الأيام حتى انقضاء العالم (متى ص 28 عـ 20).

خامساً: فإذا اتضحت هذه الحقيقة لزم الرعاة اليوم أيضاً أن يكرزوا بكلام الله.

لا يجب أن ينقطع التبشير بكلام الله أبداً في بيعة الله لاسيما في هذه الأيام بل ينبغي العمل بالاجتهاد والتقوى كي يقتدي المؤمنون بالتعليم الصحيح السليم بقوت الحياة لأن قد قام أنبياء كذبة في هذا العالم وكثر عديدهم وفيهم قال الرب بلسان اشعيا النبي : لم أكن أرسل الأنبياء وهم يسعون ولم أكن أكلمهم وهم يتنباؤن (اشعيا ص 4 عـ 1) لكي يضلوا قلوب الشعب المسيحي بالتعاليم الغريبة المختلفة التي

(13)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

حذَّر منها رسول الأمم بقوله: إياكم أن تضلوا بالتعاليم الغريبة المختلفة (عبرانية ص 12 عـ 9) وقد قام تفاقم نفاقهم بحبل ابليس حتى كاد لا ينحصر بحد ولولا استنادنا على ما وعد به مخلصنا وعداً صريحاً من انهُ وضع للكنيسة اساساً متيناً لا تقوى عليه أبواب الجحيم (متى ص 16 عـ 18) لكنا نخشى كثيراً في هذه الأيام أن تسقط دكاً لكثرة ما يحدق بها من الأعداء ولفرط ما تقاسيه من حربهم ونكالهم. فما خلا تلك الأمصار الجليلة التي نعرض عن ذكرها وكانت في القديم قد قبلت الديانة الكاثوليكية وتمسكت بعروتها الوثقى والأن تركت السبيل القويم وعمت في الظلام وهي تحسب أنها سائرة في سبل الهدى بنفس ابتعادها عن دين آبائها ما من قطر من الأقطار القاصية وما من مكان من الأمكنة الحصينة وما من زاوية من زوايا المملكة المسيحية الاَّ حاول هذا الوباء أن يدخلها تحت ديجور الاستتار.

سادساً: في أن الأراطقة حاولوا أن يطغوا عقول المسيحيين

بكتب تعاليمهم الفاسدة.

ان الذين قصدوا أن يفسدوا عقول المؤمنين ويغروهم بتعاليمهم الباطلة لما رأوا أن لا سبيل إلى مخاطبة الجميع وبث كلامهم السام في مسامعهم عمدوا إلى طريقة أخرى غير المتكلم مشافهة يتوفر لهم بها زرع الضلال والنفاق بأيسر منوال فإنهم عدا ما وضعوا من الكتب الضخمة التي حاولوا بها هدم الإيمان مع كونها لا تقضي بكبير العناء في التحرُّز منها لتضمنها الأرطقة بصريح العبارة قد نشروا ما

(14)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

لا يحصيه عادٌ من كتيبات زوقوها بشكل التقوى والعبادة حتى توفر لهم ما لا يدرك من السهولة في اصطياد عقول المذبح بحبائل غشهم وهم عنا غافلون.

سابعاً: قد أحكم المجمع التريدنتيني المقدس بحتمِهِ بلزوم مقاومة أقوال المرسلين الكذبة وكتاباتهم الفاسدة.

لما كان آباء المجمع التريدنتيني المقدس المسكوني تائقين إلى وضع دواء خلاصي لهذا الداء الموبق لم يروا كافياً لصدم الارطقات في زماننا مجرد الحكم بمسائل التعليم الكاثوليكي الكبيرة بل استحسنوا فوق ذلك وضع صورة قانون مقرَّر للشعب المسيحي يتألف من أصول الإيمان يمشي عليه في جميع الكنائس من تولوا وظيفة التعليم ورعاية النفوس

ثامناً: قد دعت الضرورة أيضاً إلى أن المجمع المسكوني والحبر الأعظم يقدمون للرعاة كتاباً جديداً للتعليم المسيحي زيادة على الكتب العديدة التي وضعت بهذا الشأن.

ان كثيرين قد نبغوا إلى الآن في نوه هذه الكتابة وحازوا بها ثناءً جميلاً غير أن آباء المجمع قد رأوا فائدة كبيرة في وضع كتاب بسلطان المجمع المقدس يتخذ منهُ الخوارنة أو جميع من توالوا وظيفة التعليم بعض وصايا لبنيان المؤمنين كي تكون قاعدة واحدة وقانون واحد لتعليم الإيمان وتهذيب الشعب المسيحي في جميع أعمال التقوى والعبادة كما أن الرب واحد والإيمان واحد.

(15)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

تاسعاً: ليس الكلام هنا على جميع حقائق ديانتنا.

حيث أن حقائق الديانة المسيحية كثيرة العدد فلا يخالنَّ في بال أحد أن المجمع المقدس تعمد تسطيرها جميعاً وبيانها في كتاب واحد ذلك دأب من تعمدوا الكلام في مرسوم الديانة بأسرها ومن الواضح أن شرح كل قواعد الدين يلزمهُ ما لا مزيد عليه من المشقة والعناء ولا يناسب المقصود هنا الذي هو تثقيف الخواؤنة والكهنة خدمة النفوس بمعرفة تلك الأمور المنوطة بوظيفة الرعاة والسهلة المأخذ للمؤمنين فأراد المجمع أن يوردها على حدتها في هذا المقام ليستعين بها الرعاة الاتقياء في هذا الصدد إذا لم يكونوا تروَّضوا فيما كان يفوقها صعوبة من المحاورات في الأمور الإلهية. وعليه فقبل أن نأتي بالكلام المفصل على كل ما يشتمل عليه هذا التعليم اقتضى نظام التأليف أن نورد بعض مبادئ يتمعنها الرعاة ويجعلونها نصب أعينهم كي يتدبروا كيف ينبغي أن يوجهوا جميع أعمالهم وتدابيرهم إلى هذه الغاية فيتوفر لهم نيل ما يرغبونُهُ على أيسر منوال.

عاشراً: لما كان الغرض هنا تعليم الرعاة لزمهم قبل كل شيء أن يتدبروا ما به يحسنون القيام بوظيفتهم.

يجب على الرعاة أن يصرفوا كل تعليمهم في أن يعقل الجميع عظم ما أحسن الله سبحانهُ بهِ على النوع البشري بواسطة المسيح فعليهم أولاً وبدأ أن يتذكروا على الدوام أن كل علم الإنسان المسيحي قد انحصر في هذا الباب وهو كم قال مخلصنا: هذه هي حيوة الابدان يعرفوك وحدك أنك

(16)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الاله الحق والذي أرسلتُه يسوع المسيح (يوحنا ص 17 عـ 2).

ولذا ينبغي على العلم المسيحي خاصةً أن يعتني جهده ليتوق المؤمنون إلى معرفة يسوع المسيح مصلوباً (قورنتية 1 ص 2 عـ 2)، وان يوقنوا ويعتقدوا من صميم قلوبهم أنهُ لم يعطَ اسم آخر للبشر تحت السماء ينبغي أن نخلص بهِ (ابركسيس ص 4 عـ 12) لكونهِ هو الغفران بدل خطايانا (يوحنا ص 2 عـ 2) وبهذا نعلم أننا قد عرفناه إذا حفظنا وصاياه (يوحنا ص 2 عـ 2) ومما يقرب إلى هذا القول ويقترن به هو أن المؤمنين لا يقضون حياتهم بالكسل والتهاون بل إنما يلزمهم أن يسعوا كما سعى المسيح ويبذلوا جهدهم في أثر البر والتقوى والإيمان والمحبة والدعة لأنهُ هو الذي بذل نفسهُ دوننا ويطهرَّنا لنفسِهِ شعباً مقبولاً يتنافس في الأعمال الصالحة التي أمر بها رسول الأمم موصياً الرعاة أن يتكلموا بها ويغروا بها المؤمنين (تيموتاوس ص 4 عـ 12) على أن ربنا ومخلصنا لم يقل في ذلك قولاً فقط بل ابانهُ بمثله أيضاً وبيّن أن الناموس والأنبياء تقوم بوصية المحبة (متى ص 22 عـ 40) ثم قرر الرسول المعظم أن غاية الوصية هي المحبة التي تكون من قلب نقي ونية صالحة ومن إيمان صحيح (ثيموتاوس ص 1 عـ 5) وقال فيها أنها كمال للناموس (رومة ص 12 عـ 2) ولا غروَ أن هذه أخص واجبات الراعي المطلوب منهُ تتميمها بمزيد النشاط والاجتهاد كي ينتعش المؤمنون ويهيموا بمحبة صلاح الله وجودته الغير المتناهية نحونا فاذا اضطرم قلبهم بسعير الحب الإلهي يسبون إلى ذاك الخير الأعظم والكلي الكمال الذي من شعر بهِ أدرك السعادة الحقيقية الراهنة وهتف مع النبي داود: ماذا لي في السماء وماذا أردت سواك على الأرض (مزمور 72 عـ 25)، وهذا هو السبيل الأفضل الذي أرانا إياه رسول الأمم وقد وجه كامل

(17)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

تعليمه وقصده إلى المحبة التي قال عنها أنها لا تسقط (قورنتية 1 ص 13 عـ 8). فعلى المعلم المسيحي الكاثوليكي إذن أن يوجه كل تعليمه إلى المحبة ويعلن أن المحبة كمال الناموس وأن ليس فضيلة بدون محبة. فسواء أمرنا بالإيمان أو بالرجاء أو بعمل آخر أيًّا كان وجب علينا أن نعتمد محبة ربنا يسوع المسيح بحيث كل من ينظر جميع أعمال الفضيلة المسيحية الكاملة يتحقق أن لا مصدر لها ولا مرجع إلاَّ المحبة.

حادي عشر: لا يكفي الرعاة أن يتصدوا بتعليمهم هاتين

الفائدتين بل لابد لهم أن يجعلوا كلامهم سهل المآخذ لسامعيه.

ان التعليم لازم في كل حال إنما من الأمور المهمة في ارشاد الشعب المسيحي أن يختار فيه الطريقة الفضلى دون غيرها فمن الواجب أن يراعي أيضاً عمر السامعين وإدراكهم وآدابهم حتى إذا علَّم المعم يصير كلاً للكل ويربح الجميع للمسيح (قورنتية 1 ص 9 عـ 22) وكما قال الرسول المعظم أيضاً لأني إذا كنت حراًّ من الجميع فقد عبدت نفسي لكل أحد لا ربح كثيرين من الناس صرت مع السقيمين سقيماً لا ربح السقيمين (قورنتية 1 ص 4 عـ 1) ويستطيع المعم أن يقيم ذاته خادماً أميناً للمسيح وقهرماناً زكالعبد الصالح والأمين الذي استحق أن يقيمه سيده على الكثير (متى ص 25 عـ 23) ولا يتوهم أن الناس الذين ائتمن على رعايتهم وفوِّض إليه الإهتمام بخلاصهم هم في رتبة واحدة حتى يستطيع أن يرشدهم جميعاً إلى العبادة الحقيقية ويهديهم سراط التعليم المستقيم بمنهج واحد وصورة واحدة

(18)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

تعم الجميع على حد سوى بل أن فيهم من كانوا كالأطفال المولودين حديثاً (بطرس ص 2 عـ 2) وفيهم من ابتدأوا أن ينموا بالمسيح كالشبان ومنهم من بلغوا عمر الرجال فلذلك تحتم على الراعي أن يتبصر جهده ليعرف من هم الذين يلزمهُ أن يقيتهم برضاع اللبن ومن هم الذين ينبغي أن يغذيهم بطعام أكثر تقوية ويقدم لكل واحد منهم ذلك القوت من التعليم الذي ينميهم بالروح إلى أن ننتهي جميعاً إلى وحدة الإيمان ومعرفة ابن الله الى انسان كامل حسب مقدار قامة كمال المسيح (افسس ص 4 عـ 4) ثم ان الرسول يحتم على جميع الرعاة ان يجروا على الخطة التي جرى عليها هو نفسهُ اذ قال: ان عليَّ ديناًّ لليونانيين والبرابرة للحكماء والجهال (رومة ص 1 عـ 14) أراد بذلك أن يفهم أولئك الذين ندبوا إلى هذه الخدمة أنهم لملتزمون في إلقائهم أسوار الإيمان وشرحهم وصايا الحياة بأن يجعلوا تعليمهم سهل المآخذ لفهم السامعين وإدراكهم لئلا اذا أوعبوا من القوت الروحي نفوس الذين يقدرون على فهمِهِ بالترويض والتفقُّه يتركون في الوقت نفسهِ الأطفال يهلكون جوعاً اذ يلتمسون الخبز وليس من يكسره لهم (مراثى ارمياص 4 عـ 4) فلا ينبغي التقاعد عن التعليم بسبب أنهُ يلزم أحياناً أن يتفقه السامع بالاطلاع على الوصايا التي تستبين طفيفة زهيدة يسأم سماعها من تعوَّد الخوض في مضمار المسائل السامية والارتياح إلى سماعها فإن كان حكمة الآب الأزلي قد انحدر بذاتِهِ إلى الأرض واتخذ جسدنا هذا الوضيع كي يعلمنا وصايا الحياة السماوية فمن لا تستفزُّه محبة المسيح إلى أن

(19)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يكون بين اخوتهِ كالطفل وكالمربية التي تحتضن بنيها (تسالونيكي ص 2 عـ 2) ويضطرم شوقاً إلى خلاص القريب كما يشهد بذلك رسول الأمم عن نفسهِ في الرسالة المذكورة إذ يقول: نحن أيضاً نحبكم ونتوق أن نعطيكم ليس بشرى الله فقط بل وأنفسنا أيضاً لأنكم أحباؤنا (ص 2 عـ 8).

ثاني عشر: لما احتجب الله عن نظرنا جعل رعاة الكنيسة

يستقون كلامهُ من منهل الكتب المقدسة والتقليدات.

إن كل تعليم يلقى إلى المؤمنين يتضمن كلام الله المسطر في الكتاب المقدس والتقليدات ولذا تحتم على رعاة الكنيسة أن يحبوا نهارهم وليلهم بالهذيذ في هذه الأمور متذكرين ما أوعز بهِ الرسول المعظم إلى تلميذه تيموتاوس وجميع من تقلدوا الإهتمام بأمر النفوس قائلاً: واظب على القرآة إلى حين قدومي وعلى الوعظ والتعليم (تيموتاوس 1 ص 4 عـ 13) .

ومن قوله أيضاً: إن كل كتاب أوحى به من الله مفيد للتعليم والتهذيب بالبر ليكون رجل الله كاملاً مستعداً لكل عمل صالح (تيموتاوس 2 ص 3 عـ 16). إنما لما كانت حقائق الوحي كثيرة ومتنوعة لا يستطيع الإنسان أ، يدركها ويحصرها في ذهنهِ ويحفظها على ظهر بالهِ حتى إذا دعته الحاجة إلى التعليم يكون متأهباً إلى شرحها ارتجالاً. فالآباءُ الأقدمون قد قسموا موضوع هذا التعليم الخلاصي ورسمه إلى أربعة أبواب وهي: قانون إيمان الرسل والأسرار والوصايا العشر والصلوة الربية لأن كل ما تعلق بتعليم الديانة المسيحية إذ كان من قبل معرفة .

(22)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الباب الأول

من التعليم المسيحي الروماني

الفصل الأول

في الإيمان وقانونه

أولاً: في ما يفهم هنا بالإيمان وفي لزومه للخلاص

قد ورد في الأسفار الإلهية معانٍ كثيرة للإيمان أما المفهوم به هنا هو الإذعان للعقائد المسلمة بالوحي ولا يصح لأحد أن يرتاب بأنهُ ضروري لنيل الخلاص لما ورد في الكتاب: بدون إيمان لا يستطيع أحد أن يرضي الله (عبرانيين ص 11 عـ 6)، فلما كانت الغاية المرسومة لسعادة الإنسان تعلو إدراك العقل البشري تحتم عليه أن يقتبس معرفتها من الله جل شأنه وما هذه المعرفة إلاَّ الإيمان الذي يجعلنا بقوتهِ نعتقد اعتقاداً وطيداً ما أثبتتهُ كنيستنا المقدسة بأن الله سبحانهُ أوحاه. ولا سبيل للمؤمنين أن يرتابوا أصلاً بصحة الحقائق التي أوحاها الله لأنهُ سبحانه الحق بالذات ومن قم نفهم ما أعظم الفرق بين هذا الإيمان الذي أوحاه الله والإيمان المبني على ما كتبهُ كتبة الأخبار البشرية على أن الإيمان ولو اتسع نطاقهُ واختلف قدراً ومنزلة

(23)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

كما ورد في الكتاب: يا قليل الإيمان لماذا شككت (متى ص 15) وزدنا إيماناً (لوقا ص 17) وفي رسالة مار يعقوب الرسول: الإيمان بلا أعمال ميت (ص 2) وفي رسالة مار بولس إلى أهل غلاطية: الإيمان الذي يعمل بالمحبة (ص 5) الا أنه واحد في جنسهِ ومعناه وله في جميع درجاته المختلفة تعريف واحد بعينه وسيأتي الكلام في شرح أجزائِه على ما نجنيه من الثمار منهُ وعلى مقدار ما نقتبسهُ من الفوائد.

ثانياُ: في كيف نظم الرسل قانون الإيمان اثنى عشر جزءاً ولأي سبب.

ان الأشياء التي يجب على المسيحيين أن يتمسكوا بها بذاءة بذء هي التي وضعها الرسل القديسون رعاة الإيمان وعلماؤُه ونظموها بإلهام الروح القدس اثنى عشر جزءاً لأنهم لما تلقوا من الرب أمراً بالذهاب إلى العالم كله وبكرازة الانجيل على الخليقة كلها وهم نوابه في الرسالة رأوا أن يرتبوا قانون الإيمان المسيحي كي يتمسك به الجميع اعتقاداً وقولاً ولا يقع أدنى شقاق بين الذين دعوهم إلى وحدة الإيمان بل يكونون ملتئمين بفكر واحد ورأي واحد (قورنتية ص 10).

ثالثاً: ما هو قانون الإيمان

ج ان الرسل سموا عقائد الإيمان التي نظموها قانوناً وذلك أما لأنهم قد ألفوه من قضايا شتى أتى كل منهم بواحدة منها وأما لأنهم اتخذوه دستوراً يتيسر لهم به أن يميزوا بين

(24)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الناس الجاحدين والأخوة الكذبة الدخلاء الذين كانوا يفسدون الإنجيل وأولئك الذين تقيدوا حقيقة بسر جندية المسيح.

رابعاً: ما لزوم قانون الإيمان وإلى كم يُقسم

ج بداية قانون الإيمان هي: أنا أؤمن بالله. فلما كانت القضايا المفروضة على المؤمنين في الدين المسيحي كثيرة العدد وينبغي الإيمان بها أفراداً واجمالاً قد علمنا الله سبحانهُ ما كان أساس الحق من توحيد ذاته الإلهية وتتليث اقانيمه وما يعزي إليها من الأفعال على وجه الخصوص. فمن الواجب على الخوري أن يعلم أن تعليم هذا السر متضمن على سبيل الاختصار في قانون إيمان الرسل لأنهُ كما لحظ آباؤنا الأقدمون الذين خاضوا عباب هذا السر بالورع والاجتهاد يظهر أنهُ يقسم إلى ثلاثة أقسام ينسب في القسم الأول فعل الخلقة العجيب للأقنوم الأول للطبيعة الإلهية وفي القسم الثاني سر الفداء البشري للأقنوم الثاني وفي القسم الثالث أـصل قداستنا ومصدرها للأقنوم الثالث وهكذا ينطبق على قضايا شتى محكمة الوضع وهي التي ندعوها أجزاء وكثيراً ما عبر عنها آباؤنا الأقدمون بالتمثيل بالجسد. فكما أن أعضاء الجسد تقسم إلى أجزاء هكذا ندعو بحق وصواب جزءاً كل ما وجب علينا اعتقاده في الاعتراف بهذا الإيمان على وجه التمييز والتفصيل.

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(25)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الفصل الثاني

في الجزء الأول من قانون الإيمان

" أنا أومن بالله الآب الضابط الكل خالق السماء والأرض "

أولاً: شرح الجزء الأول بوجه الإيجاز

ان فحوى هذه العبارات هو: أنني أؤمن ثابتاً واعترف بلا تردد البتة بأن الله الآب أي الأقنوم الأول من الثالوث الأقدس قد خلق السماء والأرض وكل ما فيهما بقدرتهِ الضابطة الكل وهو يحفظها ويسوسها ولا أعتقد ذلك بالقلب واعترف به بالفم فقط بل انني اتجه إليه بمزيد الورع والاجتهاد بما أنهُ الخير الأعظم والأكمل. فهذا فحوى هذا الجزء الأول على وجه الاختصار غير أن كلاً من عباراته تضمنت أسراراً عظيمة ينبغي على الخوري ان يتروَّى فيها بمزيد الاجتهاد كيما يتقدم الشعب المؤمن إلى التأمل بمجد جلال الله بالخوف والمهابة بقدر ما يتيح له الرب.

ثانياً: ترى ما مفاد هذه العبارة " أؤمن "

ان عبارة الإيمان في هذاالمقام لا تدل على معنى الظن أو الوهم أو الارتياء بل تفيد كما علمت الأسفار المقدسة معنى اليقين الطيد الذي به يصدق العقل بتأكيد وثبات ما يكشفهُ الله من أسراره فمن ثم كان المؤمن في هذا المقام من يعتقد

(26)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ويوقن بدون أدنى تردد أو ارتياب ما أوحاه الله. فلا يجوز لأحد أن يعتبر أن معرفة الإيمان أقل توكيداً لكونه يفرض علينا أن نعتقد أموراً غير منظورة لأن النور الإلهي الي به ندركها لا يسوّغ لنا أن نرتاب بصحتها ولو لم ننظرها جلياً لأن الله الذي قال ان النور يشرق من الظلمة هو أشرق على قلوبنا كي لا يكون الإنجيل محجوباً كما حجب عن الهالكين (قورنتية 2 ص 4 عـ 6).

ثالثاً: ان الأشياء المفروضة في قانون الإيمان لا ينبغي البحث

عنها من باب الفضول بل يجب قبولها على وجه البساطة

ينتج مما مرَّ أن من حاز معرفة الإيمان هذه السماوية أصبح في غنى عن البحث الغير اللازم لأن الله سبحانه لما أمرنا بالإيمان لم يفرض علينا فحس أحكامهِ الإلهية ولا استقصاء أسبابها وعللها بل وأعز إلينا أن نؤمن إيماناً وثيقاً ثابتاً شأنه أن يجعل العقل مطمئناً في معرفة الحق الأزلي لأن الله صادق وكل إنسان كاذب كما قال الرسول (رومية ص 3 عـ 4)، فإن كان من الجهالة والسفه أن لا نصدق رجلاً حكيماً عاقلاً فيما يقرّر لنا من الوقائع بل نلتمس منه اثبات مقاله بالأدلة والشهود والحجج على هذا التعليم السماوي المؤدي إلى الخلاص فمن الواجب إذاً أن نتمسك بعروة الإيمان الوثقى لا بمعزل عن كل تردد فقط بل عن الرغبة في البرهان.

(27)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

رابعاً: لا يكفي الإيمان بالقلب للخلاص بل يلزم

الاقرار به بالفم أيضاً

يجب على الراعي أن يعلّم أن القائل " أنا أؤمن " لا يجب أن يكتفي بما في طي عقلهِ من الرضوخ والاذعان للإيمان وهو فعل الإيمان الباطن بل عليهِ أيضاً أن يقرّ ويعترف به بلسانهِ بالابتهاج والسرور. فمن الواجب على المؤمنين أن يتمنطقوا بذاك الروح الذي تمنطق به داود الني القائل امنت ولذلك تكلمت (مزمور 115) ويشتبهوا بالرسل الذين أجابوا رؤساء الشعب بقولهم: لا تقدران لا نتكلم بما عاينا وسمعنا (أعمال ص 4 عـ 20) وينتعشوا بصوت الرسول المعظم القائل: لا استحي بالانجيل لأنهُ قوة الله خلاصاُ لكل مؤمن (رومة ص 1 عـ 16)

ومما يثبت خاصة حقيقة هذا القول ما قالهُ رسول الأمم: لأن القلب يؤمن به للبر والفم يعترف به للخلاص (رومة ص 10 عـ 10).

خامساً: في عظمة الإيمان المسيحي

"أؤمن بالله" من هنا يمكننا أن نعرف عظمة الحكمة المسيحية وسموها وما أكثر ما نحن مديونون لصلاح الله بسببها حيث اعطينا أن نترقى سريعاً في مدارج الإيمان إلى معرفة اسمى وأجلّ ما نتوّق إليه.

سادساً: في الفرق بين الحكمة المسيحية المستفادة من الله والمعرفة الفلسفية في الأمور الإلهية.

(28)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

بين الفلسفة المسيحية وحكمة هذا الدهر لفرق عظيم لأن الحكمة العالمية ترى أمور الله الغير المنظورة بالنور الطبيعي فقط متدرجة إليها شيئاً

فشيئاً من مشاهدة المعلولات والمحسوسات وما ذلك إلاّ بعد العناء الجزيل والكد الطويل فتعقل وتعرف العلة الأولى لجميع الأشياء وخالقها أما الحكمة المسيحية فإنها تشحذ العقل البشري بنوع أنهُ يستطيع أن يخرق السماء بدون عناء ويستنير بإشراق النور الإلهي فيشاهد أولاً ينبوع النور الأزلي بعينهِ ثم ما كان دونه من المخلوقات حتى أننا نختبر بغاية الفرح والإيتهاج ما قاله هامة الرسل من أننا دعينا من الضلمة إلى النور العجيب (بطرس 1 ص 2 عـ 9) فنؤمن ونرتكض بفرح لا يوصف. فمن الواجب إذاً أن المؤمنين في بادئ الأمر يعترفون أنهم يؤمنون بالله ذي العزة والجلال الفائق طور العقول كما قال ارميا النبي (ص 32 عـ 16) وقال الرسول المعظم الساكن في النور الذي لا يستطيع أحد على الدنوّ منه ولم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه (تيموتاوس 1 ص 33 عـ 20) فمن الضرورة أن عقلنا يتجرّد من الحواس بالكلية كي يبلغ إليه تعالى الذي يفوق الكائنات بأسرها سمواً وجلالاً. ولا يقدر على هذا التجرّد طبعاً في هذه الحيوة على أنهُ وان كانت هذه الحال حالنا فمع ذلك لم يدع الله ذاته بدون شهادة كما قال الرسول المعظم اذ يحسن من السماء ويعطي المطر وزمان الثمر ويملئ قلوب البشر طعاماً وفرحاً (أعمال ص 11 عـ 16) وهذا ما حمل الفلاسفة على أن ينفوا عن الله كل خسيس وذري وكل ما كان جسدياً ومركباً ومختلطاً واعزوا إليه القدرة الكاملة على جميع الخيرات وفيضانها كأنُه ينبوع دائم

(29)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

لا يجف للجودة والصلاح تجري منهُ جميع الخيرات الكاملة إلى جميع المخلوقات والطبائع المبروّة ودعوه بالأسماء الحُسنى الحكيم ولي الحق والعادل والمنان إلى غير ذلك من الأوصاف والنعوت الجليلة المعبرة عن كماله الأعظم والمطلق وقدرته الغير المقاسة والغير المتناهية وعن كونه مالئاً كل مكان وجميع الموجودات ويثبت ذلك من الكتاب بأجلى بيان كما في هذه الآيات الله روح هو (يوحنا ص 1 عـ 24) كونوا كاملين كما أن أباكم السماوي كامل هو (متى ص 5 عـ 28) كل شيء مكشوف وظاهر لعينيهِ (حبقوق ص 4 عـ 13) فيالعمق غنى الله وحكمته وعلمه (رومة ص 11 عـ 33).

ان الله صادق (رومة ص 14 عـ 6) أنا هو الطريق والحق والحيوة (يوحنا ص 14 عـ 6).

ومن النصوص على هذه الحقيقة قوله: يمينك مملؤة عدلاً (مزمور 47) أبسط يدك فتُشبِع كل حي (مزمور 47)

اين اذهب من روحك واين أهرب من وجهك (مزمور 144) ان صعدت إلى السماء فانت هناك وإن نزلت إلى الجحيم فأنت حاضر وان أخذت جناحين باكراً وسكنت في أقاصي البحر إلخ (ارميا ص 23 عـ 24) ألست أنا أملئ السماء والأرض يقول الرب (ارميا ص 23 عـ 34). فما أعظم وأجلّ هذه الأمور الملاحظة طبع الله وهي طابقة لشهادة الأسفار المقدسة وقد عرف الفلاسفة أنها تنتج من الاستصاء والبحث في الأشياء المخلوقة على أننا نعلم أن التعليم السموي لازم أيضاً ليس فقط لأنهُ يُنير لنا الإيمان وما أدركه الرجال الحكماء بالعناء والاجتهاد يشرق على بصائر الأمين بأكثر سرعة وأقل عناء بل لأن معرفة الأمور

(30)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

المستفادة من الإيمان تكون أكثر رسوخاً في الأذهان أيضاً وأبعد كثيراً عن الضلال مما يدركه العقل بالعلم البشري مسدداً بالأدلة والحجج.

فكم تفضل معرفة الذات الإلهية وقد فتح لها نور الإيمان باباً في أذهان المؤمنين على المعرفة المستفادة من تأمل كل من الناس بأحوال الطبيعة فهذا ما تتضمنهُ أجزاء قانون الإيمان الذي يكشف لنا وحدانية الذات الإلهية وتتميز الأقانيم الثلاثة ثم كونه تعالى غاية الإنسان القصوى ومنهُ نتوقع امتلاك السعادة السماوية الخالدة لأننا قد تلقنا عن الرسول المعظم أن الله سبحانه يجزل الثواب للذين يطلبونه (عبرانيين ص 11 عـ 6) وقبل الرسول بولس باحقاب ابان اشعيا النبي عظم هذه السعادة وما تستطيع المعرفة البشرية أن تتوق إليه من الخيرات بقوله: لم يسمعوا من الدهر ولم يدركوا بآذانهم ولم ترَ عين اللَّهم بدونك ما اعددته لمنتظريك (اشعيا ص 64 عـ 4).

سابعاً: في أنه ينبغي علينا أن نعتقد بأن الله واحد وأن

لا إله سواه

ينتج ما قلناه أنه يجب علينا أن نؤمن بأن الله واحد وأن ليس آلهة كثيرون ودليله هو أننا نعزي إليه تعالى أعظم جودة وكمال ولا يتفق أن يوجد في كثيرين ما كان كليَّ السموّ والكمال لأن ما كان ناقصاً عن الكمال الأعظم يكون بذلك نفسهِ غير كامل ولذا لا يليق بطبيعة الله وهذا ثابت بآيات كثيرة من الكتاب المقدس فقد كتب: اسمع يا اسرائيل إن الرب إلهنا رب واحد هو (تثنية ص 6 عـ 3)

(31)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثم قد نهى الله عن اتخاذ آلهة غيره بقوله لا يكن لك إله غيري (خروج ص 20 عـ 3) وكثيراً ما أنذرنا بلسان النبي قائلاً: أنا الأول والآخر وليس إله غيري (اشعيا ص 44 ورؤيا ص 1 عـ 17) وشهد الرسول صريحاً أن الرب واحد والإيمان واحد والمعمودية واحدة

ثامناً: في أنه يعزي أحياناً اسم الله إلى المخلوقات ولكن

على سبيل المجاز

فلا عبرة في أن الكتاب المقدس يطلق أحياناُ اسم الله على المبرؤَات لأن تسميتُه للأنبياء والقضاة آلهة لم تكن بحسب عادة الأمم التي اصطنعت لها آلهة بالجهالة والكفر بل الغرض بمثل هذا الاصطلاح في العبارة ان يشير إلى فضيلة ما عظيمة وإلى وظيفة تقلدها هؤلاء من قبل الله فهو جل جلاله واحد بالطبع والجوهر والذات كما جاء في مجمع النيقاوي اثباتاً لهذه الحقيقة وهذا هو إيمان المسيحي المؤمن واعترافه. غير أنه يرتقي إلى ما هو أعلى حيث يكرّم الوحدانية في الثالوث والثالوث في الوحدانية وهذا هو السر الذي نأخذ الآن بالكلام عليه.

تاسعاً: في أن الله يدعي آباً لجميع البشر على وجه العموم وللمسيحيين على وجه الخصوص

"الاب" لما كانت لفظة آب لا تطلق على الله من وجه واحد اقتضى أن نبين معناها الخاص في هذا المقام. فقد فهم بالله بعض الذين لم يستتر ظلامهم بنور الإييمان أنه الجوهر

(32)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الأزلي الذي صدرت عنه جميع الأشياء ويسوس الجميع بعنايتهِ ويحفظها في نظامها ووجودها.

فعلى شبه ما يكون في الأمور البشرية من أن كل من كان أصل العائلة ويدبرها بأمره وشوره يدعونهُ أباً هكذا جرى أن الله الذي عرفوه خالقاً لجميع المبرؤات ومبدعها ومدبرها دعوة الأب وقد ورد هذا الاسم عينه في الصحف المقدسة اذا أتت بالكلام على الله سبحانه اشارة إلى أن ينبغي أن يعزي إليه خلقة العالمين والقدرة والعناية العجيبة هكذا نفرأ في سفر تثنية الإشتراع: أليس هو أباك الذي افتناك وصنعك وخلقك (ص 32 عـ 6) وفي محل آخر: أليس أب واحد ليجمعنا أليس إله واحد خلقنا (ملاخيا ص 2 عـ 10)، وقد أكثر كتاب العهد الجديد من تسمية الله أباً للمسيحيين الذين لم يأخذوا روح العبودية للمخافة بل إنما أخذوا روح ذخيرة البنين التي بها يدعون الأب أبانا (رومة ص 8 عـ 15)، ما أعظم المحبة التي أعطاناها الأب حتى نُدعى أبناء الله ونكون كذلك (يوحنا رسالة 1 ص 3 عـ 1).

وقال بولس الرسول: فإن كنا نحن أبناء فورثة أيضاً ووارثون مع المسيح الذي هو بكر لأخوة كثيرين (رومة ص 8 عـ 17) ولم يستحِ أن يسمينا اخوته.

فإن لاحظنا اذاً علة الخلقة بوجه الاجمال أو علة البنوة الروحية بوجه الخصوص حق للمؤمنين أن يعتقدوا أن الله أبوهم.

عاشراً: في ما يتحصل من الأسرار عن لفظة "الأب" وفي

تمييز الأقانيم في الذات الإلهية.

(33)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فما خلا ما تقدم من الشرح والبيان في معنى اسم الآب يجب على الراعي أن يعلم رعيتهُ أن يرفعوا عقولهم إلى ما كان اسمى من الأسرار.

لأن أقوال الوحي الإلهي أخذت تكشف لنا أن الله الساكن في النور الذي لا يقدر أحد أن يدنو منهُ ومن لا يدركهُ ولا يتصوره العقل البشري هو يدعي أبانا فيشير هذا الأسم إلى أن ليس في ذات الألوهية أقنوم واحد فيط بل يجب علينا أن نعتقد فيها أقانيم متميزة فالأقانيم ثلاثة في لاهوت واحد، أقنوم الأب غير المولود من أحد، وأقنوم الابن المولود من الآب والابن منذ الأزل.

فالآب هو الأقنوم الأول في الجوهر الواحد الإلهي وهو إله واحد مع ابنه الوحيد والروح القدس رب واحد ليس في وحدانية الأقنوم بل في وحدانية الجوهر المثلث الأقانيم وهذه الأقانيم الثلاثة معاذ الله أن نتوهم بينها تفاوتاً أو اختلافاً بل نرى امتيازاً بينها باضافاتها فقط.

فالأب غير مولود والابن مولود من الأب والروح القدس منبثق من كليهما ونعتقد أن الثلاثة الأقانيم ذاتاً واحدة وجوهراً واحداً كما نعتقد ونعبد بورع وقداسة ألوهية حقيقية أزلية وإضافة في الأقانيم ووحدانية في الذات ومساواة في الثالوث لأن قولنا أن الأب هو الأقنوم الأول لا يحمل على أن في الثالوث أولية أو أخرية أكبرية أ, أصغرية حمى الله عقول المؤمنين من هذا الكفر بل أن الدين المسيحي ينادي بأزلية واحدة وعظمة مجد واحدة في الأقانيم الثلاثة غير أن أقنوم الآب بما أنهُ هو نفسهُ مصدر بدون مصدر نقول بدون أدنى شبهة أو تردد أنهُ هو الأقنوم الأول حقاً وبما أنهُ ممتاز بخاصة الأب يطلق عليه وحدة خاصة أنهُ والد الابن منذ

(34)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الأزل وهو لا يزال إلهاً واباً معاً اذ ننطق جامعين في اعترافنا بين اسميّ الله والآب.

ولما كان هذا السر الأسمى أعسر الأشياء فهماً واغمضها والخوض في تأملهِ أقرب خطراً للضلال فعلى راعي النفوس أن يعلم رعيتهُ أن تتمسك بعروة الوحدانية في الذات الإلهية وتمييز الأقانيم ولا ينبغي قطعاً المبالغة في التبحث متذكرين ما قاله الروح القدس في سفر الأمثال: البحث عن الجلالة يعي (ص 25 عـ 27) بل حسبنا أن نعتقد مؤمنين أننا تلقينا الإيمان من الله ومن أفظع ضروب الجهالة والتعاسة عدم الاذعان إلى أقوال الله.

قال الرب يسوع لذكره السجود: علموا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس (متى ص 28 عـ 19) وقال مار يوحنا الرسول: الشهود في السماء ثلاثة ، الآب والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد (يوحنا ص 5 عـ 7) فلنبتهل متوسلين لله الآب الذي أبدع كل شيء من العدم ويدبر الكل بلطف وأعطانا سلطاناً أن نصير أبناء الله وكشف للعقل البشري سر الثالوث ولا يكف عن الصلوة من بفضل الله يؤمن بهذا السر حتى إذا قبل يوماً ما في المظال الإلهية يستحق أن يعاين ما أعظم خصب الله الآب بحيث إذ ينظر إلى ذاتهِويعقلها يلد أبناً مساوياً لهُ وكيف أن المحبة نفسها المتساوية بين الأقنومين التي هي الروح القدس المنبثق من الآب والابن تربط الوالد والمولود بينهما رباطاً أزلياً لا ينفك وهكذا تكون ذات واحدة للثالوث الإلهي وتمييز كامل للأقانيم الثلاثة.

(35)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

حادي عشر: ماذا يفهم باسم الضابط الكل

ورد في قانون الإيمان: الضابط الكل (والمراد به القادر على كل شيء). قد اعتاد الكتاب المقدس أن يعبر عن قدرة الله العظيمة وجلالهِ الأسمى بأسماء كثيرة كي يوضح بكم من العبادة والورع يجب أن يعبد اسمهُ الأقدس.

فعلى الخوري أن يعلم بداءَة بدءٍ أن القوة الضابطة الكل كثيراً ما تعزى إليه فهو سبحانه قال عن نفسهِ: أنا الرب الضابط الكل (تكوين ص 17 عـ 1) ويعقوب اسرائيل لما أرسل أولاده إلى يوسف صلى عليهم قائلاً: إلهي القدير على كل شيء يهبكم رحمة أمام الرجل (تكوين ص 43 عـ 14) ثم كتب في الابركسيس: الرب الاله القدير الذي كان والكائن والذي سيأتي (ص 4 عـ 8) وفي محل آخر يقال : الله العظيم القادر على كل شيء.

وفي محال أخرى عديدة يشير إلى ذلك بعبارات كثيرة. وإلى هذا الصدد يأُول ما قالهُ الملاك جبرائيل: ليس أمر غير ممكن لدى الله (لوقا ص 1 عـ 37) ومثلهُ قوله في سفر العدد: أيد الرب تقصر (ص 11 عـ 23) وفي سفر الحكمة: لكنك أيها السلطان القدير تحكم بالرفق وتدبرنا باشفاق كثير لأن في يدك أن تعمل بقدرة متى شئت (ص 12 عـ 18) إلى غير ذلك من النصوص الصريحة المدلول بها بأساليب عديدة على قدرة الله الضابطة الكل.

فالمفهوم بهذا الاسم أنه لا يمكن أن يوجد شيء ولا أن يتصوّر بالذهن أو بالفكر شيء لا يقدر الله أن يفعلهُ.

وليس لهُ السلطان أن يصنع فقط هذه الأمور التي ولو مهما كانت عظيمة يمكننا مع ذلك أن نتصورها بنوع من الأنواع أي أنهُ يقدر

(36)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

أن يحولها جميعاً إلى العدم ويخلق عوالم كثيرة بلحظة بل يقدر أيضاً أن يصنع ما كان أعظم منها كثيراً وما لا يمكن أن يخطر على عقل بشر.

ثاني عشر: في أنهُ تعالى وان كان على كل شيء قديراً

فلا يقدر أن يخطئ أو يغلط

لا يصدق القول أن الله اذ يقدر على كل شيء يستطيع أن يَغش أو يُغش أو يخطئ أو يكذب أو يجهل لأن هذه تعرض على الطبيعة التي فعلها غير كامل.

أما الله جل جلاله ففعلهُ أبداً غاية في الكمال وإنما عدم قدرته على هذه النقائص فلأن القدرة على ارتكابها هي خاصة الضعف لا خاصة القدرة الكاملة و الغير المتناهية على كل شيء فإذن نؤمن أن الله قادر على كل شيء ونعتقد مع ذلك أنهُ منَّزه عن كل ما لا يطابق ولا يناسب ذاته الكاملة.

ثالث عشر: لماذا لم يذكر في قانون الإيمان من أسماء الله إلاّ

اسم الضابط الكل وما منافع هذا الإيمان

ج على الراعي أن يبين أن هذا الأمر جرى بحكمة وصواب أي أنهُ لم يذكر في قانون الإيمان من الأسماء التي تطلق على الله لنعتقد به الاّ الضابط الكل وذلك لأننا اذا عرفنا الله ضابط الكل فمن الضرورة أن نعترف أيضاً بأنهُ يحيط علماً بكل شيء وان كل شيء خاضع لحكمهِ وسلطانهِ ومن حيث أننا لا نشك أنهُ قادر أن يصنع جميع الأشياء فينتج من ذلك صراحة أنهُ حاوٍ باقي الأوصاف بحيث لو

(37)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

نقصتهُ واحدة منها لبطل أن يكون على كل شيء قديراً ثم ما من

أمر يفيدنا ثقة بغايتنا ورجاءنا مثلما اذا ترسخ في عقلنا ان ما من شيء من الأشياء الاّ ويقدر الله أن يفعله ومهما لزم أن نعتقده فيما بعد ولو كبيراً وعجيباً وفاق النظام والقياس سهل على العقل البشري أن يذعن لهُ بدون توقف وتردد غب أن يكون عرف قدرة الله على كل شئ بل الأولى أن يقال أنه بقدر ما تكون الأشياء التي يعلمناها الوحي عظيمة بمقدار ذلك يعتبرها الإنسان جديرة بالاعتقاد بمزيد الرضاء والاختيار لأنهُ اذا انتظر خيراً ما لا يصد عنهُ داعي عظمتهِ وهو إليهِ تائق بل يشدد همتهُ ويقوّي عزائمهُ فيكثر من الافتكار أن ما من شيء الاّ تستطيع قدرة الله الضابطة الكل على فعلهِ ولذا يلزمنا أن نتأيد خاصة بهذا الإيمان عندما يقتضي الأمر أن نبادر إلى أعمال خطرة لمنفعة القريب وفائدته لو حينما نريد أن ننال منهُ تعالى شيئاً بالصورة.

فمن الأولى قد علمنا الرب نفسهُ أيضاً حين وبخ الرسل على قلة إيمانهم بقوله: لو كان لكم إيمان كحَبّة الخردل وقلتم لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون لكم شيء غير ممكن (متى ص 17 عـ 19) وعن الثاني شهد القديس يعقوب الرسول بقوله: ليسأل بإيمان غير مرتاب في شيء فإن المرتاب يشبه موج البحر الذي تسوقُهُ الريح وتخبطهُ فلا يظن مثل هذا انهُ ينال من الرب شيئاً (ص 1 عـ 7).

وماعدا ذلك يجدينا الإيمان أموراً كثيرة نافعة وأولها أنه يوطننا على دعة النفس والتواضع بدليل ما قاله هامة الرسل: اتضعوا اذاً تحت يد الله القادرة (بطرس 1 ص 5 عـ 12).

(38)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ويقينا الهلع حيث لا خوف بل يأمرنا بأن نخشى الله وحده الذي نحن وكل ما لنا في قبضة يده اذ قال مخلصنا: أنا أبين لكم من تخافون خافوا ممن اذا قتل له سلطان أن يلقي في جهنم (لوقا ص 12 عـ 5) ثم نتصرف بهذا الإيمان لمعرفة احسانات الله إلينا وإذاعتها لأن من يعتقدان الله على كل شيء قدير لا يستطيع أن يغمط فضلُه لا بل أنهُ يكثر من الهتاف قائلاً: صنع بي القوى العظائِم (لوقا ص 1 عـ 49).

رابع عشر: ان لفظة ضابط الكل لا تطلق هنا على الأب بمعنى

أنها تنفي عن الابن أو الروح القدس.

اذا دعونا الآب ضابط الكل في هذا الجزء من قانون الإيمان لا يتوهم أحد أن هذا الإسم أعزي إليهِ ولا يشترك فيه الابن والروح القدس فكما أننا نقول أن الآب الله والابن الله والروح القدس الله وليسوا مع ذلك ثلاثة آلهة بل إله واحد فعلى حد سوى نقول أن الآب والابن والروح على كل شيء قدير غير أننا لا نعترف بثلاثة ضابطين الكل بل بواحد فقط لكننا نعزو القدرة على كل شيء إلى الآب بداعي خصوصي بما أنه ُ ينبوع كل أصل كما أننا نعزو الحكمة إلى الابن بما أنه كلمة الآب الأزلي والجودة إلى الروح القدس بما أنهُ محبة ولو أن هذه الأسماء وما شاكلها من قاعدة الإيمان الكاثوليكي تطلق على الأقانيم الثلاثة بوجه الإشتراك.

خامس عشر: كيف ولاي سبب خلق الله السماء والأرض

"خالق السماء والأرض" يتبين مما اقبلنا إلى شرحه من خلقه العالم ما كان

(39)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

من اللزوم إلى معرفة الله الضابط الكل التي مرَّ ذكرها آنفاً لأن المؤمن إذا لم يجد أدنى سبيل للارتياب في قدرة الخالق العظيمة أعتقد بأوفر سهولة باية الخلق الباهرة فإن الله سبحانهُ لم يصنع العالم من مادة بل خلقُهُ من العدم وذلك بدون أن تضطره قوة أو يكرههُ احتياج إلى خلقتِه ألاّ لكي يشرك مخلوقاته بجودته لأن الله من طبعهِ سعيد للغاية لا يفتقر إلى شيء البتة كما قال داود النبي: قلت للرب أنت إلهي لأنك غير محتاج إلى خيراتي (مزمور 15 عـ 2) وكما أن الله سبحانه قد ندبتهُ جودته إلى أن يخلق كل ما شاءَ هكذا لم يتخذ في خلقه العالم دستوراً أو صورة خارجة عنهُ لأن صورة المبرؤَات كافة كانت محتوية بعقلِهِ فهو المبدع الكلي السموّ وبنظره في نفسِهِ وكأنهُ بتمثيلِه لها خلق الموجودات جميعاً بحكمتهِ العظمى وقدرته الغير المتناهية المختصة بهِ دون غيره لأنهُ هو قال فكانت وهو أمر فخلقت (مزمور 148 عـ 5).

سادس عشر: ماذا نفهم هنا بالسماء والأرض.

يفهم بالسماء والأرض كل ما تشتملان عليه إذ ما عدا السماوات التى دعاها عمل أصابعه قد أضاف إليها زينة نور الشمس والقمر وباقي الكواكب ثم رتب دوران الأفلاك بسير وطيد ثابت كي تكون للآيات والأزمنة والأيام والسنين حتى لا يمكن أن يشاهد أسرع منها حركة في دورانها ولا أثبت منها سيراناً.

(40)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

سابع عشر: في خلقة السماوات الروحانية أي الملائكة.

وخلق أيضاً من العدم الطبيعة الروحية وما لا يحصاه عادٌ من الملائكة الذين يخدمونهُ ويقومون أمامهُ ثم زادهم وزانهم بعجيب هبة نعمتهِ وقدرته فلما تبين من الأسفار الإلهية أ، ابليس لم يثبت في الحق قد استبان أيضاً أنهُ وأعوانهُ من الملائكة العصاة كانوا من بداية خلقتهم مزدانين بالنعمة. وذكر ذلك القديس أغوسطينوس اذ قال: قد خلق الملائكة ذوي إرادة صالحة أي محبة طاهرة يتقربون بها إليه وفي إبداعه طبيعتهم أفاض عليهم سجال نعمهِ ومن ثم لا ينبغي أن نعتقد أبداً أن الملائكة وُجدوا من البدءِ بدون إرادة صالحة أي بدون محبة الله.

ونظراً إلى معرفة الملائكة وحكمتهم قد شهد الكتاب المقدس بقولهِ: ولسيدي حكمة كحكمة ملك الله في فهم جميع ما في الأرض (ملوك 2 ص 14 عـ 20). وقد خولهم الله القدرة بدليل ما جاءَ من قول النبي داود، باركوا الرب يا ملائكته المقتدرين قوة العاملين بكلمتهِ عند سماع صوت كلامهِ (مزمور 102 عـ 20) وعليهِ كثيراً ما يدعون في الكتاب المقدس قوات الرب وجنوده على أنهم وان كانوا جميعهم مزدانين بالمواهب السماوية فمع ذلك قد عصى كثيرون منهم الله خالقهم ومبدعهم فسقطوا من تلك الكراسي العليا ودكوا في سجن الجحيم المظلم يقاسون هناك العذابات الأبدية جزاء كبريائهم وعنهم كتب القديس بطرس هامة الرسل قائلاً. لم يشفق الله على الملائكة الذين خطئوا بل أهبطهم إلى أسافل الجحيم وأسلمهم إلى سلاسل الظلمة ليحفظوا للقضاء (بطرس 2 ص 2 عـ 4).

(41)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثامن عشر في خلقه الأرض.

أما الأرض فقد أمر الله بكلمته أن تستقرّ على ثباتها في وسط العالم وأمر أن نصعد الجبال ويهبط البطاح إلى ما أرّه لها من الأمكنة ولئلا تغمر المياه الأرض وضع لها حدّاً لا تتعداه ولا ترجع فتغطي الأرض.

ثم كساها وزينها بأنواع الأشجار والأعشاب والأزهار وملأها بما لا يحصى من أجناس الحيوانات كما كان قبلاً ملأ منها المياه والهواء.

تاسع عشر: في خلقة الإنسان.

وفي الآخر جبل الله الإنسان من طين الأرض مصنوعاً وقائماً بجسد لم يكن من جوهره بل بإحسان الله منزهاً عن الموت والتألم. واما النفس فقد ابدعها على صورتهِ ومثالهِ وخوّلها الاختيار المعتوق ورتب فيه جميع حركات النفس ورغباتها كي تذعن على الدوام لحكم الصواب.

ثم حباه أيضاً بمنحه البر الأصلي على راعي النفوس الإطلاع على هذه الأشياء من سفر التكوين لارشاد المؤمنين.

عشرون: في أن اسم السماء والأرض يشمل الأشياء المنظورة والغير المنظورة.

ينبغي أن نفهم بلفظتي السماء والأرض جميع الموجودات التي عبرّ عنها داود النبي بوجه الايجاز بهذه الكلمات: لك

(42)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

هي السماوات ولك الأرض أنت أسست المسكونة بكمالها (مزمور 88 عـ 3).

وبأوجز عبارة أيضاً أضاف آباء المجمع النيقاوي هاتين الكلمتين:

كل ما يرى وما لا يرى لأن كل ما يتضمن في عامة المبرؤَات وكل ما نعتقده مخلوقاً من الله إما أنهُ يقع تحت الحواس فيقال عنهُ منظور وأما نستطيع إدراكه بالعقل والفهم فيطلق عليهِ اسم الغير المنظور .

الحادي والعشرون: ان البرايا المخلوقة بقدرة الله لإثبات لها

بدون تدبيره وعنايتهِ

لا ينبغي أن نعتقد أن الله سبحانهُ خالق جميع الأشياء ومبدعها بمعنى أننا نعتبر أن الأشياء المصنوعة منهُ بفعلهِ الكامل المجرد تقدر فيما بعد الخلقة على أن تثبت بمعزل عن قدرتهِ الغير المتناهية لأن كما أنها جميعها قد افتقرت إلى قدرة الخالق الأسمى وحكمته وجوده كي تظهر للوجود هكذا بعد وجودها لو لم تتداركها العناية الدائمة وتحفظها القدرة نفسها التي خلقتها من الابتداءِ لتلاشت حالاً وارتدت إلى العدم وقد أعلنت ذلك الأسفار الإلهية بقولها: كيف يبقى شيء لم ترده أم كيف يحفظ ما لست أنت داعياً لهُ (حكمة ص 11 عـ 26).

الثاني والعشرون: في أن الله لا يمنع في تدبيره قوة العلل الثواني.

ان الله لا يحفظ فقط ويدبر بعنايتهِ جميع الموجودات بل إنهُ أيضاً يمد الأشياء التي تتحرَّك بقوة خفية إلى الحركة والفعل

(43)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

بنوع أنهُ ولو لم يمنع فاعلية العلل الثواني الاّ أنه مع ذلك يتداركها بما أن قوته الخفية تتوجه إلى كل فرد منها وكما شهد الحكيم تمتد من الأقاصي إلى الأقاصي بقوة وتدبر الجميع بعذوبة (حكمة ص 9 عـ 1).

ولذا قال الرسول المعظم حينما كان يبشر أهل أتينا بالله الذي كانوا يعبدونهُ وهم لا يرونهُ:

ليس هو بعيداً عن كل منا فإننا بهِ نحيا ونتحرّك ونوجد (ابركسيس ص 17 عـ 27 و 28).

الثالث والعشرون: في أن الخلقة لا تعزى إلى الآب وحده.

حسبنا ما مرّ شرحاً للجزءِ الأول من قانون الإيمان إنما لابد من أن ننبه أيضاً أن فعل الخلقة مشترك بين الأقانيم الثلاثة المقدسة بدون انقسام لأن في هذا المحلل نعترف نقلاً عن تعليم الرسل ان الآب خالق السماء والأرض ونقرأ في الأسفار الإلهية عن الابن: كل بهِ كان وبغيره لم يكن شيء مما كان (يوحنا ص 1 عـ 3)، وعن الروح القدس:

وكان روح الرب يرف على المياه (تكوين ص 1 عـ 3) وفي محل آخر بكلمة الرب تشددت السماوات وبروح فيهِ جميع قوتها (مزمور 32 عـ 6).

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(44)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الفصل الثالث

في الجزء الثاني من قانون الإيمان

"ونؤمن" بيسوع المسيح إبنهِ الوحيد ربنا

أولاً: في الجزء الثاني من قانون الإيمان وفائدة الاعتراف بهِ

قد أبان مار يوحنا الرسول ان الفائدة التي حصلت للنوع البشريمن الإيمان والاعتراف بهذا الجزء من قانون الإيمان تفوق الوصف والقياس وهذا قوله: ان من اعترف بأن يسوع هو ابن الله فإن الله يثبت فيه وهو في الله (رسالة يوحنا 1 ص 4 عـ 15) وقد طوَّب المسيح الرب لذكره السجود القديس بطرس هامة الرسل على اعترافهِ بأن يسوع ابن الله إذ قال" طوباك يا سمعان بن يونا اذ لا لحم ولا دم أظهر لك ذلك بل أبي الذي في السماوات (متى ص 16 عـ 17) لأن هذا الاعتراف هو امتن أساس وأثبتهُ لخلاصنا وفدائنا.

ثانياً: ترى من أين يعرف خاصة قدر هذا الاحسان العظيم

الوارد ذكره في هذا الجزء

لما كانت ثمرة هذه الفائدة العجيبة ناتجة عن فقد تلك الحالة السعيدة التي جعل الله فيها الإنسان الأول تحتم على راعي النفوس أن

(45)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يبذل جهده في أن يطلع المؤمنين على علة ما شمل النوع البشري من عموم النعاسة والاكدار لأن آدم لما خالف طاعة الله وتعدى تلك الوصية وهي: كل من جميع أشجار الفردوس وأما من شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل فإنك يوم تأكل منها تموت موتاً (تكوين ص 2 عـ 16).

ألَّم بهِ ذاك المصاب العظيم إذ فقد القداسة والبر اللذين كان مفطوراً عليها وحاقت بهِ باقي الشرور التي اسهب المجمع التريدنتيني في شرحها ولذا يذكر أن الخطية وعقابها لم يستقرّا في آدم وحده بل تعديا منهُ إلى كامل ذريتهِ كمن أصلهما وعلتهما.

ثالثاً: ما من أحد يستطيع أن يصلح النوع البشري غير المسيح.

لما سقط جنسنا البشري من درجة مقام فائقة السمو فما من قوة من قوى البشر أو الملائكة استطاعت أن تنشلهُ من هذه السقطة وتعيده إلى مقامهِ الأول ومن ثم بقيت لهُ هذه المعونة فقط لانتشالهِ من الدمار والشرور وهي أن ابن الله القادر على كل شيء يتخذ جسدنا هذا الضعيف ويدفع قوة الخطية الغير المتناهي شرها ويصالحنا مع الله بدمهِ (رومة ص 5 عـ 10).

رابعاً: لا يستطيع أحد سبيلاً إلى الخلاص بمعزل عن الإيمان بالفداء ولذا كثيراً ما سبق الأنباء عن المسيح منذ

بداية العالم.

ان الإيمان والاعتراف بالفداء هو لازم كل اللزوم للبشر لنوال الخلاص وقد اتفق على الدوام أن الله سبحانهُ أشار إليه

(46)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

منذ بدء العالم لأن في هلاك الجنس البشري الذي عقب الخطية على الأثر قد أعلن رجاء فدائنا بهذه العبارات التي بها انذر الله ابليس بهلاكه المزمع أن يتأتي عن خلاص البشر. قال عزّ وجلّ: واجعل عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلكٍ ونسلها فهو يستحق رأسكِ وأنتِ ترصدين عقبهُ (تكوين ص 3 عـ 15). وكثيراً ما أثبت هذا الوعد بعد ذلك وأوضح أوفر إيضاح قصده خاصة لأولئك الأنام الذين شاءَ أن يخولهم فريد إحسانهِ منهم إبراهيم أبو الآباء فإنهُ كثيراً ما أطلعهُ على هذا السر بأوفر بيان حين أذعن لأمر الله وأراد أن يذبح إبنهُ الوحيد اسحق فقال لهُ: بما أنكَ فعلت هذا الأمر ولم تذخر ابنك وحيدك لأباركنك وأكثرنّ نسلك كنجوك السماء وكالرمل الذي على شاطئ البحر ويرث نسلك باب اعدائه وتبارك في نسلك جميع أمم الأرض من أجل انك سمعت لقولي (تكوين ص 22 عـ 16 و 17) فليتخلص من هذا الكلام الإلهي أن من ذرية إبراهيم كان مزمعاً أن يأتي من يمنح الجميع الخلاص والعتق من أسر الشيطان العنيف. ومن لازم الضرورة أن يكون ذاك ابن الله المولود من نسل إبراهيم حسب الجسد ومن بعد ذلك أيضاً بزمان ليس بطويل عقد الرب ميثاقاً مع يعقوب حفيد إبراهيم حفظاً لذكر هذا الموعد لأنهُ رأى حلماً كان سلماً منتصبة على الأرض ورأسها إلى السماء وملائكة الله تصعد وتنزل عليها (تكوين ص 28 عـ 12)، كما شهد الكتاب:

وسمع الرب أيضاً وهو واقف على السلم يقول لهُ: أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله اسحق الأرض التي أنت نائِم عليها لك أعطيها ولنسلك ويكون نسلك كتراب الأرض وتنمو غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً ويتبارك بك جميع قبائل الأرض

(47)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وبنسلك (تكوين ص 27 عـ 13 و 14) ولم يهمل الله بعد ذلك أن يحث قبيلة إبراهيم واناماُ آخرين كثيرين إلى انتظار المخلص تجديداً لذكر وعده أذ لما ترتبت حكومة اليهود وديانتهم ابتدأ سبحانُهُ تعالى أن يعلن ذلك لشعبهِ بأوفر إيضاح لأن الأشياء العجماء نفسها عبرت بلسان حالها والناس أنبأ واعلناً عما أزمع مخلصنا وفادينا يسوع أن يمنحناه من الخيرات العظيمة ثم الأنبياء الذين استنار عقلهم بالنور السماوي تنبأوا للشعب عن ميلاد ابن الله وأفعاله العجيبة التي صنعها وتعليمِه وآدابه وخصاله وموته وقيامته وباقي أسراره كأنها كانت حاضرة وكأن قد زال الفرق بين الزمن المستقبل والحاضر ولا نرى أدنى خلاف بين نبوات الأنبياء وكرازة الرسل ولا بين إيمان الآباء الأقدمين وإيماننا فعلينا إذا أن نأتي بالكلام على كل قسم من هذا الجزء بمفرده.

خامساً: في اسم يسوع وهل يطلق خاصة على المسيح.

ان يسوع هو اسم علم لمن هو إله وإنسان معاً ومعناه المخلص ولم يسمَّ بهذا الإسم من باب الصدفة والاتفاق ولا يحكم البشر وإرادتهم بل بإرادة الله وأمره لأن الملاك سلم على مريم امهِ بهذا الكلام: ها أنتِ تحبلين وتلدين ابناً وتدعين اسمهُ يسوع ثم أمر الملاك يوسف خطيبها أن يدعي الصبي بهذا الإسم بل أعلن لهُ سبب هذه التسمية إذ قال:

يا يوسف بن داود لا تخف من أن تأخذ مريم خطيبتك فإن الذي يولد

(48)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

منها من الروح القدس فتلد ابناً وتدعو اسمهُ يسوع لأنهُ يخلُص شعبهُ من خطاياهم (متى ص 1 عـ 20 و 21).

سادساً: في أن بعضاً من الناس قد دعوا بهذا الإسم ولكن لغير

هذا الداعي

قد جاء في الأسفار الإلهية أن كثيرين دعوا بهذا الإسم منهم يسوع بن نون الذي خلف موسى وقاد إلى أرض الميعاد شعب إسرائيل الذي خلصهُ موسى من مصر ومنعهُ الله من الدُخول معهُ إلى تلك الأرض ثم يشوع بن ملكيصادق الكاهن إنما شتان بين معنى اسم مخلصنا الإلهي وبين معنى اسم أولئك لأن يسوع ابن الله لذكره السجود لم يأتِ بالنور والعتق والخلاص شعباً واحداً بل البشر في جميع أجيالهم المضنوكين لا بالجوع وعبودية مصر وبابل بل الجالسين في ظلال الموت والمكبلين بقيود الشيطان الشديدة واكتسب لهم حقاً على الملك السماوي وميراثه وصالحهم مع الله الآب ونرى المسيح الرب ممثلاً فيهم وقد أفاض على النوع البشري تلك الاحسانات التي ذكرناها. وتلك الأسماء التي أنبأت الأسفار الإلهية بوجوب اطلاقها على ابن الله تأُّول إلى اسم يسوع هذا وحده لأن بقيتها تشير إلى الخلاص الذي كان مزمعاً أن يمنحنا من جهة فقط أما اسم يسوع هذا فيعني الخلاص العام للجنس البشري كافة

(49)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

سابعاً: ترى ماذا يفهم باسم المسيح ولكم من الأسباب يليق

هذا الاسم بيسوع مخلصنا

ج قد أضيف على اسم يسوع اسم المسيح ومعناه الممسوح وهو اسم مقام شريف ووظيفة عالية ولا يختص بفرد بل يعم كثيرين لأن آباءَنا الأقدمين كانوا يسمون الكهنة مسحاء وكذا الملوك الذين كان يأمر الله سبحانهُ بمسحهم لأجل مقامهم المنيف لأن الكهنة هم الذين يواظبون الصلاة لله عن الشعب ويقدمون الذبائح لله ويبتهلون عن الشعب.

وأما الملوك فيتقلدون سياسة الشعوب ومن متعلقاتهم خاصة صيانة سلطة الشرائع وحياة الأبرياء والانتقام من وقاحة الأشرار المضرّين ولما كانت كلتا الوظيفتين عبارة عن سلطان الله على الارض واقتضى أن الذين كانوا ينتخبون إلى القيام بوظيفة الكهنوت أو المقام الملكي يمسحون بالزيت وقد درجت العادة أيضاً بمسح الأنبياء الذين كانوا ترجمة الله الحي ورسله ويكشفون للبشر غوامض أسراره السماوية ويدعون الناس بأنبائهم المستقبلات ووصاياهم الخلاصية إلى تهذيب آدابهم.

أما يسوع المسيح مخلصنا فقد أتى العالم وأخذ على عهدتهِ وظيفة الكاهن والملك والنبي ولهذا السبب دعى مسيحاً ومسح على العمل بهذه الوظائف لا بفعل بشر فانٍ بل بقدرة الأب السماوي لا بزيت أرضي بل بدهن روحي لأن قد سكن في نفسهِ الكلية القداسة ملء الروح القدس والنعمة وفيض جميع المواهب مما لا يمكن خليقة أخرى أن تدركه وقد بين ذلك النبي داود بصريح العبارات اذ خاطب الفادي نفسه بهذا الكلام.:

(50)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

أحببت البرّ وابغضت النفاق ولذلك مسحك إلهك يا الله بدهن البهجة أفضل من شركائك (مزمور 44 عـ 8) ومثلهُ وأوضح منهُ في هذا المعنى قول أشعيا النبي: ان روح السيد الرب عليّ لأن الرب مسحني لأبشرالمساكين وأرسلني لأجبر منكسري القلب (اشعيا ص 61 عـ 1) فيسوع المسيح هو أعظم نبي وأفضل معلم علمنا إرادة الله ومن تعليمهِ اقتبس العالم جميعهُ معرفة الأب السماوي ولاقَ بهِ اسم النبي الأشرف والأفضل بما أن جميع الذين أهلوا لأن يسموا أنبياء كانوا تلاميذه وقد أرسلوا خاصة لهذا السبب وهو أن ينذروا بهذا النبي العتيد أن يأتي ليخلص الجميع.

ثم ان المسيح كاهن لا على رتبة شريعة سبط لاوي القديمة الذي نشأ منهُ الكهنة بل على رتبة ملكيصادق.

وقد جاد في هذا الموضوع القديس بولس الرسول في كتابتهِ إلى العبرانيين: ولا نعرف المسيح ملكاً بما أنهُ إله فقط بل بما أنهُ إنسان أيضاً وشريط طبيعتنا البشرية وشهد بذلك الملاك جبرائيل بقوله: ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكهِ انقضاء (لوقا ص 1 عـ 23). ولما كان ملك المسيح هذا روحياً وأبدياً يبتدئ في الأرض ويكمل في السماء ويعمل عمل الملك بعجيب عنايتهِ بالكنيسة فهو يدبرها وهو يحميها من وثبات الأعداء ومكائدهم وهو يسن لها سُننّاً وهو يمنحها لا القداسة والبر فقط بل يوليها أيضاً القوة والقدرة على الثبات ولئن كان ملكه يشتمل ضمن تخومِهِ على الأخيار والأشرار وجميع البشر من تابعيتهِ مع ذلك يذوق طعم

(51)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

جوده واحسانهِ العظيمين بمعزل عن الأخرين أولئك الذين يقضون حياتهم بالنقاوة والبر ولم يقع لهُ هذا الملك بوجه الارث أو بحق بشري ولو كان من أصل أشرف الملوك وأشهرهم ومع ذلك قد صار ملكاً لأن الله سبحانهُ قد خولّهُ كل ما تستطيع طبيعة حال الإنسان على أن تأخذه من السلطان والكمال. فقلده إذاً ملك العالم بأسره وسيخضع لهُ كل شيء يوم الدين خضوعاً كاملاً كما شرع بالخضوع لهُ في هذا العالم.

ثامناً: كيف يحسن أن نؤمن ونعترف بأن يسوع المسيح

ابن الله الوحيد.

"ابنه الوحيد" فبهذه العبارات يفرض على المؤمنين أن يعتقدوا في يسوع أسراراً فائقة السموّ ويهذوا بها وهي كونه ابن الله الوحيد وإلهاً حقاً كالأب الذي ولده منذ الأزل ثم أننا نعترف أنهُ الأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس مساوٍ للاثنين الأخرين تمام المساواة اذ لا يمكن قط أن يتصوّر بالعقل أدنى اختلاف أو تفاوت بين الأقانيم الإلهية لأن لجميعهم ذاتاً واحدة وإرادة واحدة وقدرة واحدة كما هو ظاهر من نصوص كثيرة للكتاب المقدس ولا سيما شهادة القديس يوحنا الرسول وهي شهادة لا مزيد عليها من البيان والوضوح، في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله والله هو الكلمة (يوحنا ص 1 عـ 1).

إنما متى سمعنا أن يسوع هو ابن الله لا ينبغي قطعاً أن نتوهم شيئاً أرضياً أو إنسانياً في ميلاده وبالحق أننا لا نقدر البتة أن ندرك بعقلنا أو نفهم جلياً ذاك الميلاد الذي بهِ ولد

(52)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الآب والابن منذ الأزل ولذا يجب علينا أن نعتقده اعتقاداً ثابتاً ونعبده بمزيد التقوى والورع وكأننا مندهشون من هذا السر العجيب نهتف مع النبي اشعيا قائلين: من يصف مولده (ص 53 عـ 8). فعلينا اذاً أن نؤمن أن للابن طبيعة واحدة وقدرة واحدة وحكمة واحدة مع الآب كما نعترف بأوفر ايضاح في قانون المجمع النيقاوي حيث قال : وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل كل الدهور إله من إله نور من نور إله حق من إله حق مولود غير مخلوق مساوٍ للأب في الجوهر الذي به كان كل شيء.

تاسعاً: في كيفية ميلاد المسيح من الأزل بتشبيه مأخوذ عن

الأشياء المخلوقة وفي كلا ميلادَيه.

إن أقرب ما يورد من جميع التشابيه بياناً لكيفية الميلاد الأزلي وتعليله هو المأخوذ عن افتكار عقلنا ومن ثم قد دعا القديس يوحنا ابن الله كلمة لأن كما أن عقلنا إذا عقل ذاته بوجه من الوجوه يصوّر صورته التي يسميها علماء اللاهوت كلمة هكذا الله جلَّ جلاله (نقول ذلك بقدر ما يمكن أن نقابل البشريات بالالهيات) اذ يعقل ذاته يلد الكلمة الأزلية هذا والأجدر بنا أن نهذ بما يفرضهُ علينا الإيمان ونؤمن ونعترف بعقل سليم أن يسوع المسيح إله حق وإنسان حق وأنهُ مولود حقاً من حيث هو إله من الأب قبل كل الدهور ومولود من حيث هو إنسان في الزمان من امهِ مريم العذراء ثم ولو عرفنا له ميلادَين إلاَّ أننا نؤمن بأنهُ ابن واحد فقط لأن الأقنوم واحد اجتمعت فيهِ الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية.

(53)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

عاشراً: كيف يقال هل للمسيح أخوة أو لا.

ج نظراً إلى الميلاد الإلهي ليس لهُ أخوة ولا شركاء في الميراث من كونهِ ابن الله الوحيد وأننا نحن البشر جبلتهُ وعمل يديه. أنا نظراً إلى ميلاده بالجسد قد دعا كثيرين أخوته بل اتخذهم بمنزلة أخوة كي ينالوا بمعيتهِ مجد ميراث أبيهِ وهم الذين اتخذوا المسيح رباً بالإيمان ويجلون الإيمان بذاتهِ وبقضاءِ واجبات المحبة ولهذا قد دعا الرسول المعظم بكراً بين أخوة كثيرين.

الحادي عشر: في أن المسيح يسمي ربنا بحسب الطبيعتين

الإلهية والإنسانية

"ربنا" قبل في مخلصنا أمور كثيرة في الأسفار المقدسة ومن البين أن بعضها تطلق عليه بما أنهُ إله وبعضها من حيث كونِهِ إنساناً لأنهُ اتخذ الطبيعة الإنسانية وخواصها ولهُ الطبيعة الإلهية وخواصها فاذا قلنا إذاً أن المسيح على كل شيء قدير أزلي غير متناهٍ ذلك هو لهُ من طبعهِ الإلهي ثم إذا قلنا أنهُ تألم ومات وقام تلك تخص الطبيعة البشرية بلا ريب غير أن لهُ عدا هذه بعض خواص تطلق على كلتا الطبيعتين كقولنا فيهِ في هذا المقام أنهُ ربنا لأن هذا الاسم إذا اعزي إلى الطبيعتين صحَّ في كل منهما إذ في كل منهما هو ربنا فكما أنهُ هو والأب ليس إلهاً آخر ولا إله غيره بل هو الله عينه بالتمام هكذا هو والاب ليس رب أخر ولا رب غيره ثد يدعي ربنا بحق لأسباب أخرى عديدة أولها كونهُ فادينا خلصنا من خطايانا فبحق قد اتخذ هذا السلطان لأن

(54)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يكون ربنا حقيقة فدونك ما يعلمهُ رسول الأمم:

فوضع نفسهُ وصار يطيع حتى الموت موت الصليب فلذلك رفعهُ الله ووهبهُ اسماً يفوق كل اسم لكي تجثو باسم يسوع كل ركبة مما في السماوات وعلى الأرض وتحت الأرض ويعترف كل إنسان أن الرب يسوع المسيح هو في مجد الله الآب (فيليبي ص 2 عـ 8 و 9 و 10)، وهو نفسهُ قال بعد قيامتهِ من بين الأموات عن ذاتهِ: قد أُعطيت كل سلطان في السماءِ والأرض (ص 28 عـ 18) ثم يقال فيهِ انهُ رب لأنهُ في أقنومهِ الواحد اتحدت الطبيعتان الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية لأنهُ بهذا الاتحاد العجيب استحق ولو لم يمت لأجلنا أن يكون رب جميع المخلوقات لاسيما المؤمنين الذين يطيعونهُ ويعبدونهُ من أقصى قلوبهم.

الثاني عشر: في أنهُ من الواجب على المسيحيين أن يسلموا ذواتهم

بكليتها للمسيح ويطأُوا بأخمص قدمهم أركون الظلام

بقى على راعي النفوس أن يحض المؤمنين على أن يعلموا أننا نحن الذين نسبنا إلى المسيح ودعينا مسيحيين ولا نقدر أن نجهل ما اسدى إلينا من الإحسانات وعلى الخصوص لكوننا عرفناها جميعها بواسطة الإيمان به وهو هبة من كرمهِ تعالى من أكبر واجباتنا أن نقدم ذواتنا على الدوام لفادينا وربنا ونكرسها لهُ كالأرقاء وبالحق أننا اعترفنا بذلك في أثناءِ قبولنا سر العماد المطهر ونحن قائمون على باب الكنيسة إذ اعلننا أننا نكفر بالشيطان والعالم ونسلم ذواتنا

(55)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

بكليتها إلى يسوع المسيح. فإن كنا تجندنا للمسيح وقدمنا ذواتنا لهُ بإقرار حافل مقدس فترى أي عقاب نستوجبهُ إذا كنا بعد أن دخلنا الكنيسة وعرفنا إرادة الله وسُننُه وقبلنا نعمة الأسرار نعيش حسب أوامر العالم والشيطان وسننهما كأننا بعد أن رصفنا بالعماد خصصنا نفوسنا للعالم والشيطان لا لربنا وفادينا وليت شعري من لا يضطرم قلبهُ بنيران المحبة لهذا الرب العظيم الرأُوف الحنون الذي ولو أننا تحت سلطانهِ وولايتهِ ونحن عبيده لأنهُ اشترانا بدمه الكريم مع ذلك يشملنا بوده حتى لا يدعونا عبيده بل أحباءَه بل اخوته. فهذه مدعاة حثيثة ولا أدري أدعى منها لأن نعرف ربنا ونجلُهُ ونعبده على الدوام.

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(56)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الفصل الرابع

في الجزء الثالث من قانون الإيمان

"الذي حُبلَ بهِ من الروح القدس ووُلِدَ من مريم العذراء"

أولاً: فيما يقدمهُ الجزء الثالث من قانون الإيمان للمؤمنين

ليعتقدوه.

يستطيع المؤمنون أن يفهموا مما تقدم شرحه في الجزء السابق أن النوع البشري قد غمره الله بإحسان عظيم لا يوصف في عتقهِ ايانا من نير عبودية ظلام عنيف ولكن إذا وضعنا نصب أعيننا الغاية ثم الطريقة التي لأجلها وبها قد أراد الله خاصة أن يعمل ما عملهُ قلنا ما أجمل وما أسمى جود الله واحسانه الينا فعلى الراعي إذاً أن يبين في شرح الجزء الثالث عظمة هذا السر الذي كثيراً ما تقدمهُ لنا الأسفار الإلهية بمنزلة مبدأ أخص لخلاصنا ويعلم الشعب أننا نؤمن ونعترف أن يسوع المسيح هذا بعينهِ ربنا الوحيد وابن الله قد تجسد لأجلنا في مستودع البتول لا من زرع رجل كسائر الناس بل حبل بهِ بقوة الروح وفوق كل نظام الطبيعة بنوع أن الأقنوم بعينه الذي هو الله الدائم الوجود منذ الأزل صار إنساناً ولم يكن إنساناً فيما مضى.

(57)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فبهذا المعنى ينبغي أن يؤخذ هذا الكلام كما اتضح جلياً من صورة إيمان المجمع القسطنطيني المقدس اذ قال "الذي لأجلنا نحن البشر ولأجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء وصار إنساناً" وقد بين ذلك أيضاً القديس يوحنا الإنجيلي كأنهُ اقتبس معرفة هذا السر الجليل من صدر ربنا ومخلصنا نفسهِ لأنهُ بعدما أشار إلى طبيعة الكلمة الإلهية بهذا الكلام "في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله و الله هو الكلمة" أردف قوله بقولهِ والكلمة صار جسداً وحلَّ فينا (يوحنا ص 1).

ثانياً: لم يعرض في المسيح أدنى تشوش في طبيعتهِ من قبل

ميلاده الزمني.

لأن الكلمة الذي هو أقنوم الطبيعة الإلهية اتخذ الطبيعة البشرية بحيث أنهُ كان للطبيعتين الإلهية والإنسانية أقنوم واحد بعينهِ. ومن ثم حفظ هذا الاتحاد العجيب لكل من الطبيعتين أفعالها وخواصها كما ورد في خطاب مارولان الكبير الحبر الأعظم (في مولد الرب) مجد الأعلى لم يفنِ الأدنى واتحاد الادنى لم ينقص الأعلى.

ثالثاً: في أن الروح القدس لم يتمم وحده فعل التجسد.

لا ينبغي أن نضرب صفحاً عن شرح الكلمات ولذا يلزم الراعي أن يعلم الشعب أننا بقولنا عن ابن الله أنه حبل بقوة الروح القدس لا نعني إن هذا الأقنوم الواحد من الثالوث الأقدس تمم سر التجسد لأنهُ وإن كان الأبن وحده اتخذ

(58)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الطبيعة البشرية فمع هذا نقول أن جميع أقانيم الثالوث الإلهي الاب والابن والروح القدس اشتركوا باتمام هذا السر إذ يجب علينا أن نتمسك بعروة قاعدة الإيمان هذه وهي أن كل ما يصنعهُ الله خارجاً عنهُ في الأشياء المخلوقة هو مشترك بين الأقانيم الثلاثة ولا يعمل أحدهم أكثر من الآخر ولا بدون الأخر. أما صدور الأقنوم الواحد من الأخر فلا يمكن أن يشترك بين الكل لأن الابن وحده مولود من الآب والروح القدس منبثق من الآب والابن. على أن كل ما يصدر خارجاً عنهم فالثلاثة يعلمونهُ بدون فرق البتة ويعتبر من هذا القبيل تجسد ابن الله. ومع كون الأمر كذلك قد اعتادت الأسفار الإلهية أن تعزو إلى أقنوم واحد ما كان مشتركاً بين الجميع كما تخص أقنوم الآب بالقدرة على كل شيء والابن بالحكمة والروح القدس بالمحبة.

ولما كان سر التجسد الإلهي عبارة عن محبة الله الفريدة ورأفتهِ الفائقة نحونا فلهذا أعزي فعله خاصة إلى الروح القدس.

رابعاً: ان الأمور التي جرت في الحبل بالمسيح الرب لم تكن كلها فائقة نظام الطبيعة بكل أكثرها.

نرى أن بعض ما في هذا السر يفوق نظام الطبيعة وبعضهُ تمَّ بقوة الطبيعة لأن تكوّن جسد المسيح من دم العذراء الكلي الطهارة نعرفهُ قد تم بقوة الطبيعة إذ أن ذلك يجري في جميع أجنة البشر لأنها تتكوّن من دم الوالدة أما ما يفوق طور العقل البشري ونظام الطبيعة فهو تكوّنه دون مباشرة رجل وأنهُ حالما أجابت البتول الطوباوية على كلام الملاك بقولها: هانذا آمة الرب فليكن لي كقولك (لوقا ص 1 عـ 28).

(59)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

تكوّن جسد المسيح الأقدس واتحدت به النفس العاقلة بنوع أنهُ في تلك الدقيقة صار إلهاً كاملاً وانساناً كاملاً فلا ريب أن ذلك فعل جديد وعجيب مصدره الروح القدس لأن ما من جسد بموجب نظام الطبيعة يتنفس الاَّ في برهة معلومة من الزمان ثم قد ما نعجب منه أعظم عجب وهو أن النفس حالما اتحدت بالجسد اتحد اللاهوت نفسه أيضاً بالجسد والنفس ولذا حالما تكوّن الجسد وتنفس اتحد اللاهوت بالجسد والنفس بحيث أنه في الدقيقة ذاتها صار إلهاً كاملاً وإنساناً كاملاً والعذراء القديسة صارت حقيقة وصدقاً أم الله والإنسان لأنها في الوقت نفسه حبلت بالله والإنسان وهذا ما عبر عنهُ لها الملاك جبرائيل بقولهِ هوذا تحبلين وتلدين ابناً وتدعين اسمهُ يسوع ويكون عظيماً وابن العلي يدعى، وقد تم فعلاً ما تنبأه اشعيا النبي بقولهِ هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً (اشعيا ص 7 عـ 14)، وكذا اليصابات لما امتلأت من الروح القدس فهمت الحبل بابن الله وعبرت عنه بهذا الكلام: من أين لي أن تأتي إليَّ أم ربي (لوقا ص 1 عـ 43)، وكما أن جسد المسيح قد تكوّن من دم البتول الطاهر النقي بدون أدنى مباشرة رجل كما تقدم القول بل بقوة الروح القدس وحدها هكذا أيضاً حالما حبل به ظفرت نفسه القدوسة بفيض جميع مواهب الروح القدس بما لا حد ولا نهاية له ليس كما يظفر باقي البشر بالقداسة والنعمة اذ يعطيهم الله بكيل كما شهد يوحنا الرسول (ص 3 عـ 34)، بل سكب في نفسهِ كل نعمة بفيضان لا يقدر حتى أخذنا نحن جميعنا من امتلائهِ (يوحنا ص 1 عـ 16).

(60)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

خامساً: لا يصح القول أن المسيح هو ابن الله بالذخيرة.

لا يجوز أن يدعى المسيح ابن الله بالذخيرة ولو حاز ذاك الروح الذي نال بهِ القديسون ذخيرة أبناء الله لأنهُ لما كان ابن الله بالطبيعة لا ينبغي قطعاً أن نعد نعمة التبني الذخيرة لائقة بهِ.

سادساً: في ما يقتضي أن نتأملهُ خاصة في هذا القسم الأول من الجزء الثالث من قانون الإيمان.

هي الأشياء التي رأينا أن نشرحها في سر الحبل الإلهي العجيب ولكي يجني منها ثمرة الخلاص يجب على المؤمنين أن يرددوا في بالهم ويكثروا من ترديد أفكارهم أن الله هو الذي تجسد وصار إنساناً بطريقة لا يستطيع عقلنا سبيلاً إلى إدراكها ولا نقدر أن نعبر عنها بالكلام وأنهُ قد شاءَ أن يصير إنساناً لغاية أن نولد ثانية نحن البشر بنين لله.

فعلى ذوي القلوب المتواضعة السليمة أن يؤمنوا بجميع ما يتضمنه هذا الجزء من الأسرار ويجلُّوها ولا يقدموا على فحصها واستقصائها من باب الفضول اذ ذلك لا يكاد يخلو من خطر الضلال.

سابعاً: ما معنى قولك أن المسيح ولد من مريم العذراء.

قيل في قانون الإيمان: ولد من مريم العذراء وهذا هو القسم الثاني من هذا الجزء الذي ينبغي على الراعي أن يبذل جهده في شرحه على أنهُ من الواجب على المؤمنين أن يؤمنوا ليس فقط بأن الرب يسوع حبل بهِ بقوة الروح القدس بل انهُ

(61)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ولد أيضاً من مريم العذراء وظهر في العالم وقد ابان الملاك الذي هو أول من بشَّرَ للعالم بهذه السعادة بكم من السرور وبهجة القلب يجب الهذيذ بهذا السرّ اذ قال:

هوذا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب (لوقا ص 2 عـ 10) ثم ترنمت الجنود السماوية قائلة: المجد لله في العلا وعلى الأرض السلام للبشر ذوي الإرادة الصالحة وما من صعوبة في فهم ما ترنمت بهِ الملائكة اذ بذلك قد ابتدأ انجاز ما وعد الله بهِ ابراهيم بقوله: تتبارك بنسلك جميع الأمم (تكوين ص 22 عـ 18)، لأن مريم التي ندعوها أن الله حقاً ونجلها لأنها ولدت الأقنوم الذي هو إله وإنسان معاً هي من نسل داود الملك.

ثامناً: ان المسيح لم يولد بحسب مجرى الطبيعة العام.

كما أن الحبل به قد فاق نظام الطبيعة البشرية هكذا لا نرى في ميلاده الاَّ ما كان إلهياً ومن أعجب ما يمكن أن يقال أو يصوَّر انه ولد من أمهِ بدون أن ينقص أدنى شيء من بكارتها الوالدية كما خرج بعد ذلك من القبر وهو مغلق ومختوم ودخل على تلاميذه والأبواب مغلقة ونقول كيلا نبعد عن الأمور التي نشاهدها كل يوم في الطبيعة.

كما أن أشعة الشمس تخرق جوهر الزجاج ولا تكسره ولا تئلمه بهذا النوع بل بنوع أسمى خرج يسوع من مستودع والدته بدون أن يؤذي بكارتها الوالدية فعليه نُبجِّل بكارتها الدائمة السليمة من كل عطب وأذى وهذا قم تم بقوة الروح القدس الذي تدارك الوالدة في الحبل بابنها وميلاده بحيث خوّلها خصب الولادة وحفظ بكارتها على الدوم.

(62)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

تاسعاً: ان المسيح بحق يسمى آدم الجديد ومريم حواء الجديدة.

قد اعتاد الرسول المعظم أن يسمي يسوع المسيح آدم الجديد ويقابله مه آدم الأول فكما أن جميع البشر ماتوا في آدم الأول هكذا بآدم الثاني يعود الجميع إلى الحياة وكما أن آدم كان أبا النوع البشري بحسب الطبيعة هكذا المسيح هو ولي النعمة والمجد للبشر وعلى هذا النحو يجوز لنا أيضاً أن نقابل مريم البتول مع حواء إذ تحسن مقابلة حواء الثانية أي مريم البكر مع حواء الأولى كما قابلنا بين آدم الثاني أي المسيح وآدم الأول.

لأن حواء لما صدقت قول الحية جلبت اللعنة والموت على النوع البشري وأما مريم اذ صدقت الملاك قد اقبلت بالبركة والحياة على البشر بجود الله وإحسانهِ. بسبب حواء نولد أولاد الغضب وبمريم قبلنا يسوع المسيح و وُلدنا ثانية أبناء النعمة. قيل لحواء بالأوجاع تلدين البنين (تكوين ص 3 عـ 16)، أما مريم فقد عتقت من هذه السنّة لأنها ولدت يسوع ابن الله على سلامة بكارتها وبدون أدنى وجع كما تقدم القول.

عاشراً: في الرموز والبنؤَّات الالهية إلى أسرار الحبل بيسوع المسيح وميلاده.

لما كانت كثيرة وعظيمة أسرار هذا الحبل والميلاد العجيب قضت العناية الإلهية أن يعبر عنهما بالرموز الكثيرة والنبؤات. ولذا قد رأى العلماءُ القديسون من هذا القبيل أشياء كثيرة وردت في الأسفار الإلهية ترمز إلى هذا السر

(63)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

لاسيما باب المقدس الذي رأه حزقيال مغلقاً (ص 44 عـ 2)، ثم ذاك الحجر المقطوع من الجبل بدون أيدي كما جاء في نبوة دانيال وقد صار جبلاً وملأ الأرض بأسرها (ص 2 عـ 34)، ثم عصا هارون التي وحدها أورقت بين عصى رؤساء إسرائيل ثم العليقة التي شاهدها موسى تتقد النار فيها ولا تحترق وقد روى لوقا البشير خبر ميلاد المسيح بالتفصيل فلا حاجة إلى التطويل في هذا الصدد فيسهل على الخوري مراجعة ذلك في الإنجيل.

الحاي عشر: ينبغي أن يرسخ في ذهن الشعب سر التجسد

كي يقتبس ما في تأملهِ من الفوائد.

يجب على الراعي أن يبذل جهده في أن يبجنفي عقول المؤمنين وقلوبهم هذه الأسرار التي كتبت لتعليمنا أولاً لكيما يسدوا شكراً لله ولي كل نعمة بذكر إحسانهِ هذا الفائق ثم كي يجعلوا نصب عيونهم نموذج ذاك التواضع الفريد العظيم ليعلموا بموجبهِ ويقتفوا أثره فهل من شيءٍ أفود وأنسب لقمع كبرياء أنفسنا وتشامخها من تأملنا بتواتر ان الله سبحانهُ قد تنازل إلى هذا الحد حتى أشرك البشر بمجده وأخذ ضعف النس وحقارتهم وان الله صار إنساناً وان الجلال الأسمى الغير المتناهي يخدم الإنسان وأن من تتزعزع أعمدة السماء من زجره كما قال الكتاب (أيوب ص 6 عـ 11)، يولد في الأرض والملائكة تخرُّ لهُ سجداً في السماءِ فمن بعد أن صنع الله كل ذلك لأجلنا فما الذي يلزمنا أ، نعملهُ كي نطيعهُ سوى أن نحب جميع أعمال التواضع وان نبادر إليها ونتممها بفرح القلب والرضى.

(64)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فليرَ المؤمنون ما أقام لنا المسيح من التعليم الخلاصي بميلاده قبل أن ينطق بكلمة وُلد كغريب في مغارة ولد في مذود حقير ولد في أواسط الشتاء هكذا كتب القديس لوقا البشير: وبينما كانوا هناك تمت أيام ولادتها فولدت ابنها البكر فلفتهُ واضجعتهُ في مذود لأنهُ لم يكن لهما موضع في المنزل (لوقا ص 2 عـ 6 و 7) ترى هل استطاع البشير أن يحصر بكلام أوضح من هذا مجد وعزة السماء والأرض بكمالها. ولم يكتب لم يكن موضع في المنزل بل لم يكن لهما أي لمن قال: لي الدنيا وكل ما فيها (مزمور 49 عـ 12)، وشهد بشير آخر بقولهِ: أتى إلى خاصتِه وخاصته لم تقبلهُ (يوحنا ص 1 عـ 11) فإذا وضع المؤمنون هذه الأشياء نصب عيونهم أدركوا أن الله شاءَ أن يتخذ جسدنا الضعيف الذليل كي يرفع النوع البشري إلى أعلى مقام لأن هذا الأمر وحده يعلن بالكفاية ما خوّل الله الإنسان من سناءِ المقام ورفعتهِ احساناً منهُ إليه فقد صار إنساناً من هو إله حقيقي كامل حتى حق لنا أن نفتخر بأن ابن الله هو من عظمنا ولحمنا ولا يحق ذلك للأرواح الطوباوية كما ذكر الرسول المعظم: فإنهُ لم يتخذ الملائكة بل إنما اتخذ نسل إبراهيم (عبرانيين ص 2 عـ 16) فلنحذر من أن يتفق لنا من قبل شرنا أن المسيح الرب لا يجد مكاناً في بيت لحم ليولد فيهِ لأنهُ لما كان مضطرماً شوقاً لخلاصنا يرغب حميم الرغبة أن يولد في قلوبنا وكما أنهُ بقوة الروح القدس صار إنساناً وولد فوق نظام الطبيعة وهو القدوس والقداسة بالذات

(65)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

هكذا يجب علينا أن نولد نحن لا من دم ولا من هوى رجل بل من الله (يوحنا ص 1 عـ 13) كخليقة جديدة تسعى بتجديد الروح ونحفظ تلك القداسة وطهارة العقل التي تليق كثيراً بالناس المولودين بروح الله لأننا على هذا النحو نصوّر في ذواتنا على نوع ما صورة الحبل بابن الله وميلاده الذي نؤمن بهِ إيماناً وثيقاً وإذا أمنا تقبل حكمة الله المحجوبة بهذا السر ونسجد لها.

ــــــــــــــــــــــــــــــ

الفصل الخامس

في الجزء الرابع من قانون الإيمان

"تألم في عهد بيلاطس البنطي وصلب ومات وقبر"

أولاً: من اللازم معرفة الجزء الرابع من قانون الإيمان ومضمونهُ.

ما الزم معرفة هذا الجزء وما أوجب على راعي النفوس الاعتناء في أن المؤمنين يبجنون في قلوبهم ذكر آلام الرب قد علم الرسول المعظم وشهد أنهُ لا يعرف شيئاً الاَّ يسوع المسيح مصلوباً ولهذ ينبغي أن يبذل الجهد الجهيد في إيضاح هذا الموضوع بأجلى بيان حتى إذا انتعش المؤمنون بذكر إحسان الله هذا العظيم يقبلون بكليتهم إلى محبة الله وجوده نحونا فإن الإيمان في القسم الأول من فإن الإيمان

(66)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

في القسم الأول من هذا الجزء (سيأتي الكلام على القسم الثاني) ، يقضي علينا أن نعتقد أن المسيح الرب قد علق على الصليب حين كان بيلاطس البنطي والياً على اقليم اليهودية بأمر طيباريوس قيصر فوقتئذٍ قبض عليه وسخر به وكابد أنواع الإهانات والعذابات الإليمة وفي الآخر رُفع على الصليب.

ثانياً: ان نفس المسيح شعرت بالعذابات في قسميها.

لا يظننّ أحد أن نفسهُ نظراً إلى الجزء الأدنى كانت ناجية من تلك الآلام لأنهُ لما اتخذ الطبيعة البشرية حقيقة لزم الاعتراف ضرورة بأنهُ شعر بنفسهِ أشد الأوجاع ولهذا قال وهو أصدق قائل أن نفسي حزينة حتى الموت (متى ص 26 عـ 38) لأنهُ ولو كانت الطبيعة البشرية مقترنة بالأقنوم الإلهي مع ذلك قد شعر بمرارة الآلام كما لو لم يكن ذاك الاقتران حيث أن كلاً من الطبيعتين الإلهية والإنسانية في أقنوم يسوع المسيح الواحد حفظت خواصها. ولذلك ما كان فيهِ قابلاً الآلام والموت مكث متألماً ومائتاً وبالعكس ما كان منزهاً عن الألم والموت وهو الطبيعة الإلهية استمرَ على هذه الخاصة غير متألم ولا مائت.

ثالثاً: ترى لماذا يصرّح في قانون الإيمان أن المسيح تألم في

عهد ذاك الوالي على اليهودية

ج نرى من الواجب أن نحسن الملاحظة في هذا الموضوع بأن يسوع المسيح تألم حين كان بيلاطس البنطي والياً على

(67)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

اليهودية وعلى راعي النفوس أن يعلم أن هذا الأمر قد جرى كي تكون معرفة هذا الحادث الخطير الضروري في أجلي بيان للجميع وذلك اذا تعين وتقرّر زمن الحدوث وقد ذكر الرسول المعظم ظرف الزمان ثم كي يتضح جلياً أن نبوة المخلص قد تمت بالفعل أذ قال يسلمونهُ إلى الأمم ويهزأون به ويجلدونهُ ويصلبونه.

رابعاً: لم يحدث بطريق العرض كون المسيح كابد الموت معلقاً على خشبة الصليب.

ومما يجب أن نعزيه إلى قصد منه تعالى هو مكابدة المسيح الرب الموت خاصةً على خشبة الصليب ذلك لكي تتأتى الحياة من حيث صدر الموت كما قال القديس ايرونيموس في آلام الرب لأن الحيّة التي غلبت أبوينا الأولين في عود الشجرة قد غلبها المسيح بعود الصليب ولنا في هذا المعنى أوجه كثيرة قد جاء الآباء القديسون بايرادها أما نحن فحسبنا ان نقول أن فادينا الإلهي رأى مناسباً أن يكابد بالخصوص موت الصليب وكفى الراعي أن ينبه المؤمنين أن مخلصنا تقدس اسمه قد اختار نوع هذه الميتة لأنه رأها أنسب وأجدر بفداء الجنس البشري لأنها أشنع وأقبح من سواها لكون عذاب الصليب لم يكن مستهجناً عند الأمم الوثنية فقط ومفعماً عاراً وفضيحة بل في شريعة موسى أيضاً كان يدعى ملعوناً من علق على خشبة.

خامساً: ينبغي أن تكرِّر على الشعب تلاوة قصة آلام المسيح

لا يتهاونَّ الراعي بايراد قصة آلام المسيح فيما أن الانجيليين القديسين قد أوردوها بما لا مزيد عليهِ من

(68)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الاجتهاد والتدقيق كي يطلع المؤمنون أقله على أصول هذا السر الذي نراه الزم وادعى إلى تثبيت حقيقة إيماننا لأن ديانتنا المسيحية وإيماننا يستندان على هذا الجزء من قانون الإيمان كإنما على أساس إذا وضع يصبح جميع ما بقى جارياً على منهج النظام والاستقامة لأنهُ إذا عرض ما يأتي بأشكال على العقل البشري ومداركه فلا شك في أن سر الصليب بعد اشكل المشاكل بأسرها إذ بالكد نستطيع أن نعقل أن خلاصنا منوط بالصليب نفسه وبمن علق عليهِ لأجلنا. ولكن يجب علينا في هذا الامر كما أفاد رسول الأمم أن نعجب من عنايته تعالى العظيمة. لأنه إذا كان العالم وهو في حكمة الله لم يعرف الله بالحكمة حسن لدى الله أن يخلص بجهالة الكرازة الذين يؤمنون (قورنتية 1 ص عـ 21) ولهذا ما من عجب في أن الأنبياء قبل مجيء المسيح والرسل بعد موته وقيامته عنوا كثيراً بأن يحققوا للبشر أن هذا هو الفادي ويقودهم إلى الأذعان لسلطة المصلوب وطاعته. ولذا لما كان سر الصليب أبعد الأمور عن العقل البشري لم يكف الله سبحانه حالاً بعد الخطية عن أن يشير إلى موت ابنه تارةً بالرموز وطوراً بأقوال الأنبياء. ونظراً إلى الرموز نذكر منها شيئاً على سبيل الإشارة. منها قتل قاين أخاه هابيل حسداً ثم تقدمة اسحق ذبيحة ثم الحمل الذي ضحاه بنو اسرائيل لدى خروجهم من أرض مصر ثم الحية النحاسية التي رفعها موسى في البرية كل ذلك كان يرمز إلى آلام المسيح الرب وموته ونظراً إلى الأنبياء الذين تنبأوا عن آلامهِ وموته فهم كثيرون وأقوالهم أوضح من أن تشرح

(69)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

في هذا المقام ففضلاً عن داود النبي الذي استوعبت أقواله في الزبور كامل أسرار فدائنا عندنا نبوات أشعيا النبي البالغة إلى حد من الصراحة والبيان حتى يمكن القول فيها بحق وصواب أن النبي أورد أمراً مفعولاً أحرى من أن يقال أنه تنبأ على أمر مستقبل.

سادساً: ما المفهوم بهذا الختام "مات وقبر" من وجوب اعتقاده.

جاء في ختام هذا الجزء مات وقبر فعلى راعي النفوس أن يبين وجوب الإيمان بأن يسوع المسيح بعد أن علق على الصليب مات حقيقةً وقبر وليس بدون سبب يفرض على المؤمنين أن يؤمنوا بذلك مفصلاً اذ قد وجد من انكروا موته على الصليب رأى الرسل القديسون اذاً أن يقاوموا الضلال بهذا التعليم الاعتقادي بحيث لا يبقى لنا أدنى محل للشك في صحة هذا الجزء من قانون الإيمان فقد أجمع الانجيليون على أن يسوع أسلم الروح ثم لما كان المسيح إنساناً حقاً وكاملاً أمكنهُ أيضاً أن يموت حقيقة لأن الإنسان يموت بافتراق النفس عن الجسد ولذا نعني بقولنا أن يسوع قد مات أن نفسهُ افترقت عن جسده إلاَّ أننا لا نسلم بأن اللاهوت انفصل عن الجسد لا بل أننا نعتقد بثبات ونعترف أنهُ بعد انفصال نفسهِ عن جسده ما برح اللاهوت متحداً بالجسد في القبر وبالنفس في الجحيم. وكان من اللائق أن ابن الله يذوق الموت لكي يبطل بموتهِ من كان لهُ سلطان الموت أعنى ابليس ويعتق كل الذين كانوا مدة حياتهم خاضعين للعبودية مخافة من الموت (عبرانيين ص 3 عـ 15 و 16).

(70)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

سابعاً: في أن المسيح لم يحتمل الموت مكرماً.

كان من مزايا المسيح الرب أنهُ مات حين شاءَ ولم يمت موتاً انفذ إليه بقوة من الخارج بل مات باختياره. وقد عين لنفسهِ ليس الموت فقط بل مكانه وزمانه أيضاً فدونك ما كتبهُ اشعيا النبي تقدم لأنهُ أراد (ص 53 عـ 7) والرب قال عن نفسهِ قبل آلامه. أنا أضع نفسي أخذها أيضاً ليس أحد يأخذها مني ولكني أبذلها باختياري ولي سلطان أن أبذلها ولي سلطان أن أخذها أيضاً (يوحنا ص 10 عـ 17 و 18).

ونظراً إلى زمن موتهِ ومكانهِ نقول أنهُ أرسل إلى هيرودوس لما أضمر قتله بقول: قولوا لهذا الثعلب ها أنا أخرج الشياطين وأجري الشفاء اليوم وغداً وفي اليوم الثالث أكمل ولكن ينبغي لي أن أسير اليوم وغداً والذي بعده لأنهُ لا يمكن أن يهلك نبيٌّ خارج أورشليم (لوقا ص 12 عـ 32) فاذا لم يعمل شيئاً مكرهاً أو على رغم إرادته ولكنهُ أراد هو أن يقدم نفسهُ باختياره وقد تقدم تجاه اعدائهِ قائلاً أنا هو (يوحنا ص 18 عـ 5) وبالتالي قد قاسى برضاه كل ما سلموه من العذابات المرة ظلماً ذلك أقدر من كل ما سواه على تحريك عواطف قلبنا في تأملنا جميع عذاباتهِ وآلامهِ. فإذا كابد إنسان لأجلنا جميع الأوجاع التي لا يمكن الفرار منها لا التي يقبلها بإرادتهِ فلا تحسب ذلك احساناً كبيراً. أما إذا احتمل باختياره وعلى اسمنا فقط موتاً كان بوسعهِ أن يتجنبهُ فلا شك أن هذا إحسان عظيم تقصرعن إيفاءِ الشكر لهُ قوة الجنان بل يعجز عن وصفهِ كل لسان.

(71)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فمن ثم يمكننا أن ندرك محبة يسوع المسيح لنا واستحقاقه العظيم لأجلنا.

ثامناً: لماذا نقول أن المسيح ليس فقط مات بل قبر أيضاً.

ج ان اعترافنا بأنهُ قُبر لا يقيم جزءاً من قانون الإيمان يبعث على أشكال جديد غير الذي أوردناه في موتهِ لأننا إذا أمنا أن المسيح مات ايقنا بسهولة أنهُ قبر ولكن قد أضافوا ذكر قبره أولاً لينتفي الشك في موتهِ إذ أقوى برهان على موت الإنسان وضع جسده في القبر ثم لتعلن أعجوبة قيامته وتتضح بأوفر جلاء وليس نعتقد فقط أن جسد المسيح قبر بل يتحتم علينا أيضاً أن نؤمن خاصة بأن الله قبر كما أننا نصدق في قولنا وفقاً لقاعدة الإيمان الكاثوليكي أن الله مات وأنه ولد من البتول فبحق نعترف أن الله قبر لأن اللاهوت لم يفارق الجسد الذي وضع في القبر.

تاسعاً: ماذا ينبغي أن نلاحظ خاصة في موت المسيح ودفنهِ.

ج نظراً إلى نوع الدفن ومكانه حسب الراعي أن يطلع على ما ذكره الإنجيليون القديسون إلا أنهُ ينبغي أن نعتبر أمرين بالخصوص أحدهما أن جسد المسيح في القبر لم يبلَ قطعاً ولم يعترِه فساد. وقد تنبأ داود النبي عن ذلك بقولهِ لم تدع صفيك يرى الفساد (مزمور 15 عـ 10) والآخر هو أن كل ما يختص بهذا الجزء من آلام يسوع المسيح وموته ودفنه يطلق عليه بما أنهُ إنسان لا بما أنه إله لأن التألم والموت يقع على الطبيعة البشرية فقط وأن أعزي هذا جميعهُ أيضاً

(72)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

إلى الله حيث من المعلوم أن هذا يقال عن ذاك الأقنوم الذي هو إله تام وإنسان تام معاً.

عاشراً: من أي وجه ينبغي أن نعتبر احسان آلام المسيح.

بعد أن أطلع الراعي على ما مرّ يقدم إلى شرح تلك الأمور المتعلقة بآلام المسيح وموتهِ التي منها يتمكن المؤمنون من أن يشاهدوا على الأقل عظمة هذا السر الفائق الوصف اذا لم يستطيعوا سبيلاً إلى إدراكه.

فعلينا أن نعتبر أولاً من هو الذي كابد جميع هذه الآلام فبالحق لا نقدر أن نعبر عن مقامهِ ببنت شفة ولا أن ندركه بعقلنا. أما مار يوحنا الرسول فقال أن الكلمة كان عند الله (يوحنا ص 1) ورسول الأمم وصفهُ بهذا الكلام الفخيم على هذا النمط أنهُ هو الذي وضعهُ الله وارثاً لكل شيءٍ وبه خلق العاملين الذي هو ضياء مجده وصورة جوهره وضابط الكل بكلمة قدرتهِ وهو صنع تطهير خطايانا وجلس عن يمين العظمة في العلاءِ (عبرانية 1 ص 1 عـ 2 و 3) وخلاصة القول قد تألم يسوع المسيح الإله والإنسان معاً تألم الخالق لأجل خليقتهِ تألم الرب لأجل عبيده تألم من أبدع الملائكة والبشر وفطر السماوات والعناصر ومن فيه وبه ومنهُ وجدت جميع الخلائق ولهذا ما من عجب إذا زلزلت الأرض زلزالها لتأثرها مما كابده ربها وإلهها من العذابات القادحة لأن الكتاب يقول والأرض تزلزلت والصخور تشققت والقبور تفتحت وقام كثير من أجساد القديسين الراقدين (متى ص 27 عـ 51 و 52)، وقال فحدثت ظلمة على الأرض كلها إلى الساعة التاسعة وأظلمت الشمس وانشق حجاب الهيكل من وسطه (لوقا ص 23 عـ 44 و 45).

(73)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فإذا كانت الجوامد العديمة الحس انتخبت وبكت على آلام خالقها فليفتكر المؤمنون بأية عبرات ينبغي عليهم أن يظهروا تفجعهم على آلام فاديهم وهم بمنزلة حجارة حية في بناءِ العالم.

الحادي عشر: لماذا شاءَ المسيح الرب أن يحتمل آلاماً شديدة

للغاية وما القول في أولئك الذين مع استمساكهم بعروة

الدين المسيحي يتقلبون في حماة الآثام والرذائل.

ج بقي علينا أن نورد أيضاً أسباب الآلام كي تظهر بأجلى وضوح عظمة محبة الله لنا وقوتها. فإن سأل سائل ما كان السبب الذي لأجلهِ كابد ابن الله هذه الآلام الفادحة نجيب أن ذلك جرى بسبب الخطية الأصلية التي ورثناها من أبوينا الأولين وبسبب الآثام والرذائل التي ارتكبها البشر منذ بداية العالم إلى هذا اليوم والتي سيرتكبونها إلى إنقضاء الدهر. لأن ابن الله مخلصنا قصد من آلامهِ وموتهِ ان يفدي خطايا الأجيال كلها زيمحوها ويكفّر لأبيهِ عنها تكفيراً وافياً فائضاً ويضاف على ذلك توفيراً لسمو هذا التكفير ان المسيح لم يتألم لأجل الخطاة فقط بل لأجل الذين الحقوا بهِ جميع الغذابات التي كابدها والذين حملوهم على ايقاعها به أيضاً. وقد أفادنا ذلك رسول الأمم بكتابتهِ إلى العبرانيين إذ قال فتفكروا في الذي صبر على مثل هذه المخالفة لهُ من الخطاة لئلا تكلوا وتخوروا في نفوسكم (عبرانية ص 12 عـ 3) وينبغي أن يشجب بهذه لبجريمة جميع الذين يكثرون السقوط في الخطايا لأن خطايانا لما انتدبت

(74)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

المسيح الرب إلى احتمال آلام الصليب فبحق قلنا أن الذين يتقلبون في القبائح والرذائل يعاودون بقدر ما في استطاعتهم صلب ابن الله بذواتهم ويكررونهُ وأن اخلطية فينا أكبر جرماً منها في اليهود لأن أولئك كما شهد الرسول المعظم لو عرفوا لما صلبوا رب المجد (قورنتية 1 ص 2 عـ 6) أما نحن فنقر أننا نعرفهُ ومع ذلك ننكره بأفعالنا وكأننا على نوع ما نرفع إيدينا عليهِ المضرب.

الثاني عشر: ان الاب قد أسلم يسوع المسيح للآلام وهو

أيضاً أسلم ذاته.

ذكرت الأسفار الإلهية أن الآب الأزلي أسلم المسيح الرب وأنهُ هو أسلم ذاته أيضاً للآلام. قال أشعيا النبي: لأجل اثم شعبي قد ضربتهُ وقبيل ذلك اذ شاهد وهو مملوءٌ من روح الله الرب المسيح مثخناً بالجراح والقروح قال: نحن جميعاً ضللنا مثل الضان كل واحد مال إلى طريقهِ فوضع الرب عليه اثم جميعاً (اشعيا ص 53 عـ 8) أما في تسليم المسيح نفسه فقد ورد في أشعيا أيضاً: فإنهُ جعل نفسهُ ضحية إثم فيرى ذريتهُ وتطول أيامهُ (عـ 10) وقد عبر الرسول عن هذا الأمر بعبارات صريحة غير أنهُ قصد من جهة أخرى أن يبين لنا ما أكثر ما نقدر أن نترجاه من رحمة الله الوفيرة وجودته الغزيرة فقال : الذي لم يشفق على ابنهِ بل أسلمهُ عن جميعنا كيف لا يهبنا أيضاً معهُ كل شيء (رومة ص 8 عـ 32).

(75)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الثالث عشر: في ان المسيح قد شعر حقيقة بمرارة العذابات

في جسدهِ ونفسهِ.

يلى الأن ما تقدم أن الراعي يلزمهُ أن يعلم الشعب ما أمرّ الآلام التي قساها المسيح الرب وأ، تسهل لكل من تذكر عرقه الجاري على الأرض كعبيط الدم حين كان يتصوَّر في عقلهِ ما كان مزمعاً أن يلقاه بعد هنيهة من تلك الآلام والعذابات أن يدرك أن وجعهُ وجع لا مزيد عليه لأنهُ إذا كان مجرد الإفتكار في آلامهِ الموشكة بلغ إلى هذا الحد من المرارة على ما تبين من عرقه دماً فكم نكون شدة مرارتها حين قاساها فعلاً.

ومن الثابت أيضاً أن المسيح الرب قد احتمل أشد الأوجاع في جسده ونفسه. أما في جسده فإنهُ لم يكن جزء منهُ الأشعر بأشد العذاب فرجلاه ويداه سمرت على الصليب ورأسُهُ كلل بالشوك وضرب بالقصبة ووجههُ تغطى بالبصاق ولطم بالكفوف وكامل جسمه جلد بالسياط.

ناهيكَ أن بشراً من كل نوع ورتبة ائتمروا كواحد على الرب وعلى مسيحه (مزمور 2 عـ 2) لأن الأمم واليهود كانوا محرشين على الآلام ومباشريها يهوذا خانهُ بطرس انكره والآخرون جميعهم تركوه. وفي الصليب نفسه أي موضوع نعتمد للتأمل آقساوة العذاب أم العار أو كليهما معاً. فحقاً لا يمكن أن يتصور في العقل أشنع وأمر ميتة فإنهُ لم يكابدها عادةً ألاَّ أشقى الأشقياء وشر الظلمة المنافقين وكان طول المدة في تعذيبه يزيده شعوراً بأشد العذاب وأقسى أوجاع الموت ومن جهة أخرى كان يزيد على يسوع المسيح العذاب تركيب جسمه ومزاجه الذي من كونه على الروح القدس كان أكمل وألطف جميع أجسام البشر وكانت قوة

(76)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الحس فيه أشد منها في سواه فكابد هذه العذابات جميعها بأشد وجع.

أما نظراً إلى وجع النفس الباطن فما من أحد يخامره ريب في أنهُ كان في المسيح أعظم ما يمكن من الشدة والقسوة لأن الأنام القديسين الذين احتملوا العذابات والأوجاع لم يخلوا من نداء سلوى سكبها الله سبحانهُ في أنفسهم فبردت جمرة العذابات حتى استطابوا احتمالها بهدوءّ القلب وسكينته لا بل أن كثيرين منهم كانوا في معامع الأوجاع يتطايرون فرحاً في بواطنهم قال رسول الأمم: اني أفرح الآن في الآلام من أجلكم اتمّ ما ينقص من شدائد المسيح في جسمي لأجل جسده الذي هو الكنيسة (قولوسايس ص1 عـ 24) وفي محل آخر يقول: قد امتلأت تعزية وأنا فائض بالفرح في جميع مضايقنا. أما المسيح الرب لذكره السجود فقد شرب كأس الآلام المرّة بدون أ، يمزجها بأدنى عذوبة لأنهُ قد سمح للطبيعة البشرية التي تقمصها أن تشعر بجميع العذابات كما لو كان إنساناً فقط لا إلهاً أيضاً.

الرابع عشر: ترى ما الفوائد والخيرات التي يجنيها

على الخصوص النوع البشري من آلام المسيح.

بقي فقط على الراعي أن يبين للشعب جلياً الفوائد والخيرات التي نستفيدها من الأم المسيح الرب. فأولاً أن آلام الرب انقذتنا من الخطية كما ورد في رؤيا يوحنا الرسول حيث قال : قد أحبنا وغسلنا من خطايانا بدمهِ (رؤيا ص 1 عـ 5)، وقال رسول

(77)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الأمم:

وحين كنتم أمواتاً في الزلات وفي قلف أجسادكم أحياكم معهُ مسامحاً لكم بجميع الزلات ومحا الصك الذي كان علينا بموجب الأقضية الذي كان لهلاكنا وأخذه من الوسط وسمره في الصليب (قولوسي ص 2 عـ 13 و 14)، ثم أنقذنا من عبودية الشيطان لأن الرب نفسهُ قال قد حضرت الآن دينونة العالم لأن يلقى أركون هذا العالم خارجاً وأنا إذا ما ارتفعت عن الأرض جذبت إلىّ كواحد (يوحنا ص 12 عـ 31)، ثم وفى عنا عقاب خطايانا وذلك لأنُ صالحنا مع الآب واحنى رأفتهُ إلينا وسكن غضبهُ إذ كانت آلامهُ وموته أحب وأرضى ما يمكن أن يقدم لله من القرابين والذبائح. وفي الآخر اذ رفع الخطايا فتح لنا أيضاً باب السماء الذي كان موصداً بسبب الخطية الأصلية. وقد عبر عن ذلك رسول الأمم بهذا الكلام: اذن حيث أيها الأخوة ثقة بالدخول إلى الأقداس بدم المسيح (عبرانية ص 10 عـ 19)، وقد ورد رمز وصورة لهذا السر في العهد القديم فإن أولئك الذين كانوا ممنوعين من أن يدخلوا الوطن قبل أن يموت الكاهن الأعظم كانوا إشارة إلى أن باب الوطن السماوي لم يكن مفتوحاً لأحد ولو قضى حياته بتقوى وبره قبل أن يموت يسوع المسيح الحبر الأعظم الأزلي. فلما مات حالاً فتحت أبواب السماء لأولئكَ الذيت تقدسوا بأسراره وازدانوا بالفضائل الإلهية أي الإيمان والرجاء والمحبة وصاروا شركاء آلامهِ.

(78)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الخامس عشر: من أين اتخذت آلام المسيح قوة لتستحق لنا

هذه الخيرات العظيمة.

على راعي النفوس أن رعيتهُ أن جميع هذه الخيرات الإلهية العظيمة قد اتصلت إلينا من آلام الرب يسوع وذلك لأنهُ كفارة وافية وكاملة قدمها يسوع المسيح بنوع عجيب لله الآب عن خطايانا. وقد دفع عنا ثمناً لا يوازي فقط ما علينا من الدين بل يزيده كثيراً. ثم لأنهُ ذبيحة مقبولة ومرضية لله أعظم قبولاً وأحسن رضى اذ قدمها لهُ الابن على مذبح الصليب وسكنت غضب الله ورجزه تماماً وقد ذكر ذلك رسول الأمم بقوله: واسلكوا في المحبة كما أحبنا المسيح وبذل نفسهُ لأجلنا قرباناً وذبيحة لله ورائحة مرضية (أفسس ص 5 عـ 2)، وما أحسن ما قال هامة الرسل في هذا الصدد: عالمين أنكم لم تفتدوا بما يفسد من الفضة والذهب من تصرفكم الباطل على حسب سنن آبائكم بل بدم كريم دم حمل لا عيب فيه ولا دنس وهو المسيح (بطرس 1 ص 1 عـ 18 و 19)، وقد علم رسول الأمم بقولهِ: الذي افتدانا من لعنة الناموس هو المسيح الذي صار لعنة لأجلنا (غلاطية ص 3 عـ 13).

السادس عشر: أن في آلام المسيح مثال جميع الفضائل.

اننا ما خلا جميع الإحسانات الفائقة المار ذكرها قد نلنا هذا الإحسان العظيم وهو أننا نجد في آلام المسيح وحده من نموذجات الفضائل أشرفها وأفضلها لأنهُ أرانا ليس في احتمال الأوجاع فقط لأجلنا بل في تشوقهِ إلى الموت أيضاً الصبر والتواضع والمحبة الفائقة الوصف والدعة والطاعة

(79)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وثبات النفس بحيث حق لنا أن نقول أن مخلصنا أوضح لنا في ذاته بيوم واحد في آلامه كل ما علمناه من وصايا الحياة بالكلام في كل زمن كرازته.

هذا ما أوردناه بوجه الإيجاز عن آلام المسيح الرب وموته الخلاصيين فيا ليتنا نهذ دائماً في الأسرار ونتعلم أن نموت وندفن مع الرب حتى فيما بعد اذ نلقي عنا كل دنس الخطئة تقوم معهُ إلى الحياة الجديدة وفي الآخر نؤهل لأن نصير شركاء برحمتهِ ونعمتهِ في الملك السماوي ومجده.

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الفصل السادس

في الجزء الخامس من قانون الإيمان

"نزل إلى الجحيم وفي اليوم الثالث قام من الأموات"

أولاً: كيف ينبغي أن نفهم هذا الجزء من قانون الإيمان.

يهمنا كثيراً أن نعرف مجد دفنة ربنا يسوع المسيح المار ذكرها آنفاً أما الشعب المؤمن فيهمهُ أكثر من ذلك أن يطلع على ما نالهُ من باذخ المجد بانتصاراتِه الباهرة على الشيطان وسلبهِ الجحيم سباياه فيكون مدار كلامنا الآن على نزولهِ إلى الجحيم وعلى قيامتهِ وكان يسوغ لنا أن نجعل لكل منهما فصلاً على وحدتهِ في مقالنا غير أننا رأينا أن نجمع بين كليهما في فصل واحداً جرياً على ترتيب الآباء القديسيين في مقالهم فالمفروض علينا اذاً أن نعتقده في القسم

(80)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الأول من هذا الجزء هو أن نفس المسيح الرب انحدرت بعد موته إلى الجحيم ومكثت هناك طالما مكث جسده في القبر ونعتقد أيضاً ونعترف بهذا الكلام أن أقنوم المسيح بعينهِ كان في الوقت نفسهِ في الجحيم ومضجعاً في القبر ولا ينبغي أن ياعجب أحد مما نقول لأن اللاهوت لم يفارق نفس المسيح الرب ولا جسده وان كانت النفس قد انفصلت عن الجسد وقد ذكرنا ذلك غير مرة.

ثانياً: ما المفهوم هنا بلفظة الجحيم.

أما هذا الجزء فينجلي أوفر انجلاء اذا بين الراعي ما يجب أن نفهمهُ في هذا المقام بلفظة الجحيم. فينبغي أن يفيد أن الجحيم في هذا المعرض لا يؤخذ بمعنى القبر كما زعم البعض من باب النفاق والكفر ومن باب الجهل والغباوة فقد تعلمنا في الجزءِ السابق أن المسيح الرب قبر ولم يكن داعِ بتة إلى أن الرسل القديسين في الفائهم الإيمان الينا يعيدون الشيء نفسه بتعبير آخر غامض وعسر الفهم. فاسم الجحيم يدل حقيقة على تلك المنازل الخفية التي كانت فيها تسجن الأنفس اللواتي لم يبلغن السعادة السماوية وبهذا المعنى اتخذت الأسفار الإلهية هذا الاسم في محال عديدة منها ما نقرأه في رسالة رسول الأمم إلى أهل فيليبي اذ يقول: لإسم يسوع تخرُّ كل ركبة في السماء والأرض والجحيم (ص 2 عـ 16)، وفي أعمال الرسل شهد القديس بطرس هامتهم: ان المسيح الرب قد قام ناقضاً أوجاع الجحيم (أعمال ص 2 عـ 24).

(81)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثالثاً: كم هي الأماكن التي تحبس فيها النفوس بعد الموت

خارجاً عن السعادة.

ان هذه المنازل ليست جميعاً من نوع واحد لأن منها ما كان سجناً حالك الظلام مدلهاً حيث تتعذب نفوس الهالكين للأبد بنار لا تطفأُ مع الأرواح النجسة ويسمى أيضاً جهنم ولجة وبالمعنى الخصوصي الجحيم. ثم توجد نار مطهرة تطهر فيها إلى زمن معلوم نفوس الأبرار كي يمكنهنّ الدخول في الوطن الأزلي الذي لا يدخلهُ دنس قطعاً وأفادت المجامع المقدسة أن حقيقة هذا التعليم ثابتة بآيات الكتاب المقدس والتقليدات الرسولية. فعلى الراعي أن يبذل جهده في المفاوضة بها تكراراً لكوننا قد بلغنا إلى الزمان لا يطيق الناس فيه التعليم الصحيح.

وأما النوع الثالث من هذه المنازل فهو الذي كانت تذهب إليهِ نفوس القديسين قبل مجئ المسيح وهناك يتمتعنَ براحة السكنى بدون أدنى عذاب منتعشات برجاء الفداء السعيد فالمسيح الرب لذكره السجود قد انحدر إلى الجحيم وأنقد منهُ أنفس أولئك الأبرار اللواتي كنَّ منظرات المخلص في حضن إبراهيم.

رابعاً: ان نفس المسيح قد انحدرت إلى الجحيم لا بالقوة فقط

بل بالحقيقة.

ينبغي أن نعتبر ان المسيح انحدر إلى الجحيم ليس بمعنى أن قوته وقدرته فقط بلغتا اليه لا نفسه أيضاً بل من الواجب أن نؤمن أ، نفسه بعينها النحدرت إلى الجحيم حقيقة وفعلاً ولنا

(82)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

على ذلك تلك الشهادة الثابتة الوثيقة من قول داود النبي: لأنك لا تترك نفسي في الجحيم (مزمور 15 عـ 10).

خامساً: لم يحط شيئاً من قدر المسيح انحداره إلى الجحيم.

ولو انحدر المسيح إلى الجحيم لم يحط انحداره شيئاً من سمو قدرته ولم يلتحق أدنى عيب ببهاءِ قداستهِ بل بالعكس قد تحقق بهذا الفعل ان كل ما كان ذاع واشتهر عن قداستهِ قد أصاب محجة الصدق والصحة وثبت متضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار أنهُ ابن الله كما كان حقق ذلك فيما مضى باجتراح الآيات والمعجزات العديدة. ومن أسهل الأمور أن نعقل ذلك اذا تبين الفرق العظيم بين الأسباب التي من أجلها أتى المسيح وغيره من البشر تلك الأماكن فإن باقي الناس انحدروا إليها أسرى اما هو فقد هبط بين الأموات حراً وظافراً ليقهر الأبالسة الذين كانوا يضبطون فيها بعض البشر مسجونين ومقيدين بسبب الخطية ثم كما في جهنم والمطهر أن البشر الذين انحدروا إليها منهم من كانوا يقاسمون عقوبات شديدة ومنهم من كانوا ناجين من العذاب إلاّ أنهم كانوا متضايقين لحرمانهم مشاهدة الله وتوقفهم على رجاءِ المجد السعيد الذي كانوا ينتظرونهُ. أما المسيح الرب فقد انحدر لا لكي يكابد شيئاً مما ذكر بل كي ينقذ الأبرار والقديسين من ذاك السجن التعيس المضنكط وبطلقهم ويجود عليهم بثمرة آلامهِ وبالتالي أن انحداره إلى الجحيم لم يخفض قطعاً مقامهُ الرفيع وسلطانهُ الأسمى.

(83)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

سادساً: ما الأسباب التي لأجلها أراد المسيح أن ينحدر

إلى الجحيم.

ج عدا ما اتينا به من البيان ينبغي على الراعي أن يعلم أن المسيح الرب قد انحدر إلى الجحيم كي يطلق من ذاك السجن أولئك الآباء القديسين الذين كانوا مسبيين بأيدي الأبالسة ويصعدهم معهُ إلى السماءِ ذلك قد تمهُ فعلاً بنوع عجيب وبأعظم مجد اذ أنهُ حال حضوره أشرق على الماسورين نوراً عظيماً من منظره الكريم وأوعب نفوسهم فرحاً لا يحد وابتهاجاً لا يوصف وجاد عليهم أيضاً بتلك السعادة المبتغاة القائمة بمشاهدة الله وقد أثبت بهذا العمل ما وعد به لص اليمين اذ قال لهُ: اليوم تكون معي في الفردوس (لوقا ص 22 عـ 43) وقد كان تنبأ هوشع النبي عن خلاص الأبرار هذا قبل أن يتم باحقاب اذ قال: أكون هلاكك أيها الموت واستئصالك أيتها الجحيم (ص 13 عـ 14) وإليه أشار زكريا النبي بقوله وأنت أيضاً بدم عهدك أخرجت أسراك من الجب الذي لا ماءَ فيهِ (ص 4 عـ 11)، ورسول الأمم عبر عنهُ بصريح العبارة قائلاً وخلع الرئاسات والسلاطين وشهّرهم بابهة ظافراً عليهم فيهِ (قولوسي ص 2 عـ 15). ولكي ندرك قوة هذا السر أبلغ ادراك يلزمنا أ، نكثر من التكرار في ذهننا أن ليس الأبرار فقط الذين أتوا بعد مجئ المسيح بل الذين أتوا قبلُهُ أيضاً بعد آدم والذين يتخلفونهُ حتى انقضاء العالم نالوا الخلاص بإحسان آلامهِ ولهذا قبل موته وقيامتهِ لم تفتح أبواب السماء لأحد قط بل أن نفوس الأبرار المنتقلين من هذه الحياة اما كنّ يؤخذن إلى حضن ابراهيم واما كنّ يذهبنَ إلى المطهر ليكفرنَ ويفينَ عما بقي لهنَّ من الذنوب

(84)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

والعقاب كما يجري لهنّ الأن أيضاً وبقي سبب آخر الذي لأجلهِ انحدر المسيح الرب إلى الجحيم وهو أن يعلن هناك قدرته وسلطانهُ كما أعلنها في السماءِ والأرض وقصارى الكلام لتجثوا لأسمهِ كل ركبة في السماء والأرض والجحيم. ليت شعري من في هذا المقام لا يتعجب ولا ينذهل من جودة تعالى نحو النوع البشري وهو شاءَ ليس أن يذوق شر ميتة فقط لأجلنا بل أن يدخل أيضاً أعمق أعماق الأرض كي يخرج منها النفوس العزيزة لديه المسجونة هناك وينقلها إلى دار السعادة الأبدية.

سابعاً: في مفاد القسم الثاني من هذا الجزء.

يلي القسم الثاني هذا الجزء ما أكثر ما ينبغي أن يجتهد الراعي في بيانهِ عملاً بأمر الرسول المعظم القائل لتلميذه تيموتاوس : اذكر أن يسوع المسيح الذي من نسل داود قد قام من بين الأموات (ص 2 عـ 8)،

ولا شك أن ما ألقاه من الأمر على تيموتاوس ألقاه هو نفسهُ على باقي رعاة النفوس. أما مضمون هذا الجزء فهو أن المسيح الرب بعد أن أسلم الروح على الصليب في التاسعة من يوم الجمعة ودفنه في مساء ذاك النهار نفسه تلاميذه الذين أنزلوا جسده عن الصليب باذن بيلاطس الوالي ووضعوه في قبر جديد بجانب البستان عادت نفسه إلى جسده في اليوم الثالث وهو الأحد يوم الرب وهكذا قام بعد ثلاثة أيام وعاد إلى الحياة التي كان انفصل عنها بموته.

(85)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثامناً: ان المسيح لم يقم بقوة غيره كباقي الناس بل

بقوته الخاصة.

على أنهُ لا ينبغي أن نفهم بلفظة قيامة ان المسيح انبعث من بين الأموات فقط لأن ذلك يعمّ كثيرين بل انهُ قام بقوته وقدرته وهو خاص بهِ فقط دون غيره. فما للطبيعة استطاعة ولا أعطي لأحد من البشر أن يقدر أن يعيد ذاته من الموت إلى الحياة بقدرته لأن هذا مخصوص بقدرتهِ تعالى السامية كما أفادنا رسول الأمم بهذا الكلام فإنهُ وان يكن صلب عن ضعف لكنهُ حيٌ بقوة الله لأن قدرته الإلهية ما فارقت قط جسده في القبر ولا نفسه في الجحيم بل استمرت في كل منهما فعاد الجسد بها متهيئاً للإجتماع بالنفس وبها صارت النفس قادرة على الرجوع إلى الجسد وعلى ذلك يصح القول أنهُ عاد إلى الحياة وقام من بين الأموات بقدرتهِ وقد تنبأ داود النبي عن ذلك وهو مملوءٌ من الروح القدس بقوله: يمينهُ خلصنهُ وذراعه القدوسة (مزمور 97 عـ 1) ثم ان الرب نفسهُ قد ثبت ذلك بشهادة فمه الأقدس اذ قال: لأني أبذل نفسي لأخذها أيضاً وليس أحد يأخذها مني ولكني ابذلها باختياري ولي سلطان أن أبذلها ولي سلطان أن أخذها (يوحنا ص 10 عـ 17 و 18).

وقال لليهود أيضاً تثبيتاً لصحة تعليمهِ انقضوا هذا الهيكل وأنا أُقيمُه في ثلاثة أيام (يوحنا ص 2 عـ 19)، ولو أنهم فهموا بذلك الهيكل الفاخر المبني بالحجارة أما هو فكان يعني هيكل جسده كما اتضح من كلام الكتاب في هذا المحل نفسهِ ثم ولو قرأنا أحياناً في الأسفار الإلهية أن الآب أقام المسيح الرب من الموت

(86)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فهذا أن يعزي إليه بما أنهُ إنسان كما يعزي إليه بما أنهُ إله ما قيل من أنهُ قام بقدرته.

تاسعاً: كيف يقال أن المسيح بكر الأموات مع أننا قد عرفنا

بموتى غيره قاموا قبلهُ.

ج أن من خصائص المسيح هو أنهُ أول من أصاب شرف القيامة الإلهي لأنهُ يدعي في الكتاب المقدس البكر بين الأموات وبكر الأموات كما أفاد رسول الأمم بقولهِ لكن الحال أن المسيح قد قام من بين الأموات وهو باكورة الرافدين فكما أن الموت بانسان فبانسان أيضاً قيامة الأموات وكما يموت الجميع في آدم كذلك في المسيح سيحيى الجميع كل واحد في رتبتهِ المسيح على أنهُ باكورة ثم الذين للمسيح عند مجيئهِ (قورنتية ص 1 عـ 18)، فينبغي بلا بد تأويل هذا الكلام إلى القيامة الكاملة التي نبعث بها إلى الحياة الخالدة ويرتفع أصالة حكم الموت فللمسيح الرب المحل الأول في نوع هذه القيامة لأننا إذا تكلمنا على القيامة أي على الرجوع إلى حياة يلازمها وجوب الموت ثانية فكثيرون قبل المسيح قاموا من بين الأموات الاَّ أنهم عاشوا جميعاً على هذا الشرط وهو أنهم يلتزمون أن يموتوا ثانية أما المسيح الرب فقد قام قيامة ساديها على الموت وقهره بحيث لا يقدر أن يموت أيضاً وهذا ثابت بشهادة واضحة كل الوضوح من قول رسول الأمم اذ نعلم أن المسيح من بعد أن قام من بين الأموات لا يموت أيضاً ولا يسود عليهِ الموت من بعد (رومة ص 6 عـ 9).

(87)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

عاشراً: كيف ولأي سبب أخرّ المسيح قيامتهُ إلى اليوم الثالث.

على الراعي أن يشرح حسناً هذه العبارة الواردة في قانون الإيمان وهي: في اليوم الثالث: لئلا يتوهم المؤمنون أ، الرب مكث في القبر كل هذه الأيام الثلاثة لأنهُ لما وضع في القبر يوماً طبيعياً بتمامهِ ثم قسماً من اليوم السابق وقسماً من اليوم الثالي فيقال بكل صدق أنهُ اضجع في القبر ثلاثة أيام وأنهُ قام في اليوم الثالث لأنهُ لم يشاء أن يؤخر قيامتهُ إلى منتهى العالم كي يعلن لاهوتهُ ثم لم يقم حالاً بعد موتهِ بل في اليوم الثالث وتلك برهة كافية من الزمن لتثبيت حقيقة موتهِ كي نؤمن بأنهُ إنسان حقاً وإنهُ مات حقاً.

حادي عشر لماذا أضاف أباء المجمع القسطنطيني إلى هذا

الجزء هذه العبارة: كما في الكتب.

ان آباء المجمع القسطنطيني قد أضافوا هنا هذه العبارة كما في الكتب: آخذاً عن قول الرسول ماربولس الذي علّم أن سرّ القيامة لازم من باب الضرورة ودونك قولهُ في رسالتهِ الأولى إلى أهل قورنتية: وان كان المسيح لم يقم فكرازتنا اذاً باطلة وإيمانكم أيضاً باطل .... وان كان المسيح لم يقم فإيمانكم باطل وأنتم بعد في خطاياكم (ص 15 عـ 14 و 17) ولهذا لما كان القديس أغوسطينس الجليل مندهشاً بالإيمان المتضمن في هذا الجزء كتب قائلاً ليس أمراً عظيماً الإيمان بأن المسيح مات لأن هذا يصدقهُ الحنفاء واليهود وكافة الأثمة أما الأمر العظيم فهو الإيمان بقيامة المسيح لأننا نؤمن أنهُ قام (في شرح المزمور 120) ومن جرا ذلك قد أكثر المسيح الرب الكلام على قيامتهِ و

(88)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

لا يكاد أن يكون خاطب تلاميذه بشأن آلامه بدون أن يأتي بذكر قيامتهِ ولذا لما قال: ان ابن الإنسان سيسلم إلى الأمم ويهزأُ بهِ ويشتم ويبصق عليه وبعد

أن يجلدوه يقتلونهُ أردف كلامهُ بقولهِ: وفي اليوم الثالث يقوم (لوقا ص 18 عـ 32 و 33)، ولما سألهُ اليهود أن يأتيهم بأية يثبت بها تعليمهُ أجابهم أنهم لا يعطون أية ألاّ أية يونان النبي فكما كان يونان النبي فكما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال هكذا يكون ابن الإنسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاثة ليال (يوحنا ص 20 عـ 16)، على أننا كي ندرك أحسن ادراك قوة هذا الجزء وفحواه يلزمنا أ، نبحث في ثلاثة أشياء وتعرفها. أولها هل كان من اللازم أن المسيح يقوم من بين الأموات ثانيها ما كان الغرض من القيامة وما غايتها ثالثها ما أتتنا بهِ من الفوائد والخيرات.

الثاني عشر: لأي سبب اقتضى من الضرورة أن المسيح

يقوم من بين الأموات.

نظراً إلى الأول لزم من الضرورة أن المسيح يقوم كي يعلن لنا عدل الله الذي كان لائقاً بهِ كل اللياقة أن يرفع قدر من حط أو شبع اهانات في سبيل طاعتهِ وقد أورد الرسول هذا السبب اذ كتب إلى أهل فيلبي قائلاً وضع نفسهُ وأطاع حتى الموت موتاً بالصليب ولهذا رفعهُ الله (ص 2 عـ 6 و 8)، ثم كي يثبت إيماننا الذي بدونه لا يمكن أن يقوم البر لأن البعث هو اقطع دليل على أن المسيح ابن الله لكونهِ قام بقدرته من بين الأموات ثم كي ينعش رجانا ويوطدهُ اذ لما قام المسيح من بين الأموات قام لنا

(89)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الرجاء في أن نقوم نحن أيضاً حيث من الضرورة أن أعضاء الرأس ينالهم حظ الرأس وعليهِ يظهر أن الرسول المعظم ختم كلامهُ بهذا التعليل في كتابته إلى أهل قورنتية وتسالونيكي وقال بطرس هامة الرسل في رسالتهِ الأولى مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي على حسب رحمتهِ الكثيرة ولدنا ثانية ارجاء حي بقيامة يسوع المسيح من بين الأموات بميراث لا يبلى ولا يفسد (ص 1 عـ 3 و 4)، وبالآخر ينبغي أن نعلم أن قيامة الرب كانت لازمة من باب الضرورة لأجل اتمام سر فدائنا وخلاصنا لأن المسيح قد انقذنا بموته من الخطايا واما بقيامته فقد أعاد إلينا الخيرات الخصوصية التي فقدناها بالخطية ولهذا قال رسول الأمم أن المسيح أسلم لأجل آثامنا وقام لأجل تبريرنا (رومة ص 4 عـ 25)،

فكما أن النوع البشري قد مات هكذا اقتضى أيضاً أن يقوم لئلاّ يفوتُهُ شيء من الخلاص.

الثالث عشر: ما الخيرات التي صدرت للإنسان

من قيامة المسيح.

نستطيع أن نعرف مما مرّ ما أوفر ما اقبلت بهِ قيامة المسيح الرب من الفوائد على المؤمنين لأننا بالقيامة نعرف الله سبحانهُ أزلياً صمداً لا يموت ومملواً مجداً وفتاكاً بالموت وبإبليس ذلك ينبغي أن نؤمن بهِ ونعتقده في يسوع المسيح بلا ريب ثم أن قيامة المسيح أولدت لنا أيضاً قيامة الجسد أما لأنها كانت سببها الفعال أو لأنهُ لابد لنا جميعاً أن نقوم على مثال الرب.

(90)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ونظراً إلى قيامة الجسد هاك شهادة رسول الأمم. لأنهُ بما أن الموت بانسان فبانسان أيضاً قيامة الأموات (قورنتية 1 ص 15 عـ 21).

لأن كل ما صنعهُ الله في سر فدائنا صرفهُ إلى الجميع بواسطة طبيعة المسيح الإنسانية كما لو كانت آلة فاعلة وعليه كانت قيامته مثل آلة يعالج بها قيامتنا غير أن قيامة الرب بما أنها غاية في الكمال يقال فيها انها مثال لقيامتنا وكما أن جسد المسيح في قيامته قد تغير إلى مجد عدم الميتوتة هكذا أجسادنا أيضاً التي كانت قبل القيامة ضعيفة ومائتة تعود بالقيامة مزدانة بالمجد وعدم الميتوتة كما قال رسول الأمم: ننتظر المخلص الرب يسوع المسيح الذي سيغير جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده (فيليبي ص 3 عـ 20)، وهذا يقال أيضاً في النفس الميتة بالخطايا التي بين الرسول بأي وجه تقدم بها قيامة المسيح مثالاً اذ قال: فدفنا معهُ في الموت حتى أننا كما أقيم المسيح من بين الأموات بمجد الآن كذلك نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة لأن اذا كنا غرسنا معهُ على شبه موته فنكون على شبه قيامته أيضاً ثم قال بعيد ذلك اذ نعلم أن المسيح من بعد أن أقيم من بين الأموات لا يموت أيضاً ولا يسود عليهِ الموت من بعد لأنهُ من حيث أنهُ مات فقد مات للخطيئة مرة وانا من حيث أنهُ يحيا فيحيا لله فكذلك أنتم أيضاً احسبوا أنفسكم أمواتاً للخطيئة أحياءً لله بربنا يسوع (رومية ص 6 عـ 9 و 10 و 11 و 12).

الرابع عشر: ما النموذجات الواجب أن نتخذها

من قيامة المسيح.

(91)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ج ينبغي علينا أن نأخذ نموذجين من قيامة المسيح أحدهما هو أننا بعد أن رحضنا دنس الخطية من نفوسنا نتخذ منهجاً جديداً لسيرتنا تتلألأُ فيهِ طهارة الآداب والنقاوة والقداسة والدعة والعدل والسماحة والتواضح والأخر هو أننا نواظب على خطة هذه السيرة بحيث لا نحيد أبداً بمعونة الله عن طريق البر التي انتهجناها فكلام الرسول لا يدل فقط على أن قيامة المسيح وضعت لنا مثالاً للقيامة بل أنها خولتنا أيضاً قوة للقيام وامدتنا بقوى وروح تثبتنا في القداسة والبر وترشدنا إلى حفظ وصاياه تعالى فكما أننا من موتهِ لا نتخذ فقط مثال الموت بالخطايا بل ننال أيضاً قوة نموت بها عن الخطايا هكذا قيامتهُ تخولنا قوة لنيل البر حتى اذا عبدنا الله سبحانهً بالتقوى والقداسة نسير بجدة الحياة التي نقوم إليها لأن الرب بقيامتهِ أتاح لنا نحن الذين كنا في ما مضى مائتين معهُ للخطية ولهذا العالم أن نقوم معهُ إلى منهاج الحياة الجديدة وتهذيبها.

الخامس عشر: بأية دلائل يستدل على أن الإنسان قام مع

المسيح بالروح.

قد أفاد رسول الأمم عما ينبغي أن نعرفهُ من دلائل هذه القيامة لأنهُ لما قال ان كنتم قمتم مع المسيح فابتغوا ما هو فوق حيث المسيح جالس عن يمين الله ابان جلياً أن التائقين إلى اقتناءِ الحياة والكرامة والراحة والغنى، حيث هو المسيح هم الذين قاموا معهُ حقاً وإذ اردف كلامه هذا بقولهِ فكروا في ما هو فوق لا في ما في الأرض وضع لنا دليلاً آخر نستطيع أن نعرف بهِ هل قمنا مع المسيح حقاً فكما أن الذوق يدل عادة على صحة

(92)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الجسد أو مرضه هكذا إذا لذّنا ل ما هو حق كل ما هو طاهر كل ما هو عدل كل ما هو مقدس وشعرنا في حسنا الباطن بلذة الأشياء السماوية كان لنا دليل قاطع على أننا قمنا مع المسيح إلى الحياة الجديدة الروحية.

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الفصل السابع

في الجزء السادس من قانون الإيمان

"صعد إلى السماء وجلس عن يمين الله الآب الضابط الكل"

أولاً: في عظمة هذا الجزء الفائقة وفي فحوى القسم الأول.

لما كان النبي داود يتأمل بروح الله صعود الرب المجيد السعيد إلى السماء دعا الجمع إلى تبجيل هذا الظفر يعظم الفرح والابتهاج قائلاً يا جميع الشعوب صفقوا بالأكف اهتفوا لله بصوت الترنيم صعد الله بهتاف (مزمور 6 عـ 2 و 6)، فمن ذلك يفهم راعي النفوس أن من الواجب عليهِ أن يفرغ أقصى جهده في شرح هذا السر ويبذل جل عنايته في أن المؤمنين يدركونهُ لا بالإيمان والعقل فقط بل يجتهدون أن يظهروه بأعمالهم وسلوكهم بقدر ما يمكنهم بمعونة الله. فنظراً إلى شرح الجزء السادس القائِم موضوعه في هذا السر الإلهي ينبغي أن نبتدي بالقسم الأول وتبين خاصة قوته وفحواه فلا ريب في أن

(93)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

المؤمنين يلزمهم أن يعتقدوا أن يسوع المسيح بعد أن أكمل وأتم سر افتدائنا صعد   
إلى السماء بما أنهُ إنسان بالنفس والجسد إذ بما أنهُ غله لم يفارق السماء قطعاً لأنهُ بلا موتهِ يلمئ كل مكان.

ثانياً: لم يصعد المسيح إلى السماء بقوة لاهوته فقط بل بقوة

ناسوتهِ أيضاً.

من المعلوم أنهُ صعد إلى السماء بقوتهِ لا بقوة آخر كإليا النبي الذي ارتفع إلى السماء بمركبة نارية أو النبي حبقوق أو فيلبس الشماس اللذين بقدرة الله حملا في الجوّ وقطعا مسافة طويلة من الأرض ولم يصعد إلى السماء بما أنهُ الله فقط بقدرة اللاهوت الضابطة الكل بل بما أنه انسان أيضاً ولو لم يمكن ذلك بقوة طبيعية الا أن تلك القدرة التي حلت بنفس المسيح الطوباوية قد استطاعت أن تحرّك الجسد إلى حيثما شاءَت والجسد الذي كان قد حاز المجد أصبح يطيع أمر النفس المحرّكة أسرع طاعة وعلى هذا النحو نؤمن بأن المسيح بما أنهُ إله وإنسان صعد إلى السماء بقدرتهِ.

ثالثاً: بأى معنى يقال في القسم الثاني من هذا الجزء أنه

جلس عن يمين الله الآب.

يجب أن نلاحظ أن هذه العبارة في القسم الثاني: جلس من عن يمين الله الآب. مستعملة على سبيل المجاز وكثيراً ما ورد في الكتاب المقدس مثل ذلك إذ يعزي لله سبحانهُ عواطف بشرية وأعضاء من باب الاستعارة تسهيلاً لفهمنا لأن الله بما أنهُ روح

(94)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

لا يمكن أن نتصوّر فيه شيئاً جسدياً ولما كان البشر يعتبرون في أحكامهم أن في الجلوس عن اليمين أعظم كرامة ويقيسون الأمور السموية على الأرضية ترتب علينا أن نعترف أنه جالس من عن يمين الله الآب لنبين أن المسيح بما أنه إنسان نال مجداً أفضل من مجد جميع الخلائق. أما لفظة جلوس في هذا المقام فلا تدل على جلسة الجسد وهيئته بل على ما أولاه الآب من السلطة الملكية والمجد السامي اللذين يتملكهما ملكاً ثابتاً وأبدياً. وقال في ذلك رسول الأمم: الذي عملهُ في المسيح حين أقامهُ من بين الأموات وأجلسهُ عن يمينه في السماوات فوق كل رئاسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يسمى ليس في هذا الدهر فقط بل في المستقبل أيضاً وأخضع كل شيءٍ تحت قدميه (أفسس ص 1 عـ 20)، فالظاهر من هذا الكلام أ، هذا المجد خاصة الرب بمفرده بحيث لا يمكن أن ينطبق على خليقة من الخلائق. ولهذا شهد الرسول في محل آخر بقولهِ: إلى مَن مِن الملائكة قال: اجلس عن يميني (عبرانيين ص 1 عـ 13).

رابعاً: لماذا ينبغي أن نكرّر على الشعب تلاوة قصة

صعود المسيح.

على الراعي أن يوسع الشرح في معنى هذا الجزء سارداً قصة الصعود التي حررها القديس لوقا البشير في الابركسيس بنظام عجيب ويجب عليهِ في شرحهِ اياها أن ينبه الشعب في بادئِ بدءٍ إلى أن باقي الأسرار جميعها تأُول إلى الصعود كانما إلى غايتها وان فيهِ كمال الأسرار جميعها وختامها.

(95)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فكما أن جميع أسرار ديانتنا أخذت مبدأها من تجسد الرب هكذا كان في صعوده ختامها. ثم ان باقي أجزاء قانون الإيمان المتعلقة بالرب يسوع تدل على ما التحق بهِ من عظيم الذل والهوان اذ لا يمكن أن يتصور في الذهن أمرٌ أذلّ واحقر من أن ابن الله اتخذ لأجلنا الطبيعة البشرية وضعفها وتألم ومات ولكن لما نعترف في الجزءِ السابق أنهُ قام من بين الأموات وهنا أنهُ صعد إلى السماءِ وجلس عن يمينِ الله الآب فلا يمكن أن يقال أجمل وأعجب من ذلك اعلاءً لمجده الأعظم وسلطانه الإلهي.

خامساً: لماذا صعد المسيح إلى السماء ولم يقم ملكه

على الأرض.

ج من بعد أن أتينا بما أتيناه من الكلام يجب على الراعي أن يبين بكل اجتهاد السبب الذي لأجله صعد يسوع المسيح إلى السماءِ فأولاً: صعد إلى السماء لأن مكان سكناه في هذا العالم الأرضي الفاني لم يعد لائقاً بجسده الذي نال مجد عدم الميتوتة بالقيامة بل السماء الأعلى والأبهى تليق له منزلاً. ثانياً: وليس فقط لكي يستولي على عرش مجده وملكهِ الذي اكتسبهُ بدمهِ بل ليهتم أيضاً بما يتعلق بأمر خلاصنا.

ثالثاً: كي يثبت فعلاً أن ملكه ليس من هذا العالم لأن ممالك العالم أرضية وفانية وتستند إلى عظمة الغنى والقدرة الجسدية وأما مملكة يسوع المسيح فليست أرضية كالتي ينتظرها اليهود بل روحية وأزلية وهو نفسهُ قد بين أن ثروته وغناه روحيان اذ نصب كرسيه في السماء حيث ينبغي أن نعتبر أن الذين

(96)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يلتمسون باجتهاد ما هو لله يتمتعون بأوفر كنوز الغنى والخيرات جميعها في ذاك الملك لأن القديس يعقوب يشهد أن الله اختار الفقراء في هذا العالم أغنياء في الإيمان وورثة الملكوت الذي وعد الله به من يحونهُ.

رابعاً: وقد شاءَ سبحانهُ بصعودهِ إلى السماءِ ان نتبعهُ إلى ذاك الوطن

السعيد بعقلنا وشوقنا. فكما أنهُ بموتهِ وقيامتهِ أعطانا نموذجاً لنموت ونقوم معهُ بالروح هكذا صعوده يعلمنا أننا فيما نحن على الأرض نرفع عقولنا وأفكارنا إلى السماء معترفين بأننا غرباء وضيوف في هذه الدنيا قاصدين وطننا وأننا أهل مدينة القديسين وأهل بيت الله وكما قال هذا الرسول نفسه: ان سيرتنا في السماوات (فيليبي ص 3 عـ 20).

سادساً: ما الاحسانات التي حصلت للبشر من

صعود المسيح.

قد بين رسول الأمم ما أفاضت بهِ جودة الله علينا من وفرة وعظمة الخيرات التي يعجز اللسان عن تعبير ما وقد سبقه إلى ذلك النبي داود مترنماً بقولهِ: صعدت إلى العلي وسبيت السبي وأعطيت عطايا للناس (مزمور 67 عـ 15).

أولاً: لأنهُ في عاشر يوم من صعودهِ أعطى الروح القدس الذي بقوتهِ وسخائِهِ ملأ قلوب تلك الجماعة من المؤمنين الحاضرين وقتئذٍ وانجز حقيقة وفعلاً تلك المواعيد العظيمة التي عبر عنها بقولهِ: الا أني أقول لكم الحق أن في انطلاقي خيراً لكم لأني ان لم

(97)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

انطلق لم يأ تِكم المُعزيّ ولكن اذا مضيت أرسلهُ إليكم (يوحنا ص 16 عـ 7).

ثانياً: وصعد أيضاً إلى السماء ليظهر الآن عنا قدام الله كما أفاد رسول الأمم (عبرانيين ص 9 عـ 24)، ولكي يقوم مقام شفيع لدى الأب بدليل ما ورد في رسالة مار يوحنا الرسول الثانية (ص 2 عـ 1)، يا بنيّ اني اكتب لكم بهذه لئلا تخطأوا وأن خطئَ أحدكم فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار وهو كفارة عن خطايانا.

ثالثاً: وبالحق ما من شيء يفرّح قلوب المؤمنين ويسرها أكثر من أن يقام يسوع المسيح وكيلاً في دعواهم وشفيعاً أزلياً في خلاصهم وهو لدى الآب الأزلي في أعلى مقام الرضى والسلطة.

رابعاً: ثم قد اعدَّ لنا مكاناً في السماء كما كان وعدنا وبما أنهُ الرأس ونحنُ أعضاؤُه أتى إلى ملك المجد السماوي على اسم جميعنا لأنهُ في صعوده إلى السماء فتح الأبواب التي كانت موصدة بخطية آدم ومهد لنا سبيلاً نتوصل بهِ إلى السعادة السماوية كما وعد تلاميذه في العشاء السرّي.

خامساً: ولكي يحقق قوله بالفعل قد أدخل معهُ في منزل السعادة الأبدية نفوس الأبرار اللواتي كان انقذهنّ من الجحيم.

سابعاً: في الفوائد التي أقبل علينا بها المسيح بصعوده إلى السماء.

إن صعود المسيح إلى السماء قد أنالنا وفرة عجيبة من المنح السماوية فأولاً: قد زاد إيماننا وفرة أجر واستحقاق لأن الإيمان هو التصديق بأمور لا تقع تحت النظر وبعيدة عن عقل البشر

(98)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وإدراكهم فلذا لو لم يفارقنا الرب لقلّ أجر إيماننا إذ أن المسيح الرب يطوب الذين لم يروا وآمنوا. ثم ان صعود المسيح إلى السماء هو من الدواعي الكبيرة لتثبيت أركان الرجاء في قلوبنا لأننا إذ نؤمن بأن المسيح الإنسان صعد إلى السماء وأجلس الطبيعة البشرية على يمين الله الآب توطد فينا الرجاء أننا نحن أيضاً بما أننا أعضاؤُه سنصعد إلى حيث هو ونتحد هناك برأسنا وقد شهد بذلك الرب نفسه إذ قال: يا أبتي ان الذين أعطيتني أريد أن يكونوا معى حيث أنا. وأخيراً قد خولّنا هذا الإحسان الفائق وهو أنهُ جذب محبتنا إلى السماء وأضرمها بنار الروح الإلهي وحقق ما قالهُ حيث يكون كنزنا هناك يكون قلبنا.

ثامناً: لم يكن مفيداً لنا أن يبقى المسيح على الأرض.

فلو بقى المسيح الرب على الأرض لكان كل فكرنا اقتصر على منظره الخارج ومسلكه ولكنا شاهدنا فيهِ إنساناً فقط أكرمنا بإحسانات وافرة وأحببناهُ محبة راضية أما بصعوده إلى السماء فقد صير محبتنا له روحية وجعلنا نحبهُ ونكرمهُ بما أنهُ إله حال كوننا نفتكر أنهُ غائب الآن عنا. وهذا نعلمهُ من مثل الرسل الذين طالما كان الرب حاضراً بينهم كانت أحكامهم فيهِ على الغالب بحسب الشعائر البشرية وقد ثبت ذلك بشهادة الرب عينهِ إذ قال: ان في انطلاقي عنكم خيراً لكم (يوحنا ص 16 عـ 7)، لأن تلم المحبة المشوبة بالنقص التي كانوا يحبون بها الرب يسوع كان يقتضي أن نكمل بمحبة إلهية وذلك بمجيء الروح القدس ولهذا قد أردف قولهُ في الحال: إذا لم انطلق لا يأتيكم المُعزّي.

(99)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

تاسعاً: في أن الكنيسة قد اتسع نطاقها وأي اتساع بعد

صعود الرب.

إن الرب يسوع على الأرض قد وسع أيضاً دائرة بيتهِ أي الكنيسة واكلاً إلى الروح القدس أن يدبرها بقوتهِ وإرشادهِ وخلف من البشر بطرس هامة الرسل راعياً لها جميعها ورئيساً سامياً عليها. ثم أعطى بعضاً أن يكونوا رسلاً وبعضاً أنبياء وبعضاً مبشرين وبعضاً رعاة ومعلمين وهكذا لا يزال وهو جالس على يمين الآب يحبو كل واحد مواهب مختلفة لأن الرسول يشهد أن كل واحد منا أعطي نعمة كقدر عطية المسيح وفي الأخر أن كل ما أوردناه فيما تقدم عن أسرار موتهِ وقيامتهِ ينبغي على المؤمنين أن يذكروه في صعوده أيضاً لأنهُ وإن كنا مديونين في خلاصنا وفدائنا لآلام المسيح الذي فتح للأبرار مدخلاً إلى السماء باستحقاقهِ مع ذلك لم يجعل لنا صعود، بمنزلة نموذج فقط نتعلم بهِ أن ننظر إلى ما فوق ونصعد إلى السماء بالروح بل منّ علينا أيضاً بقوة إلهية تقدرنا على هذا العمل.

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(100)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الفصل الثامن

في الجزء السابع من قانون الإيمان

"وسيأتي من هناك ليدين الأحياء والأموات"

أولاً: في أن للمسيح الرب ثلاث إحسانات إلى كنيستهِ

وفي فحوى هذا الجزء.

ان ليسوع المسيح ربنا ثلاث وظائف ومنح سنية يجمل بها كنيستُهُ ويبجلها وهي الافتداء والحماية والدينونة. وإذ تقرّر في الأجزاء السابقة أنهُ افتدى النوع البشري بآلامهِ وموتهِ وأنهُ بصعودهِ إلى السماء أخذ على عاتِقهِ المحاماة عنا للأبد. بقى أن نبين في هذا الجزء كونه ديّاناً.

فموضوع الكلام هنا في أن المسيح الرب سوف يدين البشر أجميعن في ذاك اليوم العظيم.

ثانياً: في مجيء المسيح إلى العالم مرتين.

قد شهدت الأسفار الإلهية بأن لابن الله مجيئيين إلى العالم. الأول لما تجسد وصار إنساناً في مستودع مريم العذراء لأجل خلاصنا والثاني لما يأتي في انقضاء الدهر يدين جميع البشر. والكتاب المقدس يدعو هذا المجيء الأخير يوم الرب وفيهِ قال

(101)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الرسول: يوم الرب سيأتي كاللص ليلاً (تسالونيكي 1 ص 5 عـ 2).

وقال المخلص نفسهُ: أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفها أحد (متى ص 24 عـ 76)، وحسبنا دليلاً على الدينونة الأخيرة شهادة رسول الأمم القائل" لأن جميعنا لا بد من أن نظهر أمام منبر المسيح لينال كل واحد على حسب ما صنع بالجسد خيراً كان أو سراً (قورنتية 2 ص 5 عـ 10)، ناهيك أن الأسفار المقدسة موعبة نصوصاً يعثر عليها الرعاة في المطالعة ليس فقط لكي يثبتوا هذه الحقيقة بل ليوضحوها أيضاً للمؤمنين بأجلى إيضاح حينئذٍ كما أن يوم الرب الأول الذي تجسد فيه لم يزل منذ بداية العالم شهياً على قلوب الجميع اذ وضعوا في هضا السر رجاء خلاصهم. هكذا بعد موت ابن الله وصعوده إلى السماء نشتاق من صميم فؤّادنا إلى يوم الرب الثاني متوقعين الرجاء السعيد وظهور مجد الله العظيم.

ثالثاً: كم مرة يجب على كل أحد أن يدان أمام منبر المسيح.

ينبغي على رعاة النفوس في شرحهم هذه المادة أن يلاحظوا زمنين فيهما يلتزم كل إنسان أن يحضر أمام المسيح الرب ويعطي حساباً عن كل أفكاره وأفعالهِ وأقوالهِ ثم يصدر عليه بحضرته حكم الديان فالأول هو حين يبارح كل منا هذه الحياة إذ في الحال والسرعة يشخص أمام محكمة الله وهناك يجري الفحص بكامل شدة العدل عن كل ما عملهُ أو قالهُ وافتكره.

وهذه يسمونها الدينونة الخصوصية أما الزمان الثاني فهو حينما يقوم الجميع معاً أمام محكمة الديان في يوم واحد ومكان واحد حيث كل إنسان على مرأى ومسمع جميع

(102)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

البشر من سائر الأجيال يطلع على ما يكون قطع عليه من القضاء والحكم فينال الناس الأشرار والكفرة من ذلك شر عقاب وعذاب أما الأخيار والأبرار فيظفرون بأعظم ثواب ومكافأة اذ تعلن سيرة كل إنسان كما كانت في هذه الحياة وهذه تدعي الدينونة العامة.

رابعاً: أي لزوم للدينونة العامة بعد الدينونة الخاصة.

ج أنهُ ما عدا الدينونة الخاصة لكل فرد من البشر على حدته من الواجب أن نبين الأسباب التي من أجلها تجري دينونة أخرى عامة لجميع الناس وذلك لما كان للناس الموتى أبناء يخلفونهم ويقتفون أثرهم أو مؤلفات أو تلامذة يتبعون نموذجاتهم وأقوالهم وأفعالهم وينتصرون لها لزم أن يزيد لأجل هذه الأشياء ثواب أولئك الموتى أو عقابهم لأن هذه المنفعة أو هذا الضرر يتصل إلى كثيرين ولا ينتهي ألاّ بنهاية العالم فكان من العدل أن يجري الفحص الكامل عن كل ما سببتهُ تلك الأقوال والأفعال جميعها صالحة كانت أو طالحة وهذا لا يتم ألاَّ بدينونة عامة لجميع البشر.

ثم أن الناس الصالحين والأشرار لم يعملوا في حياتهم ما عملوه ألاَّ بالاشتراك مع أجسادهم فينتج تمام النتج أن هذه الأعمال صالحة كانت أو صالحة تختص أيضاً بالأجساد التي كانت لها آلة فكان اذن بغاية المواقفة أن تنال الأجساد مع نفوسها ما استوجبتهُ من الثواب في المجد الأبدي أو العقاب في العذابات الخالدة وهذا لا يمكن أن يتم بدون قيامة جميع الناس من الموت ولا بدون دينونة عامة.

(103)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وأخيراً لما كان يقتضي أن يبين أنهُ لا يجري شيء في السرّاء والضرّاء الطارئتين على الأخيار والأشرار في هذه الحياة بدون فرق الاَّ يحكمه الله الغير المتناهية وتدبيره وجب عدلاً أن يترتب في الآخرة لا الثواب للصالحين والعقاب للطالحين فقط بل أن الله سبحانهُ يقطع الحكم بذلك في دينونة عامة أيضاً كي يعلن كل شيء للجميع بأوضح إعلان ويشتهر بأجلى اشتهار ولكي يسدي الجميع الحمد لعدل الله وعنايتهِ بدلاً عن ذاك التشكي الخارج عن حدود العدل الذي كان الأنام القديسون أيضاً يتشكونهُ أحياناً كعادة الناس لدى مشاهدتهم الأشرار فائزين بالثروة والكرامة في هذا العالم لأن النبي داود يقول في هذا الصدد: أما أنا فأوشكت قدماي أن تزيغا وخطواتي كادت تزل لأني غرت من السفهاء اذ رأيت سلام المنافقين (مزمور 72 عـ 2 و 3) وبعيد ذلك بقول: ان هؤلاء منافقون وهم مدى الدهر في دعة وقد ازدادوا ثروة وقلت اذاً باطلاً زكيت قلبي وغسلت كفي بالنقاء وكنت مضروباً النهار كله وأدبت من العدوات (مزمور 72 عـ 12 و 13 و 14) وقد أتى كثيرون بمثل هذا العتاب. فمن اللازم اذاً أن تجري دينونة عامة لئلا يقول الناس أن الله سبحانهُ يتخطى في صرح السماء لا يعينه أمر الأرض (أيوب ص 22 عـ 14)، فبحق تقررت هذه الحقيقة بين أجزاء الإيمان

(104)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

المسيحي الاثنى عشر لكي تتوطد عقول البشر على ركن الحق بهذا التعليم اذا خالجها ريب في عناية الله وعدله فضلاً عن أنهُ من الواجب أن الأبرار يفرحون بهذه الدينونة والأشرار يرتعدون فرقاً لكيما اذا عرف عدل الله لا يفشل الأبرار ولا يحيدون عن برهم ويرتدع الأشرار عن شرهم رهبة العقاب الذي ينتظرهم ولهذا أعلن ربنا ومخلصنا في كلامهِ في اليوم الأخير صيرورة الدينونة العامة وعلامات وقت مجيئه حتى اذا شاهدناها نفهم أن نهاية العالم قد دنت ثم لدى صعوده إلى السماء أرسل ملائكة إلى الرسل يعزونهم في حزنهم لغيابهِ بهذا الكلام: هذا يسوع الذي صعد عنكم إلى السماء هكذا سيأتي كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء (ابركسيس ص 1 عـ 11).

خامساً: ان المسيح أعطى سلطاناً على دينونة النوع البشري

بحسب طبيعتهِ الإلهية والإنسانية.

قد أفادت الأسفار المقدسة أن المسيح الرب قد أعطى أن يصنع هذه الدينونة لابما أنهُ إله فقط بل بما أنهُ إنسان أيضاً ولو كان سلطان الدينونة يعمُّ الثلاثة الأقانيم المقدسة الاَّ أنهُ يعزي إلى الابن بوجه الخصوص كما تعزي إليه الحكمة أيضاً أما كونه سوف يدين العالم بما أنه إنسان فتثبتهُ شهادة الرب القائل: كما أن الآب له الحياة في ذاتهِ كذلك أعطى الابن أن تكون له الحياة في ذاته وأعطاه سلطاناً أن يجري الحكم بما أنهُ ابن الشر (يوحنا ص 5 عـ 26 و 27).

(105)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

سادساً: لماذا لم تعزَ هذه الدينونة إلى الآب أو إلى

الروح القدس.

ج كان في غاية اللياقة أن المسيح الرب يجري هذه الدينونة لأن مدار المحاكمة على بشر يستطيعون أن ينظروا الديان بأعينهم الجسدية ويسمعوا بآذانهم ما يقطع عليهم من الحكم وبالتالي يدركون تلك الدينونة تماماً بالحواس ناهيك عن أنهُ كان من العدل والإنصاف أن ذاك الإنسان الذي شجبهُ البشر باحكام قد تناهت في الظلم والجور يعاينهُ الجميع جالساً على منبر القضاء. فالرسول بطرس زعيم الرسل بعد أن سرد أصول الديانة المسيحية بإجمالها وعلم أن اليهود قتلوا المسيح اذ علقوه على خشبة وأنه بعث حياً في اليوم الثالث أردف كلامهُ بقوله: وقد أوصانا أن نكرّر للشعب ونشهد بأنه هو الذي عينهُ الله ديانّاً للأحياء والأموات (ابركسيس ص 10 عـ 42).

سابعاً: بأية دلائل يعرف دنو الدينونة الأخيرة.

أفادت الأسفار الإلهية أن أخص العلامات السابقة الدينونة ثلاث وهي كرازة الإنجيل في العالم كلهِ والشقاق ومجيء المسيح الدجال لأن الرب قال: وسيكرز بإنجيل الملكوت هذا في جميع المسكونة شهادة لكل الأمم وحينئذٍ يأتي المنتهى (متى ص 24 عـ 14) وقد حذّرنا رسول الأمم من أن يخدعنا أحد مموهاً علينا دنو يوم الرب اذ قال: لا يخدعنكم أحد بوجه من الوجوه لأنه لا بد أن يسبق الارتداد أولاً ويظهر إنسان الخطية ابن الهلاك (تسالونيكي 2 ص 2 عـ 3).

(106)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثامناً: كيف تصير الدينونة وبأية طريقة يقطع الحكم

على الجميع.

يسهل على رعاة النفوس ان يعرفوا صورة الدينونة وطريقتها العتيدة من نبوة دانيال ثم من تعليم الإنجيل المقدس ورسول الأمم على أنهُ من الواجب في هذا المقام أن نتروى بإمعان الحكم العتيد أن يبرزه الديان لأن المسيح مخلصنا يلتفت بوجه بشوش إلى الصالحين القائمين عن يمينهِ وهكذا يبرز الحكم لهم بحنو ورأفة قائلاً: هلموا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم منذ انشاءِ العالم (متى ص 25 عـ 34).

ما أشهى هذا الكلام وما أعذبهُ على السماع ذلك يدركهُ أولئكَ الذين يقاسمونهُ بهلاك الأشرار ويفتكرون في عقولهم أن الصديقين والأبرار دعوا بهذا الكلام إلى الإنتقال من التعب إلى الراحة من وادي الدموع إلى قمة الأفراح من التعاسة إلى السعادة الأبدية التي استحقوها بأفعال المحبة.

تاسعاً: ماذا يصيب الأشرار من أنواع العقاب.

ثم يلتفت إلى أولئك القائمين عن يساره ويصب عليهم جام عدلهِ قائلاً: اغربوا عني يا ملاعين إلى النار الأبدية المعدة لابليس وجنوده (متى ص 25 عـ 41)، فلله ما أشد ما يستدل عليهِ من العذاب المزمع أن يقاسيه الأشرار باستهلال هذه الآية: اغربوا عني: اذ يطردون بعيداً عن وجه الله وما من أمل يعزيهم بأنهم فيما بعد يتمتعون بهذا الخير الأعظم وهذا ما يسميهِ علماء اللاهوت عقاب الخسران. أي أن الأثمة في جهنم يحرمون للأبد مشاهدة

(107)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

نور العزة الإلهية. وأما قوله يا ملاعين فيزيد تعاستهم ومصابهم زيادة لا توصف ولا تحد لأنهم لو طردوا من وجه الحضرة الإلهية وبقوا على الأقل مستاهلين شيئاً من البركة لعاد عليهم ذلك بسلوى عظيمة ولكن لم يكن لهم ان يتوقعوا شيئاً يخفف جرم بلواهم بل طردوا بحق وأنزل العدل الإلهي بهم كل لعنة.

عاشراً: في عذاب الحس ورفقة الهالكين.

ثم يلي قوله: إلى النار الأبدية: ذلك نوع عذاب آخر يدعوه علماء اللاهوت عذاب الحس من كونه يدرك بحواس الجسد كما في الضرب والجلد أو نوع آخر من العذابات الشديدة التي منها عذاب النار وهو بلا شك أشد عذاب وأعظم ألم يلم بالحواس ولا سيما اذا أضيف إليهِ ديمومة الزمان. فيتبين من ذلك أن عقاب الهالكين هو عبارة عن مجموع كامل العذابات ويزيد ذلك بياناً تلك العبارات الواردة في خاتمة القضاء وهي المعدة لإبليس وجنوده لأن من الأمور المجرّبة أن جميع المصائب التي تلم بنا نحتملها بأقل صعوبة أذا ظفرنا برفيق وشريك نستعين بحكمتهِ واشفاقهِ على احتمالها ولكن يرى كم تكون تعاسة الهالكين وهم لا يستطيعون أن يفترقوا أبداً عن رفقة الأبالسة الهالكين فيما يكابدونهُ من العذابات الفظيعة وبكل عدل يطلق الرب مخلصنا ذاك الحكم على الأشرار لكونهم قد أهملوا جميع أعمال التقوى الحقيقية ولم يطعموا الجيعان ولم يسقوا العطشان ولم يأووا الغريب ولم يكسوا العريان

(108)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ولم يزوروا المحبوس ولم يعودوا المريض.

الحادي عشر: من الواجب أن ذكر الدينونة يورد تكراراً

على مسامع الشعب المؤمن.

ينبغي على الرعاة أن يكثروا من ايداع هذه الأمور في مسامع الشعب المؤمن لأن حقيقة هذا الجزء المستفادة بالإيمان تقوى كثيراً على كبح جماح الشهوات النفسانية وعلى درع الناس عن المعاصي. ولهذا قيل في سفر الجامعة: اذكر عواقبك جميع أعمالك فلن تخطئ أبداً (جامعة ص 7 عـ 4).

وفي الحق قلما وجد إنسان منصباً على ارتكاب الفواحش ولا يرعوي بهذا الفكر أنهُ سوف يؤدي يوماً ما حساباً للديان العادل المقسطليس عن جميع أعمالهِ وأقوالهِ فقط بل عن أخفى خفايا أفكاره أيضاً ويعاقب عليها بما يستوجبهُ من العذاب. فمن الضرورة يزداد البار عزماً ونشاطاً في عمل البر و يتطاير فرحاً ولو قضى حياته في الفاقة والجوع والعذاب اذ يوجه باله إلى ذاك اليوم الذي فيه بعد أن يكون احتمل محن هذه الحياة الشاقة يخرج من ضمارها ظافراً على مرأىَ ومسمع جميع البشر ويدخل الوطن السماوي محفوظاً بضياءِ تلك الأمجاد الخالدة الإلهية.

فبقى إذن أن نحض المؤمنين على أن يحسنوا سيرتهم ويجدوا في عمل الصلاح كي يستطيعوا أن ينتظروا كما يليق بالبنين مجيء يوم الرب العظيم بالشوق وطمأنينة القلب.

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(109)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الفصل التاسع

في الجزء الثامن من قانون الإيمان

"أؤمن بالروح القدس"

أولاً: في لزوم الإيمان بالروح القدس وفائدته.

اننا قد بسطنا الكلام حتى الأن فيما يتعلق بالأقنوم الأول والأقنوم الثاني من الثالوث الأقدس بقدر ما يقتضيهِ مقام الموضوع.

فبقي علينا أن نأتي ببيان ما ينبئنا بهِ قانون الإيمان عن الأقنوم الثالث أعني بهِ الروح القدس. فعلى الرعاة أن يبذلوا الجهد الجهيد في بيان هذه المادة اذ لا يجوز للإنسان المسيحي أن يجهل هذا القسم أو يرى فيه رأياً حائداً عن جادة الحق والاستقامة كما لم يجزْ له ذلك في الأجزاء السابقة ولذا لم يسمح الرسول المعظم أن بعضاً من أهل أفسس يجهلون أقنوم الروح القدس اذ لما سألهم هل قبلوا الروح القدس وأجابوه أنهم لم يعلموا بوجود الروح القدس عاودهم حالاً بالسؤال: فإذاً باسم من اعتمدتم. فدلّ بهذا الكلام على أنه معرفة هذا الجزء على جليتهِ هو في غاية اللزوم للمؤمنين اذ ينالون منها خاصة هذه الفائدة وهي أنهم

(110)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

اذا أمعنوا الفكر يرون أن كل ما لهم أُوتوه بمنحة الروح القدس وإحسانه ثم يلزمون خطة الدعة والاتضاع في ذواتهم ويضعون في عون الله كل رجائهم ذلك ينبغي أن يكون للإنسان المسيحي أول درجة في مراقي الحكمة والسعادة.

ثانياً: في أن كلمة الروح القدس لا تطلق على الأقنوم الثالث

من الثالثوث الأقدس بحيث يمتنع اطلاقها على غيره.

من الواجب اذاً في شرحنا هذا الجزء أن نبتدىء بما وضع من القوة والمعنى لاسم الروح القدس في هذا المعرض لأنهُ لما كان ذلك يقال بكل حق في الآب والابن أيضاً على حد سوى لأن كليهما روح وقدوس اذ نعترف بأن الله روح ثم يشار أيضاً بهذا الاسم إلى الملائكة ونفوس الأبرار وجب الحذر من أن الشعب ينقاد إلى الضلال بالتباس الاسم ولذا ينبغي أن نعلم في هذا الجزء أن المفهوم باسم الروح القدس الأقنوم الثالث من الثالوث الأقدس كما ورد في بعض مواضع من العهد العتيق وفي عدة محال من العهد الجديد. فداوود النبي يبتهل إلى الله تعالى بقولهِ:

روحك القدوس لا تنزعه مني (مزمور 50 عـ 14) وقرأنا في سفر الحكمة: من علم مشورتك لو لم تؤتِ الحكمة وتبعث روحك القدوس من الأعالي (ص 9 عـ 17)، وفي محل آخر: هو خلقها بروح القدس (ابن سيراخ ص 1 عـ 9).

أما في العهد الجديد فقد أمرنا الرب يسوع أن نعمد باسم الاب والابن والروح القدس (متى ص 28 عـ 19)

وقرأنا أيضاً أن البتول الكلية القداسة حبلت من الروح القدس (لوقا ص 1 عـ 25)، ثم يوحنا أرسلنا إلى المسيح ليعمدنا بروح القدس (يوحنا ص 1 عـ 33)، وفي محال أخرى كثيرة يعثر المطالع على هذا الاسم.

(111)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثالثاً: لماذا لم يعطَ الأقنوم الثالث من الثالوث اسماً خاصاً

كالأقنومين الأخرين.

ج ما من عجب في أن الأقنوم الثالث لم يخص باسم كالأقنوم الأول والأقنوم الثاني لأن الأقنوم الثاني اتخذ اسماً خاصاً ودعي الابن لكون صدوره الأزلي من الأب يسمى ولادة كما تبين في الأجزاءِ السابقة فلما دل اسم ولادة على هذا الصدور صح أن الأقنوم الصادر يدعي الابن والصادر عنهُ الأب.

ولما لم يوضع اسم خاص لصدور الأقنوم الثالث بل دعى نفخة وانبثاقاً تعين أن الأقنوم الصادر أيضاً يكون بلا اسم. أما صدوره فليس لهُ اسم قط لأن الأسماءَ التي تعزى لله نلتزم إلى استعارتها من الأشياء المخلوقة فحيث لا نرى فيها وجهاً آخر لاشتراك الطبيعة والذات الاّ قوّة الولادة فلذا السبب لم نقدر أن نعبر باسم مخصوص عن الوجه الذي بهِ يشارك الله ذاتهِ بذاتِهِ بقوة المحبة ولهذا دعي الأقنوم الثالث باسم الروح وهو اسم عام ونعلم أنهُ يليق بهِ أعظم لياقة لأنهُ يسكب فينا الحياة الروحية وبدون نفخة هذا الإله القدوس لا نستطيع سبيلاً إلى أن نعمل شيئاً يستحق الحياة الأبدية.

رابعاً: ان الروح القدس هو الله ولهُ نفس ما للآب والابن

من القدرة والطبيعة بالتمام.

بعد أن بينا معنى اسم الروح القدس يجب علينا أولاً وبدءاً أن نعلم الشعب أن الروح القدس هو إله مساوٍ للآب والابن

(112)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وقادر على كل شيءٍ وأزلي وكامل بلا نهاية والخير الأعظم وحكيم للغاية وأن لهُ نفس ما للآب والابن من الطبيعة وتشير إلى ذلك بالكفاية الخاصة التي لحرف الباء في قولنا: نؤمن بالروح القدس لأنهُ يضاف إلى كل من أقانيم الثالوث الأقدس بياناً لقوة إيماننا ويثبت ذلك أيضاً نصوص الأسفار الإلهية. منها ما ورد من كلام هامة الرسل في الابركسيس:

يا حانانيا لماذا جرّب الشيطان قلبك حتى تكذب على الروح القدس وبعيد ذلك قال: لم تكذب على الناس بل على الله (ص 5 عـ 3 و 4).

فالرسول يسمي الله في كلامهِ الآخر نفس الذي دعاه الروح القدس في كلامهِ السابق. ثم رسول الأمم عبر لأهل قورنتية عن الله بكونهِ الروح القدس إذ قال: وللأعمال أنواع لكن الله واحد الذي يعمل الكل في الكل (قورنتية 1 ص 12 عـ 6)، ثم أردف كلامهُ بقوله: وهذا كله يعملهُ الروح الواحد بعينهِ موزعاً على كل واحد كيف شاءَ.

ثم ان ما نسبهُ الرسول في الابركيس إلى الروح القدس أعزته الأنبياء إلى الله الواحد لأن النبي أشعيا كان قد قال: وسمعت صوت السيد قائلاً من أرسل ومن ينطلق لنا فقلت هآنذا فأرسلني: فقال انطلق وقل لهذا الشعب: غلظ قلب هذا الشعب وثقل أذنيه وأغمض عينيه لئلا يبصر بعينيهِ ويسمع بأذنيه (اشعيا ص 6 عـ 8 و 10) فرسول الأمم أورد هذا الكلام عينه عن لسان الروح القدس أذ قال: حسناً كلم الروح القدس أباءَكم على لسان أشعيا النبي قائلاً: انطلق لهذا الشعب وقل تسمعون سماعاً ولا تفهمون وتنظرون نظراً ولا تبصرون لأنهُ قد غلظ قلب هذا الشعب الى (ابركسيس ص 28 عـ 25 و 26 و 27).

(113)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ولما كان الكتاب المقدس قد جمع بين أقنوم الروح القدس وأقنومي الأب والابن كما في صورة العماد أذ أوصى أن يعمد باسم الآب والابن والروح القدس لم يبق محل للارتياب قطعاً بحقيقة هذا السر لأنهُ اذا كان الآب الله والابن الله يتحتم علينا ضرورة أن نعترف بأن الروح القدس الله أيضاً لكونه مقترناً معهما في درجة واحدة من المجد والكرامة.

وزد على ذلك أن من يعمد باسم أي كان من المخلوقات لا ينال أدنى فائدة من عماده. قال رسول الأمم: ألعل باسم بولس اعتمدتم (قورنتية 1 ص 1 عـ 13) ليبين لهم أن ذلك لا يفيدهم شيئاً لنوال الخلاص وعليه اذ نعمد باسم الروح القدس وجب أن نعتقد أنه الله ومما يثبت لاهوت الروح القدس ذكر الثلاثة الأقانيم على التوالي في الأسفار الإلهية كما في رسالة يوحنا الرسول الأولي: الشهود في السماء ثلاثة الآب والكلمة والروح القدس وهؤلاء الثلاثة هم واحد (يوحنا 1 ص 5 عـ 7) ثم في ذاك المديح الجليل للثالوث الأقدس الذي نختم بهِ التسابيح الإلهية والمزامير الداودية قائلين: المجد للآب والابن والروح القدس. وفي الآخر من أقوى الحجج على اثبات هذه الحقيقة هو أن الأسفار الإلهية تعزي إلى الروح القدس كل ما يختص بالله ولهذا تعزى إليه كرامة إليهاً كل بدليل ما قالهُ رسول الأمم:

ألا تعلمون أن أعضاءَكم هي هيكل الروح القدس (قورنتية 1 ص 6 عـ 19).

(114)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثم التقديس والأحياء وفحص أعماق الله والتكلم بلسان الأنبياء والوجود في كل مكان كل ذلك لا يجوز أعزاؤهُ الاَّ إلى الله فقط.

خامساً: في أنهُ يجب أن نؤمن إيماناً ثابتاً أن لفظة الروح القدس

تعنى الأقنوم الثالث من الثالوث القائمِ بذاتهِ في

الطبيعة الإلهية.

ينبغي أيضاً أن نبين للمؤمنين جلياً ما عدا ما تقدم أن الروح القدس هو الله بعمنى أننا نعترف بأنهُ أقنوم الثالث في الطبيعة الإلهية ممتاز عن الآب والابن وصادر عن الإرادة لأن صورة العماد التي علمناها مخلصنا فضلاً عن نصوص أخرى من الأسفار الإلهية تبين أجلى بيان أن الروح القدس هو الأقنوم الثالث القائمِ بذاتهِ في الطبيعة الإلهية وممتاز عن الأقنومين الأخرين. وقد نص على ذلك رسول الأمم بقولهِ: نعمة ربنا يسوع المسيح ومحبة الله وشركة الروح القدس معكم أجمعين آمين (قورنتية 2 ص 13 عـ 13)، وأوضح منهُ في هذا المعنى ما أضافهُ آباء المجمع القسطنطيني الأول دحضاً لغواية مكدونيوس الكفرية في قولهم: وبالروح القدس الرب المحي المنبثق من الآب والأبن وهو مع الآب والابن يسجد لهُ ويمجد الناطق بالأنبياء فباعترافهم أن الروح القدس هو رب أعلنوا عظم سموه على الملائكة الذين هم أشرف أرواح خلقها الله أذ يشهد الرسول أنهم جميعهم خدام الروح وأرسلوا للخدمة من أجل الذين سيرثون الخلاص (عبرانية ص 1 عـ 14) ويدعونهُ محيياً لأن النفس اذا اتحدت بالله تحيا حياة أفضل من حياة الجسد باتحاده مع

(115)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

النفس ولما أفادت الأسفار الإلهية أن النفس تتحد بالله بواسطة الروح القدس تبين أنهُ بكل حق وصواب يدعي المحي.

سادساً: في أن الروح منبثق من الآب والابن كانما

من مبدأ واحد.

يلي ما تقدم "المنبثق من الآب والابن" فعلى المؤمنين أن يتعلموا أن الروح القدس منبثق من الآب والابن كإنما من مبدأ واحد انبثاقاً أزلياً لأن قانون الكنيسة الذي لا يجوز لأحد أن يحيد عنهُ قد جعل لنا هذه الحقيقة موضوعاً للإيمان وهي مثبتة بنصوص الأسفار الإلهية وأقوال المجامع لأن المسيح الرب في كلامهِ على الروح القدس يقول: هو يمجدني لأنهُ يأخذ مما هو لي (يوحنا ص 16 عـ 14)، ونستنتج ذلك أيضاً من كون الروح القدس يدعي في الكتب المقدسة تارة روح المسيح وتارة روح الآب ويقال فيهِ أنه يرسل تارة من الابن وطوراً من الآب وهذا دليل واضح على أنهُ ينبثق من الآب والابن معاً. قال رسول الأمم: ان كان أحد ليس فيهِ روح المسيح فهو ليس منهُ (رومية ص 8 عـ 9)، ويسميه أيضاً روح المسيح في كتابته إلى أهل غلاطية اذ يقول: أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم داعياً الآب أباً (ص 4 عـ 6)، وفي بشارة القديس متى يدعى روح الآب لكنكم لستم أنتم المتكلمين لكنَّ روح أبيكم هو المتكلم فيكم (متى ص 10 عـ 20)، وقال الرب يسوع في أثناءِ العشاء السري: متى جاء المعزّي الذي أرسلهُ إليكم من عند الآب روح الحق الذي من الآب ينبثق فهو يشهد لي (يوحنا ص 15 عـ 26)،

(116)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وفي محل آخر يثبت ارسال الروح من الآب بقوله: الذي يرسلهُ الآب باسمي (يوحنا ص 14 عـ 26) فمن هذه الآيات اذ نفهم انبثاق الروح القدس نتحقق أيضاً أنه ينبثق من كليهما. هذا ما ينبغي أن نعلمهُ في ما يختص بأقنوم الروح القدس.

سابعاً: لماذا يعزي إلى الروح القدس بوجه الخصوص

بعض أفعال ومواهب مع أن أعمال الثالوث الأقدس

مشتركة بين الأقانيم الثلاثة دون انقسام.

ج يجب على رعاة النفوس أن يعلموا أيضاً أن بعض أفعال عجيبة وبعض مواهب كريمة تعزي إلى الروح القدس كأنهُ ينبوع جودة وصلاح لا يجف لأن أعمال الثالوث الأقدس التي تصدر إلى الخارج وان كانت مشتركة بين الأقانيم الثلاثة يعزي قسم كبير منها خاصة إلى الروح القدس كي نفهم أنها صادرة الينا عن محبة الله لنا الغير المتناهية لأنهُ لما كان الروح القدس منبثقاً من الارادة الالهية المضطرمة بالمحبة تبين أن هذه الأفعال المنسوبة على وجه الخصوص إلى الروح القدس صادرة عن محبة الله لنا الفائقة كل حد وقياس ولهذا قد دعي الروح القدس موهبة لأن لفظة موهبة تعني ما يعطي من باب التكرم ومجاناً وبدون أدنى أمل للمكافأة وعليه فكل خير واحسان نلناه من الله (وكل ما لنا هو منهُ كقول الرسول ماذا لنا ولم نأخذه) ينبغي أن نعترف أننا أعطيناه هبة من الروح القدس وأنهُ يلزمنا أن نقرّ له بالمنة ونؤّديه الشكر.

(117)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثامناً: ما هي أفعال الروح القدس وكم هي

أفعالهُ كثيرة فإنه فضلاً عن خلقة العالم وحفظ باقي الأشياء

وانتشارها وتدبيرها التي ذكرناها في الجزء الأول قد ابنا آنفاً أن الحياة تعزي على وجه الخصوص إلى الروح القدس. ومما يثبت ذلك شهادة حزقيال النبي القائل: ادخل فيكِ روحاً فتحيين (ص 37 عـ 5)، وقد ذكر النبي اشعيا (ص 11 عـ 2)، اخص أعمال الروح القدس وهي روح الحكمة والفهم روح المشورة والقوة روح العلم والتقوى وروح مخافة الرب وهذه تدعى مواهب الروح القدس ويطلق أحياناً عليها اسم الروح القدس ولهذا قد أصاب القديس أغوسطينوس فيما ينبهنا إليهِ من وجوب التبصر حين نرى في الكتاب المقدس هذه اللفظة الروح القدس كي نستطيع أن نميز ما المقصود فيها هل الأقنوم الثالث من الثالوث الأقدس أو أعماله ومفاعيله لأننا نعتقد أن هذين الأمرين يختلفان اختلاف الخالق عن المخلوق وينبغي ايضاح ذلك جلياً فإننا نقتبس من مواهب الروح القدس هذه وصايا السيرة المسيحية ونقدر أن نعرف أن الروح القدس حال فينا. واسمى مواهبهِ الغزيرة تلك النعمة الوسيمة التي تصيرنا أبراراً وتسمنا بروح الموعد القدوس الذي هو عربون ميراثنا لأنها تعصم عقلنا بالله برباط المحبة الوثيق فيتأتى من ذلك أن تتوقد فينا نار رغبة شديدة في التقوى فنستسير سيرة جديدة ونصير شركاء الطبع الإلهي فندعى أبناء الله ونكون حقاً كذلك.

(118)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الفصل العاشر

في الجزء التاسع من قانون الإيمان

"نؤمن بالكنيسة المقدسة الجامعة وبشركة القديسين"

أولاً: في الأسباب التي لأجلها ينبغي أن يعاد شرح هذا الجزء

التاسع على المؤمنين بأوفر تكرار

ان الرعاة يمكنهم أن يعرفوا بسهولة ما أعظم ما ينبغي أن يبذلوه من العناية في سبيل ايضاح حقيقة هذا الجزء التاسع للمؤمنين اذا تروّوا خاصة بأمرين أولهما أن الأنبياء كما شهد القديس أغوسطينوس تكلموا في الكنيسة كلاماً أوضح وأفصح من كلامهم في المسيح لأنهم نظروا بروح النبوة أن الذين ينقادون إلى الضلال والغواية في هذا الأمر هم أكثر كثيراً ممن يضلون في سر التجسد وأنه سوف يكون قوم كفرة يتشبهون بالقرد الذي يمثل الإنسان فيدعون أنهم وحدهم كاثوليكيون ويزعمون باطلاً وتكبراً أن الكنيسة الجامعة الكاثوليكية هي عندهم فقط دون غيرهم. ثانيهما من تمسك بعروة هذه الحقيقة الوثقى هان عليهِ أن يفرّ من خطر الأرطقة الفظيع لأن ليس من أخطأَ في الإيمان يدعى اراطيقياً بل من رذل سلطان الكنيسة وتشبث في عقلهِ من

(119)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

باب العناد بآراء ذات ضلال وحيث لا يتوقع أن يصاب أحد بوباءِ الأرطقة اذا اعتقد ما يقدم له في هذا الجزء ليعتقده. فعلى الرعاة أن يبذلوا الجد والعناية في أن يعرف المؤمنون هذا السر ويتمنطقوا بسلاح هذه المعرفة لقاء مكائد الأراطقة وحيلهم فيثبتون على حقيقة الإيمان ثم ان هذا الجزء يتعلق بما قبله اذ اثبتنا فيهِ أن الروح القدس هو ينبوع القداسة ومانحها والآن نعترف أن الكنيسة قد نالت منهُ القداسة.

ثانياً: ماذا يفهم باسم الكنيسة على وجه العموم والخصوص

ج ان اسم الكنيسة "اكليسيا" مأخوذ عن اللغة اليونانية وبعد انتشار الإنجيل أطلق على الأشياء المقدسة فعلينا أن نبين فحواه فنقول أن اكليسيا معناه في الأصل الاستدعاء وقد استعملهُ الكتبة فيما بعد على المجمع أو الجماعة ولا فرق في أن يكون الشعب المجتمع عابد الله الحق أو صاحب ديانة كاذبة لأنهُ جاء في الابركسيس: ان الكاتب لما سكن روع الجمهور في أفسس قال ان كنتم تطلبون أمراً آخر فإنهُ يفصل بينكم (في اكليسيا اي) في مجمع شرعي (ابركسيس ص 19 عـ 39) فقد سمى شعب أفسس مجمعاً شرعياً مع كونهم منعكفين على عبادة ضم ديانا وليس الأمم فقط التي لم تعرف الله تدعى كنيسة بل تدعى كذلك أحياناً مجتمعات الأقوام الأشرار المنافقين كما قال داود النبي: ابغضت مجمع الأشرار ومجالس المنافقين (مزمور 25 عـ 5)، (حيث يعبر بكلمة اكليسيا عن المجمع) على أنه قد غلب اصطلاح الكتاب المقدس على أن يعبر بهذا الاسم عن جماعة المسيحيين لا غير الذين دعوا إلى نور الحق وإلى

(120)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

معرفة الله بالإيمان اذ نبذوا ظلام الجهل والضلال واقبلوا إلى عبادة الله

الحق الحي بورع وقداسة من كل قلوبهم. وخلاصة الكلام ان الكنيسة هي على ما قال الجليل اغوسطينوس الشعب المؤمن المنتشر في أربعة أقطار المسكونة.

ثالثاً: في ما يجب بيانهُ من الأسرار المتضمنة في لفظة كنيسة

ان هذه اللفظة تتضمن أسراراً عظيمة لأن الاستدعاء المعبر بهِ عن الكنيسة يبين لنا عذوبة النعمة وبهائها ويفهمنا أن الكنيسة تختلف أعظم اختلاف عن سائر الجماعات البشرية لأن هذه تستند على عقل البشر وحكمتهم، أما الكنيسة فهي مبنية على حكمة الله ومشورتهِ لأن الروح القدس قد دعانا إليها بإلهامهِ الباطن وهو يفتح قلوب البشر ودعانا في الخارج بعناية الرعاة وارشاد الواعظين. ثم من هذه الدعوة نعرف أحسن معرفة تلك الغاية المقرّرة لنا حتماً أي معرفة الأمور الأبدية وامتلاكها ويتضح ذلك جلياً لكل من ينتبه إلى السبب الذي من أجلهِ لم يدعَ الشعب المؤمن القائِم تحت الناموس القديم اكليسيا بل سيناكوغا اي محشد، فالقديس اغوسطينوس يعلن أن هذا الاسم اطلق عليهِ لأنهُ كان يتوقع فقط الخيرات الأرضية الفانية كقطعان البهائمِ التي هي أولى بأن تتجمع طلباً لهذه الخيرات الزائلة. أما الشعب المسيحي فبحق وصواب يدعى اكليسيا لا سيناكوغا اي كنيسة لا محشداً لأنهُ يرذل الأشياء الأرضية الزائلة ويسير في أثر الأمور السماوية الدائمة.

(121)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

رابعاً: بأي أسماء تعبر الأسفار المقدسة عن جماعة المسيحيين

ان الأسفار المقدسة تطلق على جماعة المسيحيين أسماء كثيرة موعبة أسراراً فلوقا البشير يكنيهم ببيت حيث قال: يشبه رجلاً بنى بيتاً وحفر وعمق ووضع الأساس على الصخر (ص 6 عـ 48) ورسول الأمم ببيت الله بدليل قولهِ إلى تلميذه تيموتاوس: وان كنت أبطأت فلتعلم كيف ينبغي أن تتصرف في بيت الله الذي هو كنيسة الله الحي عمود الحق وأساسه. وقد دعيت الكنيسة بيتاً لأنها أشبه بعائلة واحدة لأن لها أباً واحداً يدبرها وفيها شركة جميع الخيرات الروحية. وتسمى أيضاً حظيرة قطيع الرب الذي هو بابها وراعيها (يوحنا ص 10 عـ 1 و 2).

وتكنى أيضاً بعروسة المسيح بدليل قول الرسول إلى القورنتيين:

خطبتكم لرجل واحد لأقدم للمسيح بكراً عفيفة (ص 11 عـ 2) والى أهل أفسس: أيها الرجال أحبوا نساءَكم كما أحب المسيح بيعتهُ ( ص 5 عـ 25).

ثم قوله في الزيجة هذا السر لعظيم وأقول ذلك في المسيح وكنيسته (أفسس ص 5 عـ 32) وتدعى جسداً كما يرى ذلك في رسالتي رسول الأمم إلى أهل أفسس وقولوسايس (ص 1 عـ 22 ص 1 عـ 24).

وكل واحدة من هذه الكنى جديرة بأن تخض المؤمنين على أن يتأهلوا لرأفة الله وجودته العميمة التي اصطفتهم ليكونوا شعباً مقدساً.

خامساً: في أن الكنيسة قسمان خصوصيان أحدهما الكنيسة

المنتصرة والآخر الكنيسة المجاهدة

بعد أن ابنا ما أبناه اقتضى أن نذكر كلاً من أقسام الكنيسة ونبين ما

(122)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يوجد بينها من الفرق كي يدرك الشعب أحسن ادراك جوهر الكنيسة العزيزة لديه تعالى وخاصاتها ومواهبها ونعمها ولهذا السبب لا يفتر أبداً فيحمل على أن يسبح اسم الله بلا فتور. فالكنيسة قسمان خاصة احدهما الكنيسة المنتصرة والآخر الكنيسة المجاهدة.

فالمنتصرة هي جماعة الأرواح الطوباوية السعيدة وأولئكَ الذين غلبوا العالم والجسد والشيطان الرجيم وخرجوا من ضيقات هذه الحياة معتوقين فائزين يرتعون في بحبوحة السعادة الأبدية. أما المجاهدة فهي جماعة كل المؤمنين الذين لم يزالوا عائشين على الأرض ويسمون مجاهدين لكونهم يحاربون على الدوام أعداء تفاقم شرهم وهم العالم والجسد والشيطان.

سادساً: في أن الكنيسة المجاهدة والكنيسة المنتصرة هما واحدة

فلا يعد مع ذلك هذان القسمان كنيستين بل كنيسة واحدة، فكما تقدم القول أن بعضها سبق وبلغ الوطن السماوي وبعضها لا يزال حياً في هذا العالم إلى أن يتحد يوماً ما مع مخلصنا ويستريح في اخدار السعادة الأبدية.

سابعاً: ان في الكنيسة المجاهدة صنفين من البشر

اى الأخيار والأشرار

الكنيسة المجاهدة تشتمل على صنفين من البشر أعني بهما الأخيار والأشرار. فاأشرار يشتركون في الأسرار ذاتها ويتمسكون بنفس الإيمان الذي يتمسك بهِ الصالحون غير أنهم يختلفون عنهم سيرة واداباً فالصالحون في الكنيسة هم الذين لا يتمسكون فقط بالإيمان وشركة الأسرار بل يتحدون فيما بينهم

(123)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

أيضاً بروح النعمة ورباط المحبة ويقال فيهم: عرف الرب خاصتهُ (تيموتاوس 2 ص 2 عـ 10) وقد يتيسر للبشر من بعض دلائل أن يحكموا بالحدس على من ينضمون إلى عدد هؤلاء الأبرار لأنهم لا يستطيعون أن يعرفوهم بحكم قطعي فلا تحسبنّ اذن أن مخلصنا عنى هذا القسم من الكنيسة حينما ارجعنا إلى حكمها وأمرنا بطاعتها لأن هذه غير معروفة وعليه فلا نعود نقدر أن نعرف إلى حكم من ينبغي الإلتجاء ولا لأمر من تجب الطاعة.

فالكنيسة اذاً تتألف من الأخيار والأشرار كما تشهد الأسفار الإلهية وكتب الأنام القديسين وبهذا المعنى كتب الرسول المعظم قائلاً:

جسد واحد وروح واحدة (أفسس ص 4 عـ 4).

ثامناً: ان الكنيسة منظورة وتحتوي في حضنها الأخيار

والأشرار

ان هذه الكنيسة معروفة وقد شبهت بمدينة مبنية على جبل حيث تشاهد من كل جهة فلما كان الجميع يلتزمون بطاعتها تعين بلا بد أن تكون معروفة ولا تحتوي الأخيار فقط بل الأشرار أيضاً كما أفادنا الانجيل المقدس بأمثال كثيرة مكنها أن ملكوت السماء أي الكنيسة المجاهدة تشبه شبكة القيت في البحر (متى ص 13 عـ 47)، أو حقلاً زُرع فيه الزوان أو بيدر يحتوي القمح من التبن (متى ص 3 عـ 12) أو عشر عذارى، خمس منهنّ حكيمات وخمس جاهلات (متى ص 25 عـ 2) وقبل ذلك باحقاب عديدة مثلت الكنيسة بسفينة نوح التي كانت تحتوي ليس الحيوانات

(124)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الطاهرة فقط بل النجسة أيضاً. ثم ولو حقق الإيمان الكاثوليكي وثبت أن الصالحين والطالحين بختصون بالكنيسة الا أنهُ من الواجب أن نبين للمؤمنين من نفس قواعد الإيمان هذه أن الفرق عظيم بين حالة كلتا الفئتين فإن الأشرار يخالطون الأبرار في الكنيسة كما يختلط التبن بالحنطة في البيدر وكما تجتمع الأعضاء الميتة على الأعضاء الحية في الجسد.

تاسعاً: من هم الخارجون عن تخوم الكنيسة المجاهدة.

ثلاثة أصناف فقط من البشر خارجون عن حضن الكنيسة.

أولاً الغير المؤمنيم. ثانياً الأراطقة والمشاقون. ثالثاً المحرومون.

فالأولون هم الذين ما دخلوا الكنيسة قط ولم يعرفوها قطعاً ولا اشتركوا في سر من أسرارها مع الشعب المسيحي.

اما الأراطقة والمشاقون فهم الذين انفصلوا من الكنيسة ولم يعودوا يختصون بها كما أن الجنود الذين انهزموا من العسكر لا يحسبون من عداده ومع ذلك لا ينكر أنهم لهم يزالوا تحت سلطان الكنيسة فلها أن تستدعيهم إلى الحكم وتعاقبهم وتطعنهم بسيف الحرم.

ثم المحرومون وهم المطرودون من الكنيسة بحكم سلطانها فلا يختصون بشركتها إلى أن يرعووا عن غيهم.

أنا من بقي من الناس الآثمة الأشرار فبلا شك أنهم مستمرُّون في الكنيسة وعليه فينبغي أن يعرف المؤمنون ذاك لكيما يكونوا على يقين من أن البعض من الرؤساء وأن اتفق ان كانت سيرتهم أثيمة فلا يزالوان باقين في الكنيسة ولم ينقص شيء من سلطانهم.

(125)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

عاشراً: في اختلاف معاني اسم الكنيسة

قد جرى الاصطلاح في أن أقسام الكنيسة كلها تسمى كنيسة كما يدعو رسول الأمم: كنيسة القسم الذي في قورنتية (قورنتية 1 ص 1 عـ 16)، وفي تسالونيكي (تسالونيكي 1 ص عـ 1) ثم عيال المؤمنين أيضاً يسميها كنائس لأنهُ يأمر باهدا السلام إلى برسكا واكيلا وبرسكا مع الكنيسة التي في بينهما (رومة ص 16 عـ 3 و 5) ومثلهُ يقول في محل آخر : تسلم عليكم كنائس آسيا يسلم عليكم في الرب كثيراً اكيلاً وبرسكا مع الكنيسة التي في بيتهما (قورنتية 1 ص 17 عـ 19) وكتب الى فيلمون في هذا المعنى نفسهِ وأحياناً يعبر باسم الكنيسة أيضاً عن رؤسائها ورعاتها بدليل قول المخلص: فإن لم يسمع منك قل للكنيسة (متى ص 18 عـ 17) فيعني في هذا المحل رؤساءَ الكنيسة. ويسمى كنيسة أيضاً المحل الذي يجتمع فيهِ الشعب للصلاة أو لسماع الوعظ أو لشيءٍ ما مقدس.

أما المفهوم من اسم الكنيسة في هذا الجزء وعلى وجه الخصوص فهو جماعة الأخيار والأشرار والرؤساء والمرؤُوسين.

الحادي عشر: في علامات الكنيسة الحقيقية وأولاً في وحدتها.

ينبغي أن يبين للمؤمنين علامات هذه الكنيسة التي بها يستطيع أن يعرف ما نالهُ من جزيل احسان الله وأولئك الذين أنعم عليهم أن يولدوا ويربوا في حضنها فالعلامة الأولى اذاً المحررة في قانون الآباء هي كونها واحدة.

قال الحكيم: حمامتي كاملتي وحيدة (نشيد ص 6 عـ 8).

(126)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وتدعى واحدة تلك الجماعة الكبيرة من البشر الممتدة شرقاً وغرباً للأسباب التي أوردها الرسول المعظم إلى أهل أفسس لأنهُ يبشر بأن الرب واحد والإيمان واحد والمعمودية واحدة (أفسس ص 4 عـ 5).

ولأن راعيها ومدبرها واحد غير منظور وهو المسيح الذي أقامهُ الآب الأزلي رأساً على جميع الكنيسة التي هي جسده ورأس واحد منظور وهو الجالس على السدة الرومانية خليفة بطرس هامة الرسل الشرعي.

الثاني عشر: ما القول في الحبر الروماني رأس كنيسة

المسيح المنظور

قد أجمع الآباء جميعهم رأياً وحكماً أن هذا الرأس المنظور قد أقيم من باب اللزوم لقيام وحدانية الكنيسة وحفظها ذلك نظره جلياً وكتبهُ صريحاً القديس أبرونيموس دحضاً ليوفنيان بهذا الكلام: يختار واحد ليكون رأساً منعاً لأسباب الشقاق. وغلى البابا داماسوس قائلاً: فليذهب الحسد ولينصرف جانباً طماح السمو الروماني حين أخاطب خليفة الصياد وتلميذ الصليب فأنا لا اتبع أحداً الاَّ المسيح أ,لاً ثم اتمسك بقداستكم أي بكرسي بطرس واعرف أن الكنيسة قد بنيت على تلك الصخرة.

فكل من يأكل الخروف خارجاً عن هذا البيت فهو نجس ومن لم يكن في سفينة نوح هلك بالطوفان وقد اثبت ذلك قبلهُ بأزمنة القديس اريناوس والقديس كبريانوس الذي قال في وحدة الكنيسة قد خاطب الرب بطرس قائلاً: أنا أقول لك يا بطرس أنت هو الصخرة وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي.

(127)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فعلى واحد بنى الكنيسة ولو أنهُ بعد قيامتهِ خوَّل الرسل جميعهم سلطاناً متساوياً وقال: كما أرسلني الآب أنا أرسلكم اقبلوا الروح القدس الاَّ أنهُ كي يبين وحدة الكنيسة جعل بسلطانهِ أصل نشأتها من واحد إلخ. ثم قال أوبتاتوس الميلاني في كتابتهِ إلى برمينيانوس: لا يمكن أن يعزى اليك الجهل وأنت تعلم أن في مديمة رومة قد أقيم أولاً الكرسي الأسقفي لبطرس الذي قام فيهِ رأساً على جميع الرسل كي يحفظ الجميع فيدِ وحده وحدة الكرسي لئلا يقيم كل من باقي الرسل كرسياً على حدة فيصبح اراتيكياً ومشاقاً من يقيم كرسياً آخر يعارض الكرسي الوحيد ثم من بعده القديس باسيليوس كتب قائلاً: قد وضع بطرس أساس الكنيسة لأنهُ قال أنت المسيح ابن الله الحي واسمعهُ الرب أنهُ هو الصخرة فبطرس صخرة لكنهُ ليس بصخرة كالمسيح لأن المسيح هو الصخرة الغير المتزعزعة حقاً وأما بطرس فبالنسبة إلى هذه الصخرة لأن يسوع يهب مقاماته لغيره.

فهو كاهن يصنع كهنة وهو صخرة يصنع صخرة وهو يعطي عبيده ما لهُ وقال القديس امبروسيوس: قد فضل على الجميع (سمعان بن يونا) لأنهُ وحدهُ بين الجميع اعترف بلاهوت المسيح.

الثالث عشر:كيف تحتاج الكنيسة إلى رأس منظور

غير المسيح

اذا اعترض أحد بقولهِ أن الكنيسة تستكفي بيسوع المسيح رأساً لها وعروساً ولا حاجة لها إلى آخر فأجيبهُ على الفور. ان المسيح الرب ليس هو مبدعاً لكل من الأسرار فقط بل متممها أيضاً في الباطن فهو الذي يعمد وهو الذي يحل من الخطايا (يوحنا ص 1 عـ 33)، (مزمور 43 عـ 26).

(128)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ومع ذلك قد أقام خداماً للأسرار أناساً منظورين هكذا قد أقام بسلطانهِ للكنيسة التي يدبرها بالروح باطناً نائباً وخادماً من البشر لأنه الكنيسة المنظورة تحتاج إلى رأس منظور فمخلصنا أقام بطرس رأساً وراعياً لجميع المؤمنين لما سلمهُ بكلام مطلق خرافه ونعاجه ليرعاها (يوحنا ص 21 عـ 45) بحيث أراد أن من يخلفهُ يتقلد نفس هذا السلطان على إدارة الكنيسة وسياستها.

الرابع عشر: في إيراد حجج أخرى تبين وحدة الكنيسة.

قال رسول الأمم لأهل قورنتية في رسالته الأولى (ص 12 عـ 11) ان الروح واحد بعينهِ يولي المؤمنين النعمة كما تولى النفس حياة لأعضاء الجسد ويحض الأفسوسيين على حفظ هذه الوحدة بقولهِ: ومجتهدين في حفظ وحدة الروح برباط السلام فإنكم جسد واحد وروح واحد (أفسس ص 4 عـ 3 و 4) فكما أن الجسد البشري يتألف من أعضاء كثيرة وتحبيها نفس واحدة تخوّل النظر للعينيين والسمع للأذنين وقوى مختلفة لباقي الحواس هكذا جسد المسيح السرّي الذي هو الكنيسة يتألف من مؤمنين كثيرين.

ثم أن الرجاء الذي دعينا إليهِ واحد كما شهد الرسول في هذا المحل (أفسس ص 4 عـ 4) لأن جميعنا نرجو شيئاً واحداً إلى الحياة الأبدية السعيدة. ثم الإيمان واحد الذي يجب علينا أن نتمسك بعروتهِ الوثقى ونوثره على كل أمر سواه. قال الرسول المعظم: لا يكون بينكم شفاق فالمعمودية واحدة التي هي سر الإيمان المسيحي.

(129)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الخامس عشر: في علامة الكنيسة الثانية وهي القداسة

خاصة الكنيسة الثانية هي القداسة وقد استفدنا ذلك من قول مار بطرس هامة الرسل اذ قال: وأما أنتم فجيل مختار... وأمة مقدسة (بطرس 1 ص 2 عـ 9) وتدعى مقدسة لأنها مكرسة وموقوفة لله. لأن باقي الأشياء المكرسة والموقوفة لعبادة الله تدعى مقدسة عادة وان كانت جسدية ومثلها في الناموس القديم الآتية والملابس والمذابح ثم الابكار الذكور الذين كانوا يكرسون لله العلي دعوا مقدسين.

فما من عجب اذاً في أن الكنيسة تدعى مقدسة ولو حوت خطأَة كثيرين.

اذ يدعى مقدسين أولئك المؤمنين الذين صاروا شعباً لله أو كرسوا ذواتهم للمسيح بقبولهم الإيمان والمعمودية ولو عثروا بكثير ولم ينجزوا ما وعدوه. كما أن من يمارسون صنعة يدعون أربابها ولو لم يحفظوا أصولها. ولهذا يسمى رسول الأمم أهل قورنتية قديسين ومقدسين مع أنهُ كان بينهم كما لا يخفي أناس زناة وبّخهم توبيخاً شديداً على ارتكابهم مثل هذا الفجور.

وتدعى أيضاً الكنيسة مقدسة لأنها متحدة كالجسد بالمسيح الرب رأسها المقدس ينبوع كل قداسة ومنهُ تفيض عليها مواهب الروح القدس وكنوز الجود الإلهي. وما أحسن ما قالهُ القديس أغوسطينوس في تفسيره آية داود النبي : احفظ نفسي لأنني قدوس. قال لا بأس على جسد المسيح لا بأس على ذاك الإنسان الواحد الهاتف من أقاصي الأرض أن يقول مع رأسهِ وتحت رأسهِ: انني قدوس لأنهُ نال نعمة القداسة نعمة المعمودية وغفران الخطايا. وبعيد ذلك قال: ان كان المسيحيون بأجمعهم

(130)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

والمؤمنون أصطبغوا بالمسيح فقد لبسوا المسيح كما قال رسول الأمم: انكم أنتم جميعكم الذين اصطبغتم بالمسيح فالمسيح لبستم فإن كانت الأعضاء صارت أعضاء جسد المسيح فمن يقولون أنها ليست مقدسة يوقعون اهانة بالرأس نفسهِ الذي أعضاؤهُ مقدسة. ثم تدعى الكنيسة مقدسة لأنها وحدها تقدم الذبيحة تقديماً قانونياً وتستعمل الأسرار استعمالاً خلاصياً وهي كأدوات فعالة للنعمة الإلهية يصنع الله بها القداسة الحقيقية وعلى هذا المنوال لا يمكن أن يكون قديساً من كان خارجاً عن هذه الكنيسة. فقد اتضح اذن أن الكنيسة مقدية حقاً أنها جسد المسيح فتتقدس بهِ وتتطهرّ بدمهِ.

السادس عشر: لماذا تدعى كنيسة المسيح كاثوليكية

خاصة الكنيسة الثالثة هي كونها تدعى كاثوليكية أى عامة وبحق وصواب دعيت بهذا الاسم لأنهُ كما شهد الجليل أغوسطينوس: من مشرق الشمس إلى مغربها بسطع نور إيمان واحد لا كما في المحاشد العالمية ومجامع الأرطقة تتحيز الكنيسة ضمن تخوم مملكة واحدة أو قبيلة واحدة من البشر بل أنها تحوى في حضن المحبة جميع الناس سواءً كانوا برابرة أو تتراً أو عبيداً أو أحراراً أو ذكوراً أو إناثاً وعليهِ ورد في سفر الرؤيا: افتديتنا لله بدمك من كل قبيلة ولسان ومن كل شعب وأمة وجعلتنا لأهلنا ملكوتاً (ص 5 عـ 9 و 10) وقال النبي داود في الكنيسة سلني فأعطيك الأمم ميراثك وأقاصي الأرض ملكاً لك (مزمور 2 عـ 8)، وفي محل آخر: اذكر رهب و بابل بين الذين يعرفونني (مزمور 86 عـ 4).

(131)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثم ان جميع المؤمنين الذين وجدوا من آدم إلى هذا اليوم والذين سوف يوجدون طالما بقى العالم متمسكين بالإيمان الحق يختصون بهذه الكنيسة عينها التي بنيت على أساس الرسل والأنبياء (أفسس ص 2 عـ 20) الذين اقيموا وأسسوا بأجمعهم على المسيح حجر الزاوية الذي جعل الخصلتين واحدة وبشرّ بالسلام القريبين والبعيدين (أفسس ص 2 عـ 17) ويقال فيها أيضاً أنها كاثوليكية لأن جميع الذين يتوقون إلى نوال الخلاص لزمهم أن يعتصموا بها ويعتنقوها اذ ليس خلاص خارجاً عنها كما علم القديس قبريانوس والجليل أغوطسينوس كما أن الذين أرادوا النجاة من الغرق بمياه الطوفان دخلوا سفينة نوح. فهذه العلامة إذن هي بمنزلة قاعدة وثيقة راهنة تتميز بها الكنيسة الصحيحة الحقيقية من الكنيسة الكاذبة.

السابع عشر: لأي سبب تدعى كنيسة المسيح أيضاً رسولية.

ثم نعرف حقيقة الكنيسة من أصلها الصادر عن الرسل بنعمة الوحي الإلهي لأن تعليمها حق وليس بحديث ولا هو في بداية ظهوره بل قد استلمناه من الرسل منذ القديم وبث في أربعة أقطار المسكونة وعليهِ فلا ريب أن تعاليم الأراطقة الكفرية هي قاصية عن إيمان الكنيسة الحقيقية لأنها تعارض تعليم الكنيسة الذي بشرّ بهِ الرسل إلى هذا اليوم ومن ثم قد أضاف آباء المجمع في قانون الإيمان هذه العبارة: رسولية كي يطلع الجميع على أصل الكنيسة الكاثوليكية فإن الروح القدس مدبر الكنيسة وسائسها لا يدبرها الاَّ على يد رعاة اتصل إليهم التعليم من الرسل لأن

(132)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الروح القدس قد أعطي للرسل أولاً وما برح مستمراً في الكنيسة على الدوام بفضل الله وجوده.

الثامن عشر: في أن الكنيسة لا يمكن أن تغلط في ما تعلمهُ

من قضايا الإيمان والآداب

كما أن هذه الكنيسة الواحدة معصومة عن الغلط في ما تعلمهُ من الإيمان ورسوم الآداب لكون الروح القدس يدبرها. هكذا بالعكس كل جماعة سواها تنتحل لنفسها اسك كنيسة بما أنها ترتشد بروح ابليس خزاه الله تعمه بلا بد في اخبث الأضاليل وارذلها.

التاسع عشر: اية رموز في العهد العتيق تشير خاصة إلى

كنيسة المسيح

لما كانت الرموز في العهد العتيق ذات قوة عظيمة في انعاش قلوب المؤمنين والاقبال بها الى ذكر ما تناهى حسناً وجمالاً من الأمور فلأجل ذلك خاصة قد عولت عليها الرسل فينبغي على الرعاة أن لا يصرفوا النظر عن فرع هذا التعليم المشتمل على فوائد جمة ومما اشتهر من تلك الرموز اشارة إلى الكنيسة إنما هو سفينة نوح التي إنما صنعت بأمر الله لهذا الغرض فقط وهو دفع كل ريب في كونها رمزاً عن الكنيسة التي شادها الله كي يأمن خطر الموت الأبدي كل من يدخلها بواسطة المعمودية أما الخارجون عنها فيختنقون في لجج آثامهم كما جرى لأولئك الذين لم يقبلوا في سفينة نوح. والرمز الآخر هو مدينة

(133)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

أورشليم التي كثيراً ما يشير الكتاب المقدس باسمها إلى الكنيسة المقدسة.

فإن فيها وحدها كان جائزاً تقديم الذبائح والقرابين لله لأن العبادة الحقة والذبيحة الحقيقة المرضية لله إنما هي في كنيسة الله وحدها لا خارجاً عنها.

العشرون: من أي وجه يختص الاعتقاد بالكنيسة

بأجزاء الإيمان

ينبغي أيضاً في هذا المحل أن نبين من أي وجه يختص الاعتقاد بالكنيسة بأجزاء الإيمان لأنهُ ولو درى كل أحد بعقلهِ وحواسه وجود الكنيسة في العالم أي جماعة المؤمنين الذين خصصوا ذواتهم وكرسوها للمسيح الرب ولا حاجة إلى مساعدة الإيمان لإدراك هذا الأمر اذ أن اليهود والكفرة أنفسهم يعرفونهُ حق المعرفة ومع ذلك لا يستطيع العقل الاَّ بنور الإيمان فقط لا بحجج أخرى أن يدرك تلك الأسرار المتضمنة في بيعة الله المقدسة وقد أبَنَّا بعضها وسنبين البعض الآخر في كلامنا على سر الدرجة. فلما كان هذا الجزء يفوق قوى فِهمِنا مثل باقي الأجزاء نعترف بحق وصواب أننا لا نعرف منشأ الكنيسة وما منح لها ومقامها بنور العقل البشري بل بنور الإيمان.

الحادي والعشرون: في الأمور التي نؤمر أن نعتقد وجودها

في الكنيسة وعددها ومقدارها.

ان هذه الكنيسة ليست من عمل البشر بل من عمل الله الحي القيوم نفسه الذي بناها على الصخرة الثابتة الغير المتزعزعة (متى ص 16 عـ 18) وشهد بذلك داود النبي

(134)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

بقوله: العلي هو الذي شيدها (مزمور 86 عـ 5) ولذا تدعى ميراث الرب (مزمور 2 عـ 3) وشعب الله (مزمور 27 عـ 2) ولم يكن

السلطان الذي خوّلتهُ بشرياً بل منحة إلهية فلما كان من المحال أن يأتيها هذا السلطان من قوى الطبيعة لم يتهيأ لنا الا بالإيمان أن نعقل أن في الكنيسة مفاتيح ملكوت السماوات (متى ص 16 عـ 19)، وأنها تولت سلطاناً على ترك الخطايا وعلى الحرم وعلى تقديس جسد الرب الحقيقي (لوقا ص 22 عـ 19)، ثم ان أولادها الماكثين فيها ليس لهم هنا مدينة ثابتة بل ينتظرون الأخرى. والحاصل ينبغي من باب اللزوم أن نؤمن بأن الكنيسة واحدة مقدسة كاثوليكية.

الثاني والعشرون: لا ينبغي أن يكون الإيمان بالكنيسة

كالإيمان بالله

اننا نؤمن بثلاثة أقانيم في الله آب وابن وروح قدس بمعنى أنها موضوع إيماننا أنا قولنا نؤمن بكنيسة مقدسة فما له الاعتقاد بقداستها وبذلك نفرق بين الخالق والمخلوقات ونعزو إلى جودة الله تعالى جميع الإحسانات المتصلة إلى الكنيسة.

الثالث والعشرون: في خاتمة هذا الجزء من قانون الإيمان

وهي شركة القديسين

لما كنت مار يوحنا الرسول إلى المؤمنين بشأن الأسرار الإلهية لكي يفقهم بها أورد هذه الحجة قائلاً: لتكون لكم أيضاً شركة معنا وشركتنا إنما هي مع الآب ومع ابنهِ يسوع المسيح (يوحنا 1 ص 1 عـ 3) وهذه الشركة قائمة بشركة القديسين الجاري ذكرها في هذا الجزء.

(135)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فعسى أن رؤساء الكنيسة يقفون أثر ما بذلهُ من الاجتهاد القديس بولس الرسول وباقي الرسل في شرح هذا الجزء لأنهُ ليس بمنزلة تفسير للجزء السابق فقط ولا هو تعليم جزيل الفوائد فقط بل يبين لنا أيضاً كيف يجب أن نتصرف بالأسرار المتضمنة في قانون الإيمان اذ من الواجب أن نستقصي كل شيء وندركه لكي ننال شركة القديسين هذه السامية والسعيدة واذا ما نلناها نلبث فيها ثابتين مسدين الشكر بفرح لله الآب الذي أهلنا بنوره إلى الإشتراك بنصيب القديسين.

الرابع والعشرون: في تفصيل الفرع الثاني من هذا الجزء

وفي ما تقوم به شركة القديسين

يجب أن يعلم المؤمنون أولاً أن هذا الجزء هو على نوع ما تفصيل للجزء السابق إيراده في الكنيسة الواحدة المقدسة الكاثوليكية لأن وحدة الروح الجارية في تدبيرها تستلزم أن كل ما تخولتهُ يعم جميع المؤمنين لأن فائدة جميع الأسرار تخص عموم المؤمنين الذين يتحدون بالمسيح وكأنهم يرتبطون معهُ بوثاقات مقدسة بواسطة الأسرار ولاسيما المعمودية التي هي بمنزلة باب تدخل بهِ الكنيسة وقد أشار الآباء بقولهم في قانون الإيمان: أؤمن بمعمودية واحدة إلى أنهُ من الواجب أن نفهم بشركة القديسين الاشتراك بالأسرار لأن سر الافخارستيا على الخصوص ثم باقي الأسرار تتبع المعمودية فهذا الاسم وان أطلق على جميع الأسرار بما أنها تعصمنا بالله وتصيرنا شركاه تعالى بقبولنا نعمتهُ إلا أنهُ في الأفخاريستيا أخص منهُ في غيرها لأنها تقيم هذه الشركة.

(136)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الخامس والعشرون: توجد في الكنيسة شركة

في الاستحقاقات

ينبغي أن نعرف في الكنيسة شركة أخرى فإن كل ما ينالهُ إنسان بعبادتهِ وقداستهِ يشترك فيه الجميع ويستفيدون منهُ لأنهُ يصنع بالمحبة التي لا تطلب ما لها (قورنتية 1 ص 13 عـ 5) وهذا ثابت بشهادة القديس امبروسيوس في تفسيره هذه الآية من المزامير: اني شريك لكل الذين يتقونك (مزمور 118 عـ 63) اذ قال : كما يقال في العضو أنه يشترك مع الجسد جميعه هكذا يشترك الإنسان المؤمن مع جميع الذين يتقون الله ولهذا قد رسم لنا المسيح الرب الصلاة بهذه الصورة كي نقول: اعطنا خبزنا لا أعطني خبزي ومثلهُ في باقي الطلبات التي فيها لا نلاحظ خيرنا فقط بل خلاص الجميع وخيرهم. أما شركة الخيرات هذه فكثيراً ما ورد تمثيلها محكماً في الأسفار الإلهية بشركة أعضاء الجسد البشري فكما أن في الجسد أعضاء كثيرة لا يتألف منها مع ذلك الاَّ جسد واحد كل عشو فيه يعمل عملهُ الخاص ولا يعمل جميعها عملاً واحداً بعينهِ وليس لجميعها منزلة واحدة ولا تقوم كلها بأعمال متساوية نفعاً وقدراً ولا ينبغي كل منها خير نفسهِ ومنفعتهُ بل قيام الجسد كله وخيره ثم قد ترتبت كلها وارتبطت فيما بينها بنوع أنهُ اذا تألم أحدها بوجع ما تتألم البقية أيضاً لاشتراكها في الطبيعة والاحساس وبالعكس اذا صاب حدها لذة شاركته بها البقية فهذا بعينهِ نشاهده في الكنيسة التي ولو اختلفت أعضاؤها أي كانت أمماً مختلفة يهوداً وحنفاً أحراراً وعبيداً وفقراء وأغنياء الاَّ أنهم قد صاروا بالمعمودية

(137)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

جسداً واحداً مع المسيح الذي هو رأسهم (أفسس ص 1 عـ 23) ثم ان كل واحد في هذه الكنيسة تعينت لهُ مرتبة لأن منهم من كانوا رسلاً ومنهم معلمين وتعين البعض أن يكونوا رؤساء ومعلمين والبعض أن يكونوا مرؤوسين ومتعلمين (قورنتية 1 ص 12 عـ 23) (وأفسس ص 4 عـ 11) والجميع وضعوا لفائدة العموم.

السادس والعشرون: في أن الأثمة والمنافقين لا يتمتعون

بشركة الخيرات الروحية

لا يتمتع بالخيرات العظيمة والمنح الوسيمة الموجودة في بيعة الله ألاَّ من استساروا سيرة مسيحية ساعين بالمحبة وكانوا أبراراً وخلاَّناًّ لله لأن الأعضاء الميتة أي الناس المكبلين بقيود الآثام والمتغربين عن نعمة الله لا يعدمون هذا الخير بأنهم ما برحوا أعضاء جسد الكنيسة الاَّ أنهم من كونهم موتى لا ينالون الثمرة الروحية التي تنالها الأنام الأبرار الأتقياء ولكن وجودهم في الكنيسة يساعدهم على استرداد النعمة التي فقدوها والعود إلى السيرة الصالحة التي اعرضوا عناه بواسطة من يعيشون بالروح ويجنون الأثمار الروحية التي يحرم منها بلا شك من فصلوا فصلاً تاماً عن الكنيسة.

السابع والعشرون: في أن النعمة المعطاة مجاناً وباقي مواهب

الله تعم الكنيسة بأجمعها

ان المواهب التي تجعل الناس خلاَّن الله وأبراراً تعم جميع

(138)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الناس ومثلها أيضاً النعم المعطاة مجاناً التي من جملتها العالم والنبوة والتكلم بأّلسن عديدة والمعجزات وما شاكل ذلك التي تعطي للأشرار أيضاً لا لفائدة خصوصية بل لمنفعة الجمهور لبنيان الكنيسة لأن نعمة الشفاء ليست لمن تخولّها بل لشفاء المريض. ولا يمتلك الإنسان المسيحي موهبة الاَّ لزمهُ أن يحسب باقي الناس شركاءّه فيها. ولهذا يلزم الجميع ان يكونوا مستعدين ومسرعين إلى دفع الضيم عن أهل الفاقة لأن من توفرت لهُ الخيرات ورأى أخاه محتاجاً ولم يسعفهُ تبين أن ليس عنده محبة الله. ولما كان الأمر كذلك تحقق أن الذين هم في هذه الشركة يرتعون في بحبوحة السعادة ويحق لهم أن يقولوا مع المرتل: ما أحب مساكنك يا رب القوات تشتاق وتميل نفسي إلي ديار الرب

فطوبى للذين يسكنون في بيتك يارب

(مزمور 83 عـ 2)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(139)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الفصل الحادي عشر

في الجزء العاشر من قانون الإيمان

"بغفران الخطايا"

أولاً: كيف يلزمنا أن نعتقد بوجود غفران الخطايا

في الكنيسة

ما من أحد يرى هذا الجزء في مغفرة الخطايا معدوداً بين باقي أجزاء قانون الإيمان ويخالجهُ ريب في أنهُ يتضمن سراً إلهياً لازماً كل اللزوم لنيل الخلاص لأننا قد أبنا فيما مرّ ان ليس أحد يستطيع سبيلاً إلى التقوى المسيحية بدون أن يؤمن إيماناً وثيقاً بالحقائق الاعتقادية المتضمنة في قانون الإيمان. وهذه الحقيقة واضحة يعرفها الجميع ولا تفتقر إلى اثبات واذا لزمها ذلك فحسبنا شهادة مخلصنا الإلهي في هذا الصدد في كلامهِ قبيل صعوده إلى السماء حين فتح أذهانهم ليفهموا الكتاب اذ قال: كان ينبغي للمسيح أن يتألم وأن يقوم في اليوم الثالث من بين الأموات وأن يكرز باسمهِ بالتوبة ومغفرة الخطايا في جميع الأمم ابتداءاً من أورشليم (لوقا ص 24 عـ 26)فإذا تروى رعاة النفوس هذه الآية الكريمة سهل عليهم أن يعقلوا أن قد فرض الرب عليهم إلزاماُ مبرماً أن يبينوا باجتهاد الأمور المتعلقة بالدين ولاسيما موضوع هذا الجزء من قانون

(140)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الإيمان.

ثانياً: ان في الكنيسة سلطاناً حقاً على ترك الخطايا

من واجبات الراعي إذن أن يعلم في هذا المقام أن في الكنيسة الكاثوليكية لا يوجد فقط غفران الخطايا الذي ذكره أشعيا النبي بقوله: الشعب المقيم فيها ينزع عنهُ الاثم (اشعيا ص 33 عـ 24) بل ان فيها أيضاً سلطاناً على ترك الخطايا فاذا استعمل الكهنة هذا السلطان حق استعمالهِ بموجب السنن التي منها المسيح الرب فمن الإيمان أن الخطايا تترك وتفغر بهِ حقيقة.

ثالثاً: كيف تترك الخطايا في الكنيسة

أولاً حين نرحض بماءِ العماد المقدس معترفين بالإيمان نحظى بهذا الغفران الوافي بنوع أنهُ لا يبقى شيءٌ من الزلة سواء كانت أصلية أو فعلية ارتكبناها باختيارنا بفعل أو اهمال ولا من العقاب المترتب عليها الا أنهُ ما من أحد يخلص بنعمة المعمودية من كل ضعف الطبيعة بل يلتزم كل أحد بمحاربة حركات الشهوة التي لا تزال تغرينا بالخطايا ويكاد لا يوجد أحد يقاوم هذه الحركات بنشاط أو يحافظ على خلاصهِ حتى يتمكن من مجانبة كل جرح في فضيلتهِ.

رابعاً: يتبين أن الخطايا تنفر في الكنيسة بقوة المفاتيح

الرسولية ما عدا العماد

لما كان من اللازم أن يكون في الكنيسة سلطان على ترك

(141)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الخطايا بغير طريقة سر العماد قلد الله كنيستهُ مفاتيح ملكوت السماوات التي بها تستطيع أن تغفر الخطايا لكل تائب ولو استمر خاطئاً إلى آخر يوم من حياتهِ وعندنا بينات على ذلك من الاسفار الإلهية أوضح وأثبت من أن تذكر. منها قول المسيح الرب إلى بطرس: اياك أعطي مفاتيح ملكوت السماوات ومهما ربطتهُ على الأرض يكون مزبوطاً في السماء ومهما حللتهُ على الأرض يكون محلولاً في السماء (متى ص 16 عـ 19) وقوله تعالى اسمه لتلاميذه: كلما ربطتموه على الأرض يكون مربوطاً في السماء وكلما للتموه على الأرض يكون محلولاً في السماء (متى ص 18 عـ 18) ثم شهد القديس يوحنا الرسول أن الرب نفخ في وجوه الرسل وقال لهم: اقبلوا الروح القدس من غفرتم خطاياهم تغفرلهم ومن أمسكتم خطاياهم تمسك لهم (يوحنا ص 2 عـ 22 و 23).

خامساً: في أن سلطان ترك الخطايا لا يتحيز على زمن معلوم

ولا على خطايا معلومة

لا ينبغي أن نعتبر أن سلطان الحل من الخطايا اقتصر على بعض أنواع من الخطايا لأنه ما من خطية ولو مهما كانت فظيعة وجسيمة أمكن ارتكابها أو تصورها ليس للكنيسة سلطان على تركها كما أنهُ ما من أحد أيضاً ولو بلغ إلى أقصى دركة من دركات الآثام والقبائح وتاب عنها حقاً الا تحقق لهُ رجاء الغفران. ثم لم يتحيز أيضاً هذا السلطان على زمن معلوم جاز العمل به لأن مخلصنا حين سألهُ هامة الرسل كم مرة يجب الغفران في اليوم أسبع مرات أجاب لا سبع مرات فقط بل إلى سبعين مرة سبع مرات

(142)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(متى ص 18 عـ 24) وبهذا الجواب علمنا أنهُ لا ينبغي طرد الخاطي في أية ساعة شاء الرجوع إلى الشفاء.

سادساً: ان سلطان ترك الخطايا لم يعطَ لجميع المسيحيين

أما اذا لاحظنا خدمة هذا السلطان الإلهي رأيناه غير متسع امتداداً لأن الرب لم يخوّل الجميع سلطان هذه المرتبة المقدسة بل الأساقفة فقط والكهنة ومثلهُ الحكم في نوع استعمال هذا السلطان لأن الخطايا لا يمكن أن تغفر إلاَّ بالأسرار ان حفظت فيها الصورة وبخلاف ذلك لا حق للكنيسة على الحل من الخطايا. فينتج من ثم أن الكهنة والأسرار إنما هم بمنزلة آلات لمغفرة الخطايا يصنع فينا المسيح الرب صانع الخلاص ومانحه غفران الخطايا والتبرير بواسطتهم.

سابعاً: ما قدر سلطان الحل من الخطايا الممنوح للكنيسة

على الراعي أن يبذل الجهد في بيان هذه النعمة وعظمتها لكي يدرك المؤمنون أجلى إدراك هذا السلطان السماوي الذي منحه الله للكنيسة بوفور رحمتهِ ويقدموا إلى استعمالهِ ومباشرتهِ بمزيد الاجتهاد وحرارة التقوى ويعرف قدره خاصة مما إذا تبين جلياً أن لهُ قدرة على مغفرة الخطايا وتحويل الناس من حالة الإثم إلى حالة البر. إذ من المحقق أن ذلك يتم بقدرة الله الغير المتناهية التي نعتقدها بذاتها مطلوبة لبعث الأموات وخلقة العالم. وكذلك مما اذا اعتبرنا كما يثبت القديس أغوسطينوس ان تحويل الإنسان من حالة

(143)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الكفر إلى حالة التقوى لفعل أعظم من خلقه السماءِ والأرض من العدم فكون هذه الخلقة نفسها لا يمكن أن توجد الا بقدرة الله الغير المتناهية ينتج بأولى حجة ان غفران الخطايا يستلزم قدرة غير متناهية.

ثامناً: ما من أحد غير الله سبحانهُ يستطيع بسلطانهِ الخاص

أن يغفر الخطايا

اننا نوقن أن أقوال الآباء الأقدمين التي بها يعترفون أن الله وحده يغفر للناس خطاياهم هي صحيحة صادقة ولا ينبغي أن يعزي هذا الفعل العجيب الاَّ إلى جودتهِ العميمة وقدرته العظيمة. قال الرب نفسه بلسان النبي اشعيا أنا أنا الماحي معاصيك وخطاياك لا أذكرها (اشعيا ص 44 عـ 25) لأن ترك الخطايا يظهر أنهُ يجري على مثال ترك الدين فما من أحد يقدر أن يسامح بالدين الاَّ الدائن نفسه ولما كنا مديونين لله بما ارتكبناه من الآثام بدليل قولنا لهُ في الصلاة الربية اغفر لنا ذنوبنا وفي اللاتينية أترك لنا ديونِنا (باعتبار كون الذنب دَيناً لله) تبين أن ليس أحد الا الله سبحانه يستطيع أن يغفر لنا خطايانا.

تاسعاً: في أن السلطان على مغفرة الخطايا لم يمنحهُ أحد

من البشر قبل ميلاد المسيح

ان هذا السلطان الإلهي العجيب لم يفوّض إلى أحد من الناس قبل تجسد ابن الله. فالمسيح مخلصنا بما أنه إنسان مع حال كونهِ إلهاً حقاً هو أول من تولاه من الآب السماوي. وهاك

(144)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

قوله: كي تعلموا ان ابن الإنسان له سلطان على الأرض أن يحل الخطايا قال للمخلع قم احمل سريرك واذهب الى بيتك (متى ص 9 عـ 6) ثم اعطى هذا السلطان الأساقفة والكهنة في الكنيسة لكي يمنح البشر غفران الخطايا قبل صعوده إلى السماء وجلوسهِ عن يمين الآب للأبد. على أن المسيح كما علمنا فيما مرّ يترك الخطايا بسلطانهِ أما الباقون فإنهم يغفرون الخطايا بما أنهم خدمته. ولهذا اذا تروينا كما ينبغي بما صنعتهُ قدرة الله الغير المتناهية أدركنا أن هذه الموهبة التي منَّ بها المسيح الرب على الكنيسة برأفتهِ الإلهية هي ثمينة بما لا حد لهُ ولا قياس.

عاشراً: بأية قوة ينال البشر غفران خطاياهم

ان الله سبحانه بمثابة اب فائقة رأفتهُ قد رسم محو خطايا العالم بطريقة جديرة أن تميل عقول المؤمنين ميلاً شديداً إلى التأمل في عظمة هذا الإحسان لأنه قد شاءَ ان ابنه الوحيد يريق دمهُ كفارة عن آثامنا ويفي راضياً ما استحقيناه من العقاب لأجلها وأن الصديق يشجب بدل الأثمة والبري يذوق شر ميتة عوض المجرمين (متى ص 6 عـ 0).

(ورومة ص 3 عـ 23) ومتى تأملنا أننا لم نفدَ بما يفسد من الفضة والذهب بل بدم كريم دم المسيح الحمل البري من العيب سهل علينا أن نحكم حكماً صائباً بأن ما من شيءٍ يمكن أن نناله أجدر بالخلاص من هذا السلطان على الحل من الخطايا الذي يعلن لنا عناية الله الغير الموصوفة بنا ومحبته الفائقة كل حد وقياس لنا فلا بد من أن هذا التأمل يجدي بأعظم ثمرة على الجميع.

(145)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الحادي عشر: كيف نعتبر بوجه الخصوص عظمة هذا

الإحسان الصادر عن سلطان ترك الخطايا

ج ان من يهين الله بخطية مميتة يفقد في الحال كل ما يكون اكتسبهُ من استحقاق موت المسيح على الصليب (عبرانية ص 10 عـ 26)، ويمنع لوقتهِ من الدخول في الفردوس الذي كان قبلاً موصداً وفتحهُ مخلصنا للجميع بآلامهِ (قورنتية 1 ص 6 عـ 9) فحين يخطر هذا الأمر في بالنا لا يقع في خاطرنا الا شديد الارتباك في أمر خلاصنا لدى اعتبارنا هذه التعاسة البشرية ولكن اذا رفعنا عقلنا إلى التأمل في هذا السلطان العجيب الذي تولته الكنيسة من قبل الله وتقوينا بالإيمان المتضمن في هذا الجزء فأيقنا أن كلاّ منا يتهيأُ له العود إلى حالة مقامهِ الأول بأيد المعونة الإلهية نتطاير فرحاً ونسدي لله شكراً للأبد وإذا كنا نستحسن ونستعذب الأدوية التي يألفها لنا الأطباء بصناعتهم حين نصاب بأمراض الجسد. فما أولى الأدوية التي ابدعتها حكمة الله لشفاءِ النفوس بل ولا عادة الحياة أن تكون شهية وعذبة لدينا لاسيما أنها لا تقدم أملاً يمازجه ريب في الشفاء مثل تلك الأدوية بل خلاصاً وثيقاً راهناً عرياً من كل شبهة للذين يرغبون الشفاء والنجاة.

الثاني عشر: لماذا وكيف ينبغي على المسيحيين أن يكثروا من العلاجات التي منحت للكنيسة في سلطان الحل

من الخطايا

من الواجب أن يحض المؤمنون في أن عرفوا قدر هذا السلطان العظيم على أن يبذلوا أقصى جهدهم في تحويلهِ

(146)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

بالعبادة والورع إلى ما فيه منفعتهم وخيرهم لأنهُ يكاد يتفق أن من لايستعمل أمراً ينفعهُ ويلزمهُ لا يحسب أنهُ يحتقره لاسيما أن الرب قلد الكنيسة هذا السلطان على ترك الخطايا لهذا الغرض وهو أن الجميع يستعملون هذا العلاج الخلاصي فكما أن ليس أحد يستطيع سبيلاً إلى الاغتسال من اثمهِ الاَّ بالمعمودية هكذا كل من أراد أن يسترد نعمة العماد التي فقدها بخطاياه المميتة لابد لهُ أن يلجأَ إلى سر التوبة اذ ليس له واسطة سواه لمغفرة آثامهِ إنما يجب أن يحذّر المؤمنون في هذا المقام من أن سهولة الغفران هذه الفسيحة والتي ابنا أنها غير محصورة بزمان تزيدهم استسهالاً لإرتكاب الأخطاء أو تباطئاً عن الرجوع إلى التوبة لأنهم في الأول يؤَخذون باحتقارهم الظاهر لذاك السلطان الإلهي وامتنانهم له فيغدون غير مستاهلين رحمة الله

وفي الثاني يخشى كثيراً من أن الموت يفاجئهم فيكونون عبثاً

اعتقدوا بمغفرة الخطايا التي خابوا منها

بتوانيهم وتأخرهم.

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(147)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الفصل الثاني عشر

في الجزء الحادي عشر من قانون الإيمان

"بقيامة الأجساد"

أولاً كم يهم أن نعرف بالتدقيق فحوى هذا الجزء

ان لهذا الجزء قوة عظيمة لإثبات حقيقة إيماننا ويتبين ذلك خاصة من كون الأسفار الإلهية لا تقدمهُ لنا فقط موضوعاً للإيمان بل انها تثبتهُ بحجج كثيرة أيضاً وهذا قلما نشاهده في باقي الأجزاء من قانون الإيمان فندرك والحالة هذه ان رجاء خلاصنا مستند إليهِ كإنما إلى أساس متين راهن ويبرهن رسول الأمم عن ذلك بقولهِ: ان لم تكن قيامة الأموات فالمسيح اذن لم يقم وان كان المسيح لم يقم فكرازتنا اذن باطلة وإيمانكم أيضاً باطل (قورنتية 1 ص 15 عـ 13 و 14)، فينبغي أن لا يقل اجتهاد الراعي في بيان هذه الحقيقة عن اجتهاد الكفرة الكثيرين في حجدها وانكارها ونحن بعد قليل نبين ما يحصل من كبير الفوائد للمؤمنين عن معرفتها.

ثانياً: لماذا دعا الرسل هنا قيامة الناس قيامة الجسد

ينبغي أن نعتبر هنا أولاً أن قيامة الناس تدعى في هذا الجزء

(148)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

قيامة الأجساد وليس ذلك بلا سبب لأن الرسل قد قصدوا أن يعلموا ما كان عمدة في هذا الموضوع أي ديمومة النفس حذراً أن يتوهم أحد أنها تتلف مع الجسد ثم يعود كلاهما إلى الحياة فيما أنهُ ثابت ثبوتاً جلياً بنصوص عديدة من الكتاب المقدس ان النفس لا تموت. ولذلك ذكروا في هذا الجزء قيامة الجسد فقط ولو أن الكتاب كثيراً ما يعبر بالجسد عن الإنسان كلهِ بدليل ما جاءَ في نبوءة أشعيا النبي من قولهِ: كل جسد عشب (ص 40 عـ 6) وفي يوحنا الكلمة صار جسداً (ص 1 عـ 14)، فمع ذلك لفظة جسد في هذا المحل يراد بها الجسد فقط لكيما نعلم أن أحد الجزئين المركب منهما الإنسان أي الجسد يفسد وحده ويعود إلى التراب الذب جُبل منهُ أما النفس فلا تفسد بل تثبت حية على الدوام ومن حيث أنهُ ما من أحد يبعث حياً ما لم يمت لا يقال بحصر المعنى أن النفس تقوم من الموت وقد ذكر الجسد أيضاً دون النفس في القيامة دحضاً لتلك البدعة التي ظهرت في حياة القديس بولس الرسول وأنشأها همناوس وفيلاتس اللذان كانا يزعمان أن الكلام الوارد في الكتاب المقدس على القيامة لا ينبغي فهمه عن قيامة الجسد بل عن القيامة الروحية التي بها يقوم الإنسان من موت الخطية إلى حياة البرارة فعليه قد تبين بهذا الكلام تفنيد الضلال واثبات قيامة الجسد الحقيقية.

ثالثاُ: باية حجج خاصة من الأسفار الإلهية يثبت العليم بقيامة الأجساد الحقيقية

على راعي النفوس أن يبين هذه الحقيقية بنموذجات وردت

(149)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

في العهدين القديم و الجديد وأخذت عن كامل تاريخ الكنيسة فالبعض قام من الموت في العهد القديم على يد ايليا واليشع النبيين والبعض أقامهم المسيح الرب ومنهم من قام على يد الرسل وغيرهم كثيرين من القديسين فقيامة هؤلاء الأموات تثبت حقيقة التعليم الوارد في هذا الجزء من قانون الإيمان.

فكما أننا نعتقد أن كثيرين قاموا من الموت هكذا وجب أن نؤمن أن الجميع سيقومون إلى الحياة لا بل أن الفائدة الواجب أن تجتنبها من نثل هذه المعجزات الباهرة هي أن نؤمن بهذا الجزء بأوثق إيمان. ثم بأدنى مطالعة في الكتاب المقدس يعثر الرعاة على نصوص كثيرة تثبت ما نحن في صدده وأوضحها ما نقرأَه في العهد العتيق في سفر أيوب حيث يقول: اني لعالم ان فاديَّ حي وسأقوم آخراً على التراب وبعد ذلك تلبس هذه الأعضاء بجلدي ومن جسدي أعاين الله (ص 19 عـ 25 و 26)، وفي سفر دانيال النبي: كثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون بعضهم للحياة الأبدية وبعضهم للعار والرذل الأبدي (ص 2 عـ 2) وفي العهد الجديد يروي متى الرسول المحاورة التي أقامها الرب مع الصدوقين بخصوص القيامة ومن قولهِ: أما من جهة قيامة الأموات أما قرأَتم ما قيل لكم من قبل الله القائل أنا إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب والله ليس إله أموات وإنما هو إله أحياء (متى ص 22 عـ 31 و 32) فضلاً عما وراه الرسل الانجيليون في صدد الدينونة الأخيرة (متى ص 19 و 22 ويوحنا ص 5 عـ 25 و 28).

وينبغي أن نضيف هنا ما حاور بهِ بكل تدقيق رسول الأمم في

(150)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

كتابتهِ بصدد القيامة إلى أهل قورنتية وتسالونيكي (قورنتية ص 15 عـ 12) (تسالونيكي ص 4 عـ 12).

رابعاً: بأي أمثال يمكن أن تثبت هذه الحقيقة

ولو كانت هذه الحقيقة ثابتة كل الثبات بالإيمان مع ذلك من المفيدان أن نبين بالأمثال والحجج أن ما يوجب علينا الإيمان اعتقاده لا تمجهُ الطبيعة ولا يبتعد عن العقل البشري ولهذا قد أجاب رسول الأمم من سألهُ كيف تقوم الموتى قائلاً: يا جاهل ان ما تزرعه أنت لا يحيا الاَّ اذا مات وما تزرعه ليس هو ذلك الجسم الذي سوف يكون بل مجرد حبة من الحنطة مثلاً أو غيرها من البذور الا أن الله يجعل لها جسماً كيف شاء وبعيد ذلك يقول: يزرع بفساد والقيامة بلا فساد (قورنتية 1 ص 15 عـ 36 وما يليهِ)، وقد ابان القديس غريغوريوس عدة تشابيه للقيامة غير ما ذكر بقولهِ: ان النور يذهب عن البصر كأنهُ يموت ثم يعود كأنهُ حياً وان الأشجار تتعرَّى من خضرتها ثم تعود إليها مأنها تقوم من موتها والزرع يموت في الأرض ويفسد ثم يقوم منها نابتاً مونعاً.

خامساً: في الحجج التي تثبت هذه الحقيقة

ثم الحجج التي يوردها كتبة الكنيسة هي كافية وقاطعة لإثبات هذه الحقيقة. فأولاً لما كانت النفوس غير مائتة وميالة من طبعها إلى الأجساد البشرية لكونها جزءاً من الإنسان يعتبر افتراقها عن الأجساد للدوام مخالفاً للطبيعة وحيث أن ما يخالف الطبيعة ويعسفها لا يمكن أن يكون مأبداً.

(151)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فمن الموافق أن تعود النفوس تتحد أخيراً بالأجساد فينتج من ذلك أيضاً قيامة الأجساد وعلى هذا القياس جادل مخلصنا الصدوقيين واستنتج قيامة الأجساد من ديمومة النفوس. ثم لما قيض الله العقاب على الأشرار والثواب على الأبرار بمقتضى عدله الغير المتناهي وكثيرون من هؤلاء وأولئك بارحوا هذه الحياة قبل أن تفي الأشرار حق العقاب المتوجب عليهم وقبل أن يستوفي الأبرار تمام الثواب اقتضى أن النفوس تعود تتحد بالأجساد لكيما تنال الأجساد مع النفوس ما يصيبها من الثواب أو العقاب بما أن البشر يستخدمون أجسادهم بمنزلة شركاء النفوس في عمل البر أو الإثم. وقد أجاد وأفصح في هذا المقام القديس يوحنا الذهبي الفم من خطبتهِ على شعب أنطاكية. ولهذا قال رسول الأمم في صدد القيامة : ان كان رجاؤنا في المسيح في هذه الحياة فقط فنحن أشقى الناس أجمعين (قورنتية 1 ص 15 عـ 18) فما من أحد يرى أن هذه الآية تعزي الشقاء للنفس لأنها تستطيع أن تتمتع بالسعادة في الآخرة حال كونها غير مائتة وان لم تقم الأجساد بل يجب فهمها عن الإنسان كلهِ لأنهُ لو كانت الأجساد لا تنال ما يحق لها من المكافأة عما قاستهُ في هذه الدنيا من شديد البلايا والأكدار في سبيل البر كما جرى للرسل الكرام لامسى الإنسان بالحقيقة أشقى خلق الله. وزاد قوله هذا إيضاحاً في رسالتهِ إلى أهل تسالونيكي حيث قال: حتى انا نحن أنفسنا نفتخر بكم في كنائس الله لصبركم وإيمانكم في جميع اضطهاداتكم ومضائقكم التي تحتملونها لبيان حكم الله العدل لتؤهلوا لملكوت الله الذي لأجلهِ تتألمون فإنهُ من العدل عند الله أن يكافئ

(152)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

بالضيق الذين يضايقونكم وان يكافئكم أنتم المضايقين بالراحة معنا عند تجلي الرب يسوع من السماء مع ملائكة قوته حين ينتقم بلهيب النار من الذين لا يعرفون الله ولا يطيعون انجيل ربنا يسوع المسيح (ص 1 عـ 4 و 5 و 6) ناهيك أن البشر لا يقدرون على أن يحظوا بالسعادة الكاملة الحاوية مجموع الخيرات طالما استمرت النفس مفترقة عن الجسد. فكما أن كل جزء انفصل عن الكل هو ناقص لا محالة هكذا النفس المفترقة عن الجسد. فينتج من ثم أن قيامة الأجساد لابد منها كي لا ينقصها شيء من كمال سعادتها العظمى. فلراعي النفوس ان يفقه المؤمنين في هذا الجزء من قانون الإيمان بهذه البرهانات وما ضاهاها.

سادساً: لا يوجد حينئذٍ إنسان ينجو من الموت أو يستثني

من القيامة

من اللازم أن نبين جلياً سنداً إلى تعليم الرسول المعظم من هم الذين سوف يقومون إلى الحياة. لأنهُ في كتابتهِ إلى أهلى قورنتية يقول: كما أن بآدم جميع الناس يموتون هكذا بالمسيح جميع الناس يحيون (قورنتية 1 ص 15 عـ 22) فالجميع إذن بدون استثناء يقومون من الموت أخياراً كانوا أو أشراراً إنما ليس بحالة واحدة بل الذين عملوا الصالحات إلى قيامة الحياة أما الذين عملوا السيئات فإلى قيامة الدينونة (يوحنا ص 5 عـ 20)، فنعني بقولنا الجميع من كانوا ماتوا قبل مجيء يوم الدينونة والذين سيموتون في يوم الدينونة بعينهِ. فالكنيسة تعوّل على القول بموت الجميع وهو اطبق للحقيقة

(153)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

للحقيقة على ما كتب القديس ايرونيموس ووافقهُ عليه القديس أغوسطينوس ولا يناقض ذلك كلام الرسول فيما كتبهُ إلى أهل تسالونيكي إذ قال : يقوم الأموات بالمسيح أولاً ثم نحن الأحياء الباقون نختطف جميعاً معهم في السحب لنلاقي المسيح في الجو (تسالونيكي 1 ص 14 عـ 15 و 16) قال القديس امبروسيوس في تفسيره هذه الآية: ان الموت سيدركنا في حال هذا الاختطاف كمثل الرقاد وفي لحظة تعود النفس إلى الجسد. فحين يختطفون يموتون وحين ملاقاتهم الرب يأخذون أنفسهم بحضرة الرب لأنهم لا يقدرون أن يكونوا موتى مع الرب. ويثبت هذا القول القديس أغوسطينوس في كتابهِ في مدينة الله.

سابعاً: ان النفس البشرية ستأخذ جسدها بعينهِ في

الدينونة الأخيرة

من الأمور المهمة أن نعرف يقيناً أن الجسد الخاص بكل واحد ولو يلي أو استحال تراباً هو هو بعينهِ يقوم من الموت. فعلى راعي النفوس أن يبين هذه الحقيقة أيضاً بالتدقيق. وهاك نص الرسول المعظم: لابدّ لهذا الفاسد أن يلبس عدم الفساد فقوله هذا اشارة واضحة إلى الجسد الخاص. ثم أيوب الصديق قد تنبأ عن ذلك قائلاً: وبعد ذلك تلبس هذه الأعضاء بجلدي ومن جسدي أعاين الله الذي أنا أعاينهُ بنفسي وعيناي تريانه لا غيري (أيوب ص 19 عـ 26 و 27) ويتلخص ذلك من تعريف القيامة نفسها لأن القيامة كما قال مار يوحنا الدمشقي إنما هي الرجوع إلى الحالة التي كان عليها الإنسان قبل موتهِ.

(154)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثم أذا اعتبرنا السبب الذي لأجلهِ سوف تصير القيامة كما تبين آنفاً فلا يبقى محل للشك في عقل أحد بهذه الحقيقة.

ثامناً: لأي سبب حتم الله سبحانهُ بقيامة الأجساد

ج قد ابنا أن لابد من قيامة الأجساد كي ينال كل أحد المجازاة بجسده عمل فعل من خير أو شر فمن اللازم إذن أن الإنسان يقوم بجسده عينه الذي بهِ يكون خدم الله أو الشيطان كي ينال بهذا الجسد نفسهِ أكاليل الظفر والثواب أو العقاب والعذاب العظيمين.

تاسعاً: في أن الأجساد لا تعاودها تلك العاهة التي كانت

فيها في هذا العالم

ليس يقوم الجسد فقط بل يعود إليه كل ما يختص بحقيقة طبعهِ من الزينة والجمال كما شهد القديس أغوسطينوس شهادة جلية في هذا الصدد بقوله: لا يبقى حينئذٍ شيء كم العيب في الجسد فمن كان مثقلاً بسمن مفرط أو ضخامة و غلاظة فلا يقوم وفيه شيء من هذه العيوب بل ان كل ما يرى يفوق حد لاعتدال في الجسد بعد فضلة وكل ما تعيب فيه بمرض أو هرم أو نحول يصلح بقدرة المسيح الإلهية لأنهُ تعالى لا يصلح فقط أجسادنا بل يزيل عنها أيضاً كل ما طرأَ عليها من أسوأ هذه الحياة. وفي محل آخر يقول: لا يستعيد الإنسان في القيامة الشعر الذي كان لهُ بل الشعر الذي يناسبهُ حسب القول : ان شعور رؤُوسكم كلها محصاة أى التي ترد بمقتضى حكمة الله وفي بادئ البدء تعاد معاً جميع الأعضاء المختصة بحقيقة

(155)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الطبع البشري فمن كان أعمى من مولده أو فقد البصر بمرض أو من كان أعرج أو أعسم أو ضئيلاً بأي عضو كان من أعضائهِ يقوم من الموت بجسد صحيح كامل والاَّ لا تستوفي النفس رغبتها في ميلها الشديد إلى الإتحاد بالجسد فيما اننا نعتقد أن لابد من استيفاء هذه الرغبة من القيامة. ثم حسبنا يقيناً أن القيامة تعد من أعمال الله الخاصة كالخلقة. فكما أن كل الأشياء في بداية الخلقة كانت كاملة هكذا ينبغي أن نعتقد أنها تصير في القيامة.

عاشراً: في أن الشهداء يقومون بأجساد كاملة حاملين عليها

سمات جراحهم

يقال في الشهداء ومن ضاهاهم ما قاله ُ القديس اغوسطينوس:

لا يقومون بدون تلك الأعضاء التي قطعت لأن ذاك التعويه يكون عيباً في الجسد والا وجب أن يقوم بلا رأس من قطع رأسهُ إنما تبقى فيها سمات القطع بالسيف أو خلافه تسطع بها أفضل من الذهب والدرر الثمينة كسمات جراح المسيح.

الحادي عشر: وأجساد المرذولين المقطعة تقوم كاملة أيضاً

وهذا يقال بكل حق في المرذولين ولو قطعت اعضاؤهم بذنبهم لأنهم بقدر كثرة أعضائهم يقاسون عذاباً أشد ووجع أمرٌّ ولهذا رجوع أعضائهم لا يعود عليهم بالسعادة بل بزيادة عذابهم وبلاهم لأن الثواب والعقاب لا يختص بالأعضاء بل بالشخص المتحدة بجسده فتعود إلى الذين صنعوا توبة لأجل ثوابهم وللذين رذلوا التوبة لأجل عذابهم.

(156)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فإن تدبر الراعي حسناً هذه الحقائق فلا تعوزه العبارات ولا موضوعها لإنعاش قلوب المؤمنين واضرامها بسعير التقوى والعبادة حتى اذا ما تأملوا شقاء هذه الحياة وضيقاتها تاقوا من كل قلوبهم إلى مجد تلك القيامة السعيدة المعدة للأبرار والصالحين.

الثاني عشر: كيف تكون أجساد الناس

بعد القيامة

يلي هنا ما تقدم أن يعقل المؤمنون أن الجسد المائت نظراً إلى ما يتألف منهُ جوهره مزمع أن يقوم بعينهِ من الموت أما حالتهُ فتختلف كل الاختلاف عن حالتهِ في هذه الحياة وحسبنا هنا أن نذكر جهة واحدة من ذاك الاختلاف معرضين عن غيرها فنقول أن أجساد القائمين تختلف عن ذاتها خاصة بأنها قبل القيامة كانت خاضعة لسنن الموت أما بعد أن تقوم إلى الحياةفتنال ديمومة البقاء ولا فرق في ذلك بين الأخيار والأشرار. فالمسيح الرب قد استحق هذا التجديد العجيب للطبيعة البشرية بما حازه من النصرة العظيمة على الموت كما تفيدنا الأسفار الإلهية لأنهُ كتب: يطرح الموت إلى الأبد (اشعيا ص 25 عـ 8) وفي هوشع أكون موتك ياموت (ص 13 عـ 15) وقد فسر ذلك يوحنا الرسول بقوله: في تلك الأيام يطلب الناس الموت فلا يجدونهُ (رؤيا ص 9 عـ 6) ومار بولس الرسول يقول: واخر عدو يبطل هو الموت (قورنتية 1 ص 15 عـ 26) وفي الرؤيا أيضاً: لا يكون موت بعد (ص 21 عـ 4). لعمرك أنهُ كان من الحق واللائق أن استحقاق المسيح الرب الذي به هدم

(157)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

سلطان الموت يسمو سمواًّ عظيماً خطية أبينا آدم ومن عدل الله أيضاً أن الأبرار يتمتعون للأبد بالحياة السعيدة. أما الأشرار فيكابدون العقاب الأبدي يطلبون الموت ولا يجدونهُ يتمنون أن يموتوا والموت يهرب منهم (رؤيا ص 9 عـ 6) فهذه الديمومة تعم الأخيار والأشرار.

الثالث عشر: في الصفات التي سوف تزدان بها أجساد

الطوباويين بعد القيامة

ان أجساد القديسيين المبعوثين تحظى عدا ما ذكر بزينات جميلة رائعة تزداد بها جمالاً عما كانت عليه بما لا يوصف وأخصها أربع تدعى صفات اخذاً عن تعليم الرسول المعظم والآباء القديسين. فالأولى التنزه عن الألم وهي موهبة أو صفة تجعلها منزهة عن التأثر بألم أو وجع أو حزن أو تعب. فلا يستطيع أن تؤذيها نوافح البرد ولا لوافح اللهيب ولا زخم المياه لأن الرسول يقول : يزرع بالفساد ويقوم بلا فساد (قورنتية 1 ص 15 عـ 43) أما السبب الذي من أجلهِ عبر العلماءُ عن هذه الصفة بالتنزه عن التألم لا عن الفساد فهو لكي يبينوا مزية الجسد المجيد بعد القيامة لأن هذا التنزه عن الألم لا يعم الهالكين الذين أجسادهم قابلة التألم بالحر والبرد وباقي العذابات على اختلافها وان كانت منزهة عن الفساد.

الثانية البهاء الذي بهِ تتلألأُ أجساد القديسين بالنور كالشمس

على ما ورد في بشارة القديس متى من قول مخلصنا الإلهي: حينئذٍ يضيء

(158)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الصديقون مثل الشمس في ملكوت أبيهم ولئلا يشك أحد في هذه الحقيقة قد رأى رسلهُ مثالها في تجليه على طور طابور. ورسول الأمم يسمي هذه الصفة تارة مجداً وتارة بهاء اذ قال: هذا الذي سيغير جسد تواضعنا شبيهاً بجسد مجده أي بهائهِ (فيلبي ص 3 عـ 21) ثم قال يزرعون بالهوان ويقومون بالمجد (قورنتية 1 ص 15 عـ 42) وقد شاهد شعب اسرائيل صورة هذا المجد في البرية لما تجلى وجه موسى بالبهاء من مشاهدة الله ومخاطبته حتى لم يستطع بنو اسرائيل على النظر إليهِ اما هذا البهاء فهو اشراق يفيض على الجسد من عظم سعادة النفس كي يكون لهُ بذلك شركة مع النفس في السعادة التي تتمته بها كما أن النفس أيضاً تصير سعيدة بما ينسكب عليها من السعادة الإلهية على أنهُ ينبغي أن نعتقد أن ليس جميع الطوباويين يتساوون بهذا المجد كما في صفة التنزُّه من التألم السابق ذكرها لأن أجساد القديسين جميعها تصير منزهة عن التألم في درجة واحدة. أما صفة البهاء ففيها تفاوت كما شهد الرسول المعظم بقولهِ: وشرف الشمس نوع وشرف القمر نوع آخر وشرف النجوم نوع آخر لأن نجماً يفضل على نجم في الشرف هكذا قيامة الأموات.

الثالثة الخفة التي بها يتملص الجسد من الثقل الذي يضنكه

في هذا العالم وتتوفر لهُ القدرة بأعظم سهولة على التحرك والانتقال حيثما تشاء النفس ومن المحال أن توجد حركة أسرع منها كما علم جلياً القديس أغوسطينوس في كتابهِ المعروف بمدينة الله والقديس ايرونيموس في تفسير نبوءة اشعيا وعليه قال الرسول: يزرع بالضعف ويقوم بالقوة (قورنتية 1 ص 16 عـ 43).

(159)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الرابعة اللطافة وبقوتها يخضع الجسد أتمَّ الخضوع لحكم النفس ويخدمها ويكون مستعداً لإشارة أمرها كما تبين من قول الرسول يزرع جسد حيواني ويقوم جسد روحاني. هذا أخص ما اقتضى بيانهُ في هذا الجزء.

الرابع عشر: ماذا يجنيه المؤمنون من أثمار الفوائد من أسرار

القيامة العظيمة

ج لكي يعرف المؤمنون ما يستطيعون ان يحنوه من ثمار الفوائد من معرفة مثل هذه الأسرار الكثيرة والعظيمة ينبغي أن نبين أولاً أن من الواجب علينا أن نسدي أعظم الشكر والحمد لله سبحانهُ الذي أخفى هذه عن الحكماء وأظهرها للأطفال (متى ص 11 عـ 25) فكم من الرجال قد تناهوا بشهرة الحكمة وتحلوا بعقود المعارف السنية ومع ذلك عموا شر عمى عن هذه الحقيقة الراهنة. فيلزمنا اذن أن نؤّدي الشكر على الدوام لجودة الله ورأفتهِ لأنهُ أظهر لنا من الأسرار ما لا يحتاج لنا أن نتوق إلى إدراكهِ.

ثم أننا نجتني فائدة عظمى من تأملنا هذا الجزء وهي اننا نقدر أن نعزيّ ذواتنا أو غيرنا في موت من كانوا مقيدين معنا برباط قرابة أو صداقة وقد استعمل الرسول المعظم مثل هذه التسلية في كتابتهِ إلى أهل تسالونيكي عن الذين يرقدون بالرب (تسالونيكي 1 ص 4 عـ 13) وفكر القيامة يجد بنا أيضاً فرحاً في جميع الضيقات والبلايا كما يعلمنا

(160)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

أيوب الصديق الذي وطد نفسهُ المفعمة أحزاناً وأكداراً على هذا الرجاء الوحيد في أنهُ سوف يعاين الرب إلهه ذات يوم في قيامة الأجساد. ناهيك أن هذا يفيد كثيراً في حث الشعوب المؤمنين على أن يسلكوا مسلكاً مستقيماً كاملاً خالياً من كل دنس الخطية لأنهم اذا افتكروا في أن ذاك الغنى العظيم الذي يعقب القيامة هو معد لهم يغرون باتقان الفضيلة وتقوى الله وما من شيء أشد قوة من قيامة الموتى على قمع شهوات النفس وردع البشر عن المعاصي لاسيما

اذا اكثروا من الانتباه إلى ما سيدرك من

الشرور والعذابات المرذولين الذين

يقومون إلى الدينونة

في اليوم

الأخير

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(161)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الفصل الثالث عشر

في الجزء الثاني عشر من قانون الإيمان

"اؤمن بالحياة الأبدية"

أولاً: لماذا وضع هذا الجزء من قانون الإيمان هنا في آخر

مقام. وما أكثر ما يهم بيانهُ للشعب

ان الرسل القديسين مرشدنا قد شاءُوا أن يختموا قانون الإيمان المشتمل على خلاصه إيماننا بالجزء المحتوي فيهِ اعتقادنا بالحياة الأبدية وذلك لأن المؤمنين بعد قيامة الجسد ليس لهم أن يتوقعوا شيئاً سوى ثواب الحياة الأبدية ثم لكي نضع نصب أعيننا تلك السعادة الكاملة الحاوية مجموع الخيرات ونبجن فيها ذهننا وجميع أفكارنا. ومن ثم فلا يبرحنَّ رعاة النفوس في تعليمهم المؤمنين أن يتخذوا ثواب الحياة الأبدية ذريعة لتنشيط المؤمنين ليتعلموا أن يتجشموا ما يداهمهم من صعاب الأمور في سبيل الحياة المسيحية بل يستلهموه ويستعذبوه ويحملوهم على الأقدام بأوفر سرعة وفرح إلى طاعة الله.

ثانياً: ماذا يفهم هنا بالحياة الأبدية

ج ينبغي هنا كشف ما احتجب من الأسرار الكثيرة في طي هذه الألفاظ

(162)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

المعبرة عن الحياة الأبدية بحيث يدركه عقل كل أحد بقدر ما يستطيع إلى ذلك سبيلاً. فينبغي اذن ان يبلغ المؤمنون أن المفهوم بهذه العبارة "الحياة الأبدية" ليس ديمومتها فقط التي تعم أيضاً الأبالسة والناس الأشرار بل ديمومة السعادة أيضاً التي تفي رغبة الطوباويين وبهذا المعنى فهم ذاك الكاتب الذي سأل الرب مخلصنا في الانجيل عما يجب عليه أن يعملهُ ليرث الحياة الأبدية كأنهُ قال ماذا ينبغي أن أصنعهُ كل أبلغ إلى ذاك المكان حيث استطيع أن أتمتع بالسعادة الكاملة. والأسفار الإلهية عبرت بهذا الكلام عن المعنى المسفور كما يرى بنصوص كثيرة.

ثالثاً: لماذا يعبر عن تلك السعادة بالحياة الأبدية

ج ان تلك السعادة العظمى تدعى باسم الحياة الأبدية حذراً من أن يحسبها أحد قائمة بالأشياء الجسدية الفانية التي لا يمكن أن تكون أبدية لأن اسم السعادة وحده لا يفي ببيان المطلوب اذ قد يوجد أناس مستكبرين بحكمتهم الباطلة وآرائهم الفاسدة يزعمون أن الخير الأعظم يقوم في تلك الأشياء التي تردك بالحواس وقد فاتهم ان هذه تزول وتفنى فيما أن السعادة لا يحصرها حدّ من الزمان وهي بالحقيقة في أقصى بعد عن السعادة الحقة التي يتغرّب عنها إلى أقصى الأقاصي من يتمسك بحبال حب العالم وشهواته لأنهُ قد كتب: لا تحبوا العالم ولا ما في العالم أن كان أحد يحب العالم فليست فيهِ محبة الله (يوحنا 1 ص 2 عـ 15).

وبعيد ذلك: العالم وشهوته يزولان (عـ 17) فليعتنِ الرعاة في أن

(163)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يرسخوا ذلك في أذهان المومتين ويبلغوهم أن يرذلوا الأمور الزائلة وأنهم لا يستطيعون أن ينالوا أدنى سعادة في هذه الحياة التي نحن فيها غرباء وضيوف (بطرس 1 ص 2 عـ 11) على أننا نقول من باب الحق أننا سعداء في هذه الدنيا أيضاً بالرجاء اذ نكفر بالخطية وبشهوات العالم ونعيش بالقناعة والبر والتقوى في هذه الدنيا متوقعين الرجاء الصالح وظهور مجد الله العظيم وفادينا يسوع المسيح (طيطوس ص 2 عـ 12 و 13) على أن كثيرين قد زعموا أنهم حكماء فصاروا حمقاء لا يفهمون هذه الأمور بل توهموا أن السعادة في هذه الحياة فسقطوا في بلايا عظيمة.

ثم نفهم من فحوى اسم الحياة الأبدية أن من يدركها مرة لا يفقدها للأبد وقد توهم البعض خلاف ذلك فكان وهمهم ضلالاً لأن السعادة تقوم بمجموع خيرات لا يمازجها أدنى شر وتملئُ شهوة الإنسان فاقتضى من باب الضرورة أن تقوم بالحياة الأبدية. اذ ليس في استطاعة الإنسان السعيد أن لا يشتهي من كل قلبهِ أن يتمتع للأبد بتلك الخيرات التي نالها. ولهذا اذا لم يكن هذا الامتلاك ثابتاً وراهناً لا يعتريه زوال لزم من ذلك أن يكون السعيد معذباً بالخوف من فقدانهِ وبالتالي لا يكون سعيداً.

رابعاً: في أن العقل البشري لا يستطيع أن يدرك السعادة

الأبدية

ان قولنا الحياة السعيدة يدل دلالة كافية على أن ما من أحد يستطيع أن يدرك مقدار السعادة التي يتمتع بها العائشون في الوطن السماوي الاّ الطوباويون وحدهم لأننا فيما نعبر عن شيء باسم يعم

(164)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

كثيرين غيره نفهم بسهولة أن تلك العبارة قاصرة عن الدلالة على الشيء المقصود بيانه. فإذن متى عبرنا عن السعادة بكلام لا يتناول فقط السعداء بل جميع الذين يحبون على الدوام تبين لنا أن المقصود هو شيءً ارفع وإسمي ما نقدر أن نبينهُ بهذه العبارة بحسب ما فيهِ من الحقيقة والكمال. لأن الأسماء التي تطلقها الأسفار الإلهية على هذه السعادة وان كانت كثيرة كملكوت الله (متى ص 5 عـ 23). ملكوت المسيح. ملكوت السماوات الفردوس.

المدينة المقدسة أورشليم الجديدة. بيت الآب.

فمن المحقق أن ما من واحد منها كفوءٌ لبيان عظمتها. ولهذا لا يهملنَّ الرعاة أن يتخذوا في هذا المقام مندوحة لاستهمام المؤمنين إلى اتقان التقوى والبر وقضاء كامل فروض الديانة المسيحية رغبة في نوال الثواب العظيم المعروف بالحياة الأبدية.

لأنهُ من المحقق أن الحياة تعد عادة بين أعظم الخيرات التي يتوق إليها الطبع البشري والحال أن السعادة تحد وتعرف بهذا الخير الذي نسميه الحياة الأبدية. فإن كانت هذه الحياة القصيرة الشافة والموعبة أكداراً وبلايا والحرية بأن تسمى موتاً هي أحب وأعز وآثر من كل ما سواها.

فيكم من الاجتهاد والحمية يجب علينا أن نسير في أثر الحياة الأبدية الخالية من كل شر والحاولة مجموع الخيرات بكمالها.

خامساً: ان السعادة قائمة بنوال كل خير والنجاة من كل شر

قد أفاد الآباء القديسون أن سعادة الحياة الأبدية تحد بالنجاة من جميع الشرور ونوال جميع الخيرات أما نجاتها من الشرور فلنا

(165)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

على ذلك بينات غاية في السداد والوضوح في الكتاب المقدس. فقد كتب في سفر الرؤيا. فلا يجوعون بعد ولا يعطشون ولا تأخذهم الشمس ولا المطر البتة (ص 7 عـ 16) وفيه أيضاً: ويمسح الله كل دمعة من عيونهم ولا يكون بعد موت ولا نوح ولا صراخ ولا وجع لأن ما كان سابقاً قد مضى (ص 21 عـ 4) ومجد الطوباويين في السماء لا قياس لهُ وضروب لذاتهم ونعيمهم وأفراحهم لا تحصى فلا يدرك ذلك الان عقل بشري ولا يمكن أن يخطر على بال مخلوق فلزم أن ندخل إلى ذلك المجد اي الى فرح ربنا ونُشمل بهِ فيملأُ شوق نفوسنا.

سادساً: ما الخيرات التي يتمتع بها الطوباويون على وجه

الخصوص

ولو كنا كما قال القديس أغوسطينوس نقدر أن نحصي الشرور التي سوف ننجو منها أكثر مما أن نعد الخيرات واللذات التي سوف نتمتع بها في الآخرة السعيدة مع ذلك لابد من بذل الجهد في تبيينها للمؤمنين بياناً جلياً وعلى وجه الإيجاز كي تضطرم قلوبهم تشوقاً إلى الحصول على تلك السعادة إنما يقتضي في بادئِ البدءِ ان نميز فيها ما ميزه اللاهوتيون فإنهم علموا أن الخيرات المشار إليها على نوعين. احدهما خاص بجوهر السعادة وثانيهما تابع لها.

فدعوا خيرات النوع الأول جوهرية والأخرى عرضية.

(166)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

سابعاً: بماذا تقوم علة السعادة الأبدية الأولى والجوهرية

اما السعادة الراهنة التي ندعوها جوهرية تقوم في مشاهدة الله والتمتع بجماله لأنه ينبوع ومصدر كل جود وكمال. قال المسيح الرب: هذه هي الحياة الأبدية ان يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك والذي أرسلتهُ يسوع المسيح (يوحنا ص 17 عـ 3) وقد فسر يوحنا الرسول هذه الآية بقوله: أيها الأحباء نحن الآن أبناء الله ولم يتبين بعد ماذا سنكون غير اننا نعلم أنهُ اذا ظهر نكون نحن أمثاله لأننا سنعاينه كما هو (يوحنا 1 ص 3 عـ 2) أشار بهذا الكلام إلى أن السعادة تتوقف على هذين الأمرين أي على مشاهدة الله كما هو في طبعهِ وجوهرهِ وعلى كوننا نصير كآلهة. لأن الذين يتمتعون بهِ ولو استمروا على جوهرهم غير أنهم يلبسون هيئَة عجيبة تكاد تكون إلهية فيرون كأنهم آلهة لا بشر.

ثامناً: كيف يلبس الطوباويون هيئة الله وشبهه

أما كيفية هذا الأمر فتظهر فيما أن كل شيء يعرف أما من ذاتهِ واما من شبهِ أو من نوعه ومن حيث لا يوجد شيءٌ يشبه الله لنتمكن بمعاونة شبههِ من البلوغ إلى معرفتهِ الكاملة. ينتج أن ما من أحد يستطيع سبيلاً إلى مشاهدة طبع الله وذاتهِ ما لم تتحد بنا تلك الذات الإلهية بعينها وقد عبر عن ذلك رسول الأمم بقولهِ: لأننا الآن ننظر في المرآة على سبيل اللغز. أما حينئذٍ فوجهاً إلى وجه (قورنتية 1 ص 13 عـ 12) أما قوله على سبيل اللغز فقد أوّلهُ القديس أغوسطينوس على سبيل الشبه المحكم لأن نعقل الله وقد أبان هذا نفسه القديس ديونيزيوس بصريح العبارة اذ أثبت أن ما من شيءٍ

(167)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

من العلويات يدرك بشبه السفليات. فلا يمكن أن تعرف بشبه شيءٍ جسدي ذاتية الشيء الخالي من الجسد وجوهره اذ من اللازم أن أشباه الأشياء ذاتها حتى يتصور شبهها كما نختبر ذلك في معرفة جميع الأشياء فحيث لا يمكن أن يوجد شبه شيءٍ مخلوق بسيط وروحي مثل الله سبحانهُ فلا نستطيع أن نعقل بالتمام الذات الإلهية من شبه شيءٍ مخلوق. وزد على ذلك أن جميع الأشياء المخلوقة منحصرة في حدود كمال معلوم أما الله سبحانهُ فهو غير متناهٍ كمالاً وما من شبه شيءٍ مخلوق يقدر أن يدرك عدم ممسوحيتهِ. فعليه ما من سبيل الى معرفة الجوهر الإلهي الاَّ أن يتحد بنا ويرفع فهمنا إلى درجة سامية لا تدرك كي نصير كفوءاً إلى مشاهدة صورة طبيعتهِ.

تاسعاً: ان الطوباويين يستنيرون بنور المجد وعلى الجميع

أن يتشوقوا بكل الرجاء إلى مشاهدة الله

اننا سندرك ذلك بنور المجد لما نستنير بالضياءِ الإلهي فنشاهد الله النور الحقيقي بنوره نفسهِ لأن الطوباويين يعاينون الله على الدوام حاضراً أمامهم ويصيرون شركاء الذات الإلهية بواسطة هذه الموهبة الفائقة قدراً كل ما سواها فيتملكون السعادة الراهنة الحقة التي ينبغي أن نعتقدها اعتقاداً يجعلنا نتوقعها من رأفة الله برجاء وثيق كما قد تقرر في قانون الآباء حيث قال نترجى قيامة الموتى و الحياة في الدهر العتيد.

(168)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

عاشراً: يبين بشبه كيف يتحد الإنسان بالله في السعادة

لا يمكنا قط أن نعبر عن هذه الأمور الإلهية بالكلام ولا أن ندركها بفكرنا انما يتاح لنا أن نرى صورة هذه السعادة حتى في الأشياء التي تدرك بالحواس فإن الحديد اذا قاربتُه النار خرقتهُ فيرى متغيراً كأنهُ نار وأن لم يتغير جوهره وعلى هذا النحو من يفوزون بذاك المجد السماوي يضطرمون بنار محبة الله فيتغيرون مع بقائهم على جوهرهم حتى يقال فيهم بحق أنهم يفترقون عن الذين في هذه الحياة افتراقاً أعظم من افتراق الحديد المحمي عن الحديد البارد الخالي من قوة الحرارة. وخلاصة القول ان هذه السعادة العظمى الكاملة التي ندعوها جوهرية تقوم في امتلاك الله. ولا غروَ ان من يملك الله الخير الأعظم والكمال الأكمل لا يمكن أن ينقضهُ شيء لسعادتهِ الكاملة.

الحادي عشر: ما هي الخيرات العرضية التي تشمل الطوباويين

ويضاف إلى السعادة المار ذكرها بعض محاسن تعم جميع الطوباويين ولا تبعد كثيراً عن المدارك البشرية بل أنها جديرة أيضاً بإنعاش قلوبنا وترقيتها إلى التأمل في معالي النعيم الأبدي وقد أشار إليها رسول الأمم بقولهِ: المجد والكرامة والسلام لكل من يعمل الصلاح (رومة ص 2 عـ 10).

فالطوباويون لا يتمتعون بذاك المجد فقط الذي ابنا أنهُ يختص بذات الله ومتحد بجوهرها بل بالمجد القائمِ بأن كل واحد منهم يعرف أيضاً معرفة جلية واضحة ما للآخرين من المقام السامي المنيف.

فما أعظم تلك الكرامة التي يمنُّ الله بها عليهم اذ لم يعودوا يحسبون عبيداً بل خلاَّناً وأخوة وأبناء الله.

(169)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ولهذا ينادي مخلصنا مختاريه بكلام تناهى بالحب والإكرام قائلاً: هلموا يا مباركي أبي رثوا الملكوت المعد لكم (لوقا ص 12 عـ 4) فجاز لنا حقاً أن نهتف مع داود النبي: لقد كرُم اصفياؤُك يا الله كثيراً واعنزت رئاستهم (مزمور 37 عـ 17) بل يمدحهم المسيح الرب ويُعلي شأنهم أمام الآب السماوي وملائكته. فإن كان جميع البشر من طبعهم يهوون الكرامة الوافدة إليهم من أهل الحكمة والرفعة اذ يعدُّونهم شهوداً أجلاّء لفضيلتهم فكم نظن يكون أعظم مجد الطوباويين وكل واحد يتحف الآخر بأعظم الاكرام والاجلال.

الثاني عشر: في أنواع الخيرات التي يتمتع بها الطوباويون

في الاخدار السماوية

لا تحصى اللذات التي يقاض على مجد الطوباويين ولا نقدر أن نتصورها بفكرنا إنما ينبغي أن يتحقق المؤمنون أن كل ما يمكن أن يعرض لنا أو نشتهيه من الخير في هذه الحياة سواء كان من معارف العقل أو محاسن الجسد وكمالهِ يتنعم بهِ الطوباويون في السماء بنوع اسمى مما تنظره عين او تسمع بهِ أذن أو يخطر على قلب إنسان كما قال رسول الأمم (قورنتية 1 ص 2 عـ 9) لأن الجسد الذي كان قبل القيامة كثيفاً ضخماً قد صار في السماء لطيفاً روحانياً بتملصهِ من قابلية الموت (قورنتية 1 ص 15 عـ 42)، لا يحتاج بعد إلى أدنى قوت أما النفس فتشبع بلذة عظمى من وليمة المجد الأبدي التي يولمها الرب وهو يشد وسطه ويدور ويخدم فيها جميع المدعوين. وهناك ما من أحد يشتهي الملابس الثمينة والحلى حيث لم يبقَ لها استعمال لأن الجميع قد تمنطقوا بنطاق الديمومة

(170)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

والبهاء وتحلوا بعقود المجد الأبدي وان اشتهى أحد داراً فسيحة مليحة طلباً للسعادة البشرية فهل يستطيع أحد أن يتصور بفكره داراً افسح وأحلى من السماء نفسها الساطعة بضياء مجد الله الأعظم. ولهذا لما كان النبي داود يضع نصب عينيه جمال بيت الله السماوي كان يضطرم تشوقاً إلى هاتيك الربوع السعيدة ويقول: ما أحب مساكنك يا رب الجنود تشتاق وتذوب نفسي إلى ديار الرب ويرنم قلبي وجسمي للإله الحي (مزمور 83 عـ 2 و 3) فعلى رعاة النفوس إذن ان يرغبوا من صميم قلوبهم ويبذلوا كل جهدهم في أن جميع المؤمنين يرنمون بمثل هذا الترنيم ويشعرون بمثل هذا الشوق.

الثالث عشر: في أن الطوباويين لا ينالون ثواباً واحداً

بعينهِ بدون فرق فيما بينهم

لأن الرب يقول: أن في بيت ابي منازل كثيرة (يوحنا ص 14 عـ 2) ففيها يكون الثواب أعظم أو أقل لكل واحد حسب استحقاقهِ: ان من يزرع قليلاً يحصد قليلاً ومن يزرع البركات يحصد البركات (قورنتية 2 ص 8 عـ 6) فبناءً عليهِ يلزم الرعاة لا أن يحضوا فقط المؤمنين على التشوق إلى هذه السعادة بل أن يواصلوا أيضاً التنبيه لهم بأن الواسطة الأمينة المبلغة اليها هي الثبات على الإيمان والمحبة والمواظبة على الصلاة والاعتراف والتنازل والاكثار من أعمال الرحمة نحو القريب. وهكذا برحمتهِ تعالى الذي أعدّ ذاك المجد السعيد للذين يحبونهُ يتم ما قالهُ أشعيا النبي: يسكن شعبي في مقام السلام وفي مساكن الطمأنينة وفي محال النرّف (ص 32 عـ 18).

ـــــــــــــــــــــــــــــــــ

(171)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

القسم الثاني

من التعليم المسيحي الروماني

الفصل الأول

"في الأسرار بالعموم"

أولاً: يجب على الراعي أن يعلم الشعب باجتهاد ما يلزمهُ

معرفتهُ من الأسرار المقدسة

لما كان كل قسم من التعليم المسيحي يستلزم معرفة واجتهاداً في تعليمهِ اقتضى أن تعليم الأسرار المقدسة الشديد اللزوم بأمر الله تعالى والمتضمن فوائد جمة يستلزم من راعي النفوس جدارة وحذفاً مخصوصين كي يتلقنهُ المؤمنون باجتهاد وتواتر فيغدون

(172)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

في حالة تمكنهم من اقتبال الأمور الفائقة بالجلال والقداسة باستيهال وعلى وجه يفيدهم للخلاص ولا يحول الكهنة عما نهاهم عنه المسيح الرب في مقولهِ: لا تعطوا القدس للكلاب ولا تلقوا جواهركم قدام الخنازير (متى ص 7 عـ 6).

ثانياً: ماذا يراد بلفظة سر

لما كان كلامنا هنا في الأسرار بوجه العموم لزمنا ان نشرع ببيان فحوى اسم السر وتعريفه وبايضاح ما التبس من معناه كي يتوفر لنا في هذا المقام فهم معنى هذا الاسم الخاص وعليهِ يجب ان يتعلم المؤمنون أن اسم السر بمقتضى ما نقصد بهِ قد وضعهُ هنا كتبة الكنيسة لغير ما وضعهُ العالميون لأن بعض العلماء أرادوا أن يعنوا باسم السر ذاك الالتزام الذي يتقيد بهِ الحالفون لدى دخولهم في خدمة ما او وظيفة. ومن ذلك اليمين الذي يقسمهُ الجنود واعدين بأن يخدموا المملكة بأمانة قد سمي سراً جندياً ويظهر أن قد غلب اصطلاحهم على معنى هذه العبارة. أما عند الآباء اللاتين الذين سلمونا الأمور المقدسة بمصنفاتهم قاسم السر هو عبارة عن شيء مقدس محجوب عن النظر وكذلك الآباء الشرقيون قد اصطلحوا على التعبير بكلمة سر عن هذا المعنى نفسهِ. فنحن أيضاً نعول على هذا القول في اتخاذ لفظة سر جرياً على قول الرسول المعظم في كتابتهِ إلى أهل أفسس حيث يقولك إذا علمنا سر مشيئَتهِ (ص 1 عـ 16) وفي سفر الحكمة: لم يعرفوا أسرار الله (ص 2 عـ 22) فلنا أن نعتبر في هذه المحال وكثير غيرها أن السر لا يعني إلاَّ شيئاً مقدسـاً محجوباً وخفياً.

(173)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثالثاَ: ان الآباء خصصوا اسم السر للدلالة على أشياء مقدسة

وهذا اصطلاح قديم

ولهذا قد استصوب العلماء اللاتينيون أن يدعوا أسراراً بعض علامات حسية تدل على النعمة التي تصدرها وكأنها تظهرها للعيان.

واستحسن القديس غريغوريوس ان يسميها أسراراً لأن قدرة الله تصدر النعمة وهي تحت حجب المواد الجسدية ولا يظنَّ أحد ان هذا الاصطلاح حديث في بيعة الله لأن من يطالع كتب القديس ايرونيموس والقديس غريغوريوس يرى جلياً أن كتبه ديانتنا المقدسة الأقدمين كثيراً ما اتخذوا اسم السر للدلالة على ما ذكر وأحياناً أيضاً عبروا عن السر بلفظة رمز أو إشارة سرية أو علامة مقدسة وقد دعيت هذه باسم سر لأنها تناسب أسرار الشريعة القديمة التي لم يعد للرعاة حاجة إلى الاتيان بيانها للمؤمنين لأنها زالت بشريعة الانجيل والنعمة.

رابعاً: على أي شيءٍ بالخصوص يدل السر عند العلماء

الكاثوليك

اننا بعد ان بينا مدلول اسم السر لزم ان نستقصي فحواه وجوهره ونعلن للمؤمنين ماهية السر فنقول: ان ما من أحد يشك في أن الأسرار هي من أنواع الأشياء المقدسة التي بها ننال الخلاص والبر ولنا حجج كثيرة تستبين قاطعة وسديدة لإيضاح هذا الأمر الاَّ أننا نرى

(174)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

أن أوضحها واجلاها بياناً هو التعريف الذي أورده القديس أغوسطينوس ووافقهُ عليه فيما بعد جميع العلماء اللاهوتيين قال: ان السر هو علامة شيء مقدس. أو بعبارة أخرى : ان السر هو علامة منظورة لنعمة غير منظورة وضع لتبريرنا.

خامساَ: في قسمة الاشياء المحسوسة وفيما يجب فهمهُ باسم علامة

ينبغي على الرعاة أن يبينوا بالتفصيل كلاًّ من أجزاء هذا التعريف ليزيدوه وضوحاً ويلزمهم أن يعلموا في باديء البدء أن الأشياء جميعها الواقعة تحت الحواس على نوعين. منها ما أبدع ليدل على شيء آخر ومنها ما وجد للدلالة على نفسهِ فقط لا على شيءٍ آخر فتدخل في هذا النوع الثاني أكثر الأشياء الطبيعية وفي النوع الأول أسماء الأشياء والكتابة والرايات والأبواق والصور وما يضاهي ذلك لأن اذا جردت عن الأسماء قوة دلالتها زال السبب الذي وضعت لأجلهِ فهذه اذن تدعى بحصر المعنى علامات لأن العلامة على ما ذهب إليهِ القديس أغوسطينوس ما عدا أنها تفيدنا الشيء الواقع تحت االحواس تجعلنا أيضاً نستفيد منها معرفة شيء آخر كما اذا شاهدنا أثر القدم مرسوماً على الأرض نعرف ان قد جاز من هناك بعض الناس الظاهرة لنا آثار قدمهِ.

سادساً: كيف يتبين أن الأسرار داخلة في نوع العلامة

لما كان الأمر كما ذكر تبين أن السر يعود إلى نوع الاشياء التي وضعت للدلالة على شيءٍ من حيث أنها تدلنا بشكل أو شبه على

(175)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ما يفعلهُ الله في نفوسنا بقدرتهِ الإلهية التي لا تدرك بالحواس لأن العماد (نقول على سبيل المثل بما أنهُ يزيد التعليم وضوحاً) حين نغتسل في الخارج بالماء مع استعمال كلمات معلومة واحتفالية يدل على اغتسالنا في الباطن من كل دنس الخطية وشناعتها بقوة الروح القدس ونماء نفوسنا وازديانها بتلك الموهبة الفاخرة موهبة البر السماوي وعلى كون ذاك الغسل الجسدي يعمل في النفس ما يشير إليهِ كما سيتبين ذلك في محلهِ.

سابعاً: في أن هذا الأمر نفسهُ يتبين من الكتاب المقدس

يتلخص أيضاً من الأسفار الإلهية أن السر يجب أن يعد بين العلامات لأن رسول الأمم كتب إلى الرومانيين بخصوص الختان سر الشريعة القديمة التي أعطيت لابراهيم أبي جميع المؤمنين يقول: قد أخذ سمة الختان خاتماً لبر الإيمان (رومية ص 4 عـ 11) وفي محل آخر: أتجهلون أن كل من اصطبغ منا بيسوع المسيح اصطبغ في موتهِ فدفنا معهُ في الموت (رومة ص 6 عـ 3) فيفهم أن المعمودية تشير إلى معنى هذا الشيء أي الى دفننا معهُ بالمعمودية في الموت ويفيد كثيراً أن الشعب المؤمن يعقل أن الاسرار تتعلق بالعلامات بحيث يسهل عليهِ أن يتحقق أن ما تحتويه وتدل عليه وتصدره جليل ومقدس واذا ما عرف قداستها يزداد حماسة إلى توفير احسان الله إلينا واكرامه.

ثامناً: كم هي أنواع هذه العلامات

يلي هنا أن تبين فحوى هذه العبارة شيءٌ مقدس وهي الجزءُ الآخر

(176)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

من تعريف السر. فلكي يتسهل لنا ذلك يلزمنا أن نراجع ما مرَّ آنفاً وما ذكره القديس أغوسطينوس عن قداسة العلامات وجاور فيهِ بالتحريّ والدقة. فإن بعض العلامات تدعى طبيعية وهي التي ما عدا أنها تبين ذاتها (وذلك يعم جميع العلامات كما بينا) فإنها تنشيء في نفوسنا معرفة شيء آخر كالدخان مثلاً فإن من يراه يعلم حالاً بوجود النار ولهذا السبب تدعى هذه العلامة طبيعية لأن الدخان يدل على النار لا بإرادة الإنسان بل أن استعمال الأشياء يجعل من ينظر دخاناً فقط يدرك بالعقل والفكر وجود جوهر النار وقوتها التي لم تزل محجوبة تحت الدخان. ومن العلامات ما ليس بعلامة من نفس الطبيعة إنما اخترعه البشر وجعلوه علامة ليتمكنوا بها من المخاطبة ومكاشفة الأفكار فيما بينهم والاطلاع على حكم الآخرين وآرائهم. ونعلم أن هذه كثيرة عدداً ومختلفة أنواعاً لكون بعضها يختص بحاسة النظر وبعضها بحاسة السمع وباقيها بباقي الحواس لأننا حين نشير إلى أحد بشيء مثلاً اذا رفعنا راية اشارة إلى شيءٍ ما تحققنا أن ذلك دلالة تختص بالنظر فقط. وكما أن صوت الأبواق والقيثار الذي يبرز لا للالتذاذ فقط بل على الأغلب للدلالة على معاني يختص بحكم الآذان وبهذه الحاسة خاصة يدرك أيضاً الكلام الذي لهُ أعظم قوة على كشف أفكار العقل الباطنة.

تاسعاً: في العلامات التي وضعها الله سبحانهُ في العهد القديم

والعهد الجديد

عما عدا ما ورد ذكر من العلامات التي وضعت بإتفاق الناس

(177)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

واصطلاحهم توجد علامات أخرى وضعها الله سبحانهُ وليست من جنس واحد باتفاق القول لأن بعضها قد أمر الله البشر باستعمالها للدلالة على شيء تشير أو تنبه إليه ومن هذا النوع تطهيرات الناموس والخبز الفطير إلى غير ذلك مما كان يختص برسومات الديانة الموسوية وغيرها ما وضعها الله لا للدلالة فقط على شيءٍ بل خولها قوة لفعل شيءٍ وانشائه. فمن هذا النوع الأخير هي أسرار الشريعة الجديدة بدون شبهة. لأننا نعتقد يقيناً أن العلامات التي سلمها الله وليست اختراع بشر تحوى بذاتها فاعلية لإنشاءِ المقدس الذي تشير إليهِ.

عاشراً: كيف ينبغي أن نفهم الشيء المقدس في تعريف السر

كما ابنا أن العلامات كثيرة ومحتلفة هكذا ينبغي أن نعتبر أن الشيء المقدس ليس من نوع واحد اما نظراً إلى تعريف السر المثبت أعلاه فقد أفادنا علماءُ اللاهوتِ أن الشيء المقدس هو نعمة الله التي تصيرنا قديسين وتحلينا بعقود جميع الفضائل الإلهية وقد أصابوا بإطلاق اسم الشيء المقدس على هذه النعمة لأن نفسنا بواسطتهِ تتكرس لله وتعتصم به.

الحادي عشر: في تفصيل تعريف السر وفيما يميزه عن باقي

العلامات المقدسة

ينبغي أن يقال تفصيلاً لماهية السر أنهُ شيءٌ حسي رسمهُ الله يحتوي قوة الدلالة على القداسة والبر وانشائها فينتج من ثم أن كل

(178)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

أحد يستطيع أن يعقل على أيسر منوال أن صور القديسين والصليب وما شاكلها ولو كانت علامات لأشياء مقدسة ليست مع ذلك بأسرار. وما من أشكال في اثبات تعليم هذه الحقيقة بمثال جميع الأسرار اذا رمت أن تطلق على باقي الأسرار ما ذكرناه سابقاً عن سر المعمودية حيث قلنا أن غسل الجسد الظاهر هو علامة ويحتوي فاعلية للشيء المقدس الذي ينشأُ فينا باطناً بقوة الروح القدس.

الثاني عشر: في أن الأسرار لا تدل على شيء واحد فقط

بل على اشارة كثيرة

ان ما يناسب خاصة هذه العلامات السرية المرسومة من الله هو أنها من قبل الرسم الإلهي لا تدل على شيءٍ واحد فقط بل على أشياء كثيرة معاً وهذا ما نعرفهُ في كل من الأسرار التي لا تدل على قداستنا وبرنا فقط بل على شيئين آخرين أيضاً متحدين أعظم اتحاد بهذه القداسة وهما آلام المسيح الفادي علة القداسة والحياة الأبدية أي السعادة في الآخرة التي ينبغي أن تتجه اليها قداستنا كإنما إلى غايتها.

واذ يمكننا أن نلاحظ ذلك في جميع الأسرار قد أصاب علماء اللاهوت فيما علموه من أن كلاّ من الأسرار يحوى في ذاتهِ قوة للدلالة على ثلاثة أشياء. أي أنهُ يخطر على بالنا أمراً ماضياً ويدل على أمر حاضر وينبيء عن أمر مستقبل ولا تحسبنَّ أولئك العلماء يأتون بهذا التعليم بدون أن يثبتوه بنصوص الكتاب المقدس لأن الرسول المعظم قال: نحن الذين اصطبغنا بيسوع المسيح اصطبغنا بموتهِ (رومة ص 6 عـ 3) أشار بصريح العبارة إلى أن المعمودية علامة تدل على آلام الرب وموته. ثم لما قال: لأننا دفنا معهُ

(179)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

بالمعمودية في الموت حتى أننا كما أقيم المسيح من بين الأموات بمجد الآب كذلك نسلك نحن أيضاً في جدة الحياة (رومة ص 6 عـ 5) ابان بكلامهِ هذا ان المعمودية علامة تدل على النعمة السماوية المفاضة في نفوسنا والتي بها نعطى ان نسلك بحياة جديدة ونتمم على أيسر منوال وبطيبة خاطرنا كامل فروض التقوى الحقيقية. وفي الآخر حين أردف كلامهُ بقوله: لانا إذا كنا قد غرسنا معهُ على شبه موته فنكون على شبه قيامتهِ (ص 6 عـ 5) أعلن أن المعمودية تشير أيضاً إشارة جلية إلى الحياة الأبدية التي سوف ندركها بواسطتهِ.

الثالث عشر: ان السرّ لا يدل فقط على شيءٍ واحد حاضر

بل على أشياء كثيرة

وما عدا ما ذكرناه من أنواع الدلالة وطرقها كثيراً ما يتفق أن السر لا يدل على شيءٍ واحد حاضر فقط بل على أشياء كثيرة ودليل ذلك أن سر الافخاريستيا المقدس يعلن للمتبصرين وجود جسد الرب ودمه الأقدسين والنعمة التي ينالها من يتناولون الأسرار المقدسة بقلب نقي.

فبعد أن أوردنا هذا كلهُ لا يفتقر الرعاة إلى حجج يبينون بها عظم القدرة الإلهية ووفرة العجائب المكنونة في أسرار العهد الجديد كي يقنعوا الجميع بوجوب تكريمها وقبولها بورع وعبادة.

(180)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الرابع عشر: لماذا كان رسم الأسرار من الأمور اللازمة

عند المسيحيين

ما من شيءٍ اصلح تعليماً لاستعمال الأسرار كما يجب من أن تورد بتدقيق الأسباب التي من أجلها وجب رسم الأسرار وهي كثيرة وأولها ضعف العقل البشري لأننا نرى أن الإنسان من طبعهِ لا يتوق إلى معرفة تلك الأشياء التي تدرك بالعقل الاَّ بواسطة تلك التي تدرك بحاسة من الحواس. فلكيما ندرك اذن بأوفر سهولة ما تصنعهُ قدرة الله الخفية رتب خالق الأشياء جميعها بحكمتهِ الفائقة ولعظم رأفتهِ نحونا أن يعلن لنا قدرته ببعض علامات تقع تحت الحواس لأنهُ كما قال القديس يوحنا الذهبي الفم قولاً صريحاً لو كان الإنسان خالياً من الجسد لكان أعطي الخيرات البسيطة الغير الواقعة تحت طي الحجب المادية.

ولكن لما كانت النفس متحدة بالجسد لزم الأمر أن يستعين بالأشياء المحسوسة كي يتوصل إلى أدراك الأشياء الغير المحسوسة.

السبب الثاني هو أن عقلنا لا يتحرّك بسهولة إلى اعتقاد الأشياء التي نوعد بها ولهذا نرى الله سبحانهُ منذ إنشاءِ العالم قد اعتاد أن يكرر الكلام الذي به يشير إلى ما رسم أن يصنعهُ  
وأحياناً اذا ما رسم شيئاً قد يتفق أن عظمتهُ تذهب بتصديق حقيقة وجوده كان يضيف إلى الكلام علامات أخر تحتوي نوعاً من الآيات المعجزة: لأنهُ لما أرسل الله موسى لانقاذ الشعب الإسرائيلي من عبودية مصر فلئلا يخشى موسى مع اتكالهِ على معونة الآمر من أنه لا يقوى على حمل ما فوّض إليه من ذاك الأمر الباهظ أو من أن الشعب لا يصدق الأنباء والأقوال الإلهية أثبت الرب

(181)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وعده بكثير من العلامات المختلفة. فكما صنع الله في العهد القديم بأنه أثبت مواعيده العظيمة بالعلامات هكذا أيضاً مخلصنا في العهد الجديد لما وعدنا بمغفرة الخطايا وبالنعم السماوية وشركة الروح القدس رسم نصب عيوننا وحواسنا علامات تقوم لدينا مقام عهد وعربون للحصول على ما وعد بهِ بحيث لا يمكننا أبداً أن نشك بصدق مواعيده.

السبب الثالث هو أن تكون الأسرار كما كتب القديس امبروسيوس مثل أدوية وعلاجات السامري المذكور في الإنجيل معدة لشفاء النفوس أو استرداد شفائها أو وقايتها من العطب. اذ اقتضى أن القوة الصادرة عن آلام المسيح أي النعمة التي استحقها لنا على مذبح الصليب تسري إلينا بواسطة الأسرار كقنوات وبخلاف ذلك لا يبقى لأحد رجاء بالخلاص بتةً. ولهذا قد شاءَ الرب الرؤُوف أن يودع الكنيسة أسراره معزَّزة بوعده وبكلمتهِ لكيما نعتقد اعتقاداً عارياً من كل شبهة أننا ننال بها حقيقة ثمرة آلامهِ اللهمَّ اذا ما تأهب كل منا بالتقوى والعبادة إلى تناول هذا العلاج.

ويضاف إلى ما مرَّ سبب رابع يقضي بلزوم رسم الأسرار وهو لتكون بمنزلة علامات وسمات يتميز بها المؤمنون عن سواهم ولاسيما أن ما من قوم (كما أفاد القديس أغوسطينوس) سواءَ كانوا مستمسكين بعروة الدين الحق أو الكاذب يأتلفون كجسم واحد الاَّ ترابطوا فيما بينهم بعهد من عهود العلامات المنظورة. فأسرار العهد الجديد تفيدنا كلا الأمرين وهي أنها تميز أصحاب الديانة

(182)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الديانة المسيحية من غير المؤمنين وتربطهم فيما بينهم برباط مقدس. ثم ان قول رسول الأمم: لأنه بالقلب يؤمن الإنسان للبر وبالفم يعترف الخلاص (رومة ص 10 عـ 10) يدلنا على أن لرسم الأسرار سبباً آخر غاية في السداد لأننا نظهر بالأسرار ايماننا ونجاهر به أمام جميع الناس ولهذا لما نتقدم إلى المعمودية نشهد علناً أننا نؤمن أن بقوة الماء الذي نغتسل بهِ في العماد تطهر نفوسنا تطهيراً روحياً. ثم ان للأسرار قوة عظيمة ليس على انعاش الإيمان في نفوسنا والعمل بموجبهِ فقط بل على اضرام نار المحبة أيضاً التي يجب أن يحب بها بعضنا بعضاً لأن الاشتراك بالأسرار يذكرنا أننا تفيدنا فيما بيننا برباط شديد وصرنا أعضاء لجسد واحد.

وأخيراً مما يجب أن يعتبره كثيراً محبو التقوى المسيحية هو أن الأسرار تكبح جماح خيلاء العقل البشري وتذلها وتدربنا على التواضع حين تجبر على اخضاع ذواتنا للعناصر الحسية في سبيل طاعتهِ تعالى الذي كنا فيما مضى افترقنا عنهُ وخدمنا عناصر العالم الحقيرة.

هذا ما رأينا تعليمهُ واجباً للشعب المؤمن في شأن اسم السر وجوهره ورسمهِ على وجه الخصوص. فغل أن يكون الرعاة احسنوا بيانه يلزمهم أن يعلموا بأية أشياء يقوم كل من الأسرار وما هي أجزاؤُه ثم ما أضيف إليهِ من الطقوس والرسوم.

الخامس عشر: في الأجزاءِ اللازمة لقيام كل من الأسرار

ينبغي أن نبين اذن أولاً أن الشيء الحسي الذي ورد الكلام عليهِ في

(183)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

تعريف السر ليس واحداً فقط وان كان من الواجب أن نعتقد أنهُ يقوم عنهُ علامة واحدة. لأن كل سر يقوم بشيئين أحدهما ما لهُ حقيقة المادة ويدعى مادة السر والآخر ما لهُ قوة الصورة ويدعى صورة وكلاماً بالإجمال. هكذا علمنا الآباء. ومن المعلوم والمشهور في هذا الصدد ما قالهُ القديس أغوسطينوس: متى أضيف الكلام إلى العنصر قام السر. فالمفهوم اذن باسم الشيء الحسي المادة أو العنصر كالماءِ في سر العماد والميرون في سر التثبيت والزيت في سر المسحة الأخيرة وكل ذلك يقع تحت النظر الحسي. ثم الكلام أو اللفظ المشتمل على حقيقة الصورة ويخص حاسة السمع. وقد أشار الرسول المعظم إلى هذين الشيئين بصريح العبارة اذ قال: قد أحب المسيح كنيستهُ وبذل نفسهُ دونها ليقدسها ويطهرها بغسل الماء وبكلمة الحياة (أفسس ص 5 عـ 26)، ففي هذا الحل يعبر عن مادة السر وصورته.

السادس عشر: لماذا يضاف الكلام إلى المادة

ج يجب أن يضاف الكلام إلى المادة لتظهر الدلالة على الشيء المفعول بأوفر وضوح وأجلى بيان. لأنهُ من البين أن الألفاظ تحتوي أعظم قوة بين جميع العلامات بحيث أو فقدت لوقع الالتباس التام فيما تدل عليهِ وتعنيه مادة الأسرار لأننا كما نرى في المعمودية ان للماء قوة للترطيب والغسل بالسواء وقد يمكن أن يكون علامة لكل منهما أن لم يضف الكلام ولا نقدر نحكم على أيهما يدل الاَّ بوجه التخمين. اما حين يلفظ الكلام حالاً نفهم أن الماءَ في سر العماد لهُ قوة الغسل وأنه يشير إليهِ.

(184)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

السابع عشر: في عظمة أسرار العهد الجديد

ان أسرارنا تسمو كثيراً على أسرار العهد القديم من قبيل أننا لم نرَ للأسرار القديمة أدنى صورة مقررة تراعى في مباشرتها ولذلك كانت مشبوهة ومبهمة جداً. أما أسرارنا فلها صورة ألفاظ مقررة ومعينة بحيث اذا وقع فيها خلل فسد جوهر السرّ ولهذا السبب هي بينة جلياً لا يشوبها أدنى ريب. فهذه هي الأجزاء المختصة بطلع الأسرار وجوهرها ومن الضرورة أن يقوم بها كل سر من الأسرار.

الثامن عشر: ما هي قوة الطقوس وجوهرها في الأسرار

يضاف إلى الأسرار طقوس لا يتأتى اهمالها بدون خطأ الاّ حين تدعو الضرورة إلى ذلك غير أنهُ اذا اهملت حيناً ما لا ينبغي أن نعتقد أن السر يفقد شيئاً من حقيقة جوهره لكونها لا تختص بجوهر السر إنما قد حافظت الكنيسة بحق منذ منشأها على بعض طقوس حافلة في خدمة الأسرار لأنه كان من ألبق الأمور أن تخوّل الأسرار المقدسة نوعاً من الاكرام الديني كي نرى أننا نباشر الأقداس بالقداسة ناهيك أن الطقوس الحافلة تبين أجلى بيان ما يصدره السر وكانها تجعلهُ نصب عيوننا وتطبع في أعماق نفوس المؤمنين ما في هذه الأمور من القداسة ثم ترفع عقول من يتبصرونها ويتأملونها إلى الافتكار بمعالي الأمور القديسة وتنعش فيهم شعائر الإيمان والمحبة. فما أكثر ما ينبغي من بذل العناية والاجتهاد في أن المؤمنين يتدبرون فحوى الطقوس الحافلة المرافقة كلاّ من الأسرار.

(185)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

التاسع عشر: كم هي أسرار الكنيسة الكاثوليكية

يلي ما تقدم أن الاطلاع على عدد الأسرار يجدي نفعاً من قبيل ان الشعب يحوّل بأوفر تقوى وورع جميع قوى نفسهِ الى تمجيد الله وحمده على ما أنعم بهِ عليهِ من فريد الاحسان على قدر ادراكه ما أعدّه لنا من وفير الاسعاف على بلوغ الخلاص والحياة الأبدية. فللكنيسة الكاثوليكية اذن سبعة أسرار كما يثبت من الأسفار المقدسة: الحكمة بنت لها بيتاً ونحتت أعمدتها السبعة (امثال ص 9 عـ 3) ومن تقليدات الآباء التي اتصلت الينا ومن أقوال المجامع التي حدّدت أن الأسرار سبعة.

العشرون: لماذا الأسرار هي سبعة لا أكثر ولا أقل

يتبين أن الأسرار سبعة لا أكثر ولا أقل من مقايسة ما يلزم من الأمور لقيام الحياة الطبيعية مع ما يلزم منها لقيام الحياة الروحية لأن الإنسان يحتاج إلى سبعة أشياء ليحيي ويحفظ حياته ويصرفها في سبيل فائدتهِ وفائدة الجمهور وهي الولادة والنماء والقوت والشفاء اذا أصيب بمرض وتشديد القوى اذا عراه الضعف ونظراً إلى علاقتهِ مع الجمهور يحتاج إلى حكام بتدرَّب بسلطانهم وأمرهم وفي الآخر إلى تكثير سلالة شرعية حفظاً لنفسهِ وللنوع البشري فحيث هذه جميعها تقابل الحياة التي يحياها بالله تبين صريحاً عدد الأسرار المقدسة.

الحادي والعشرون: يتبين من الأسفار المقدسة أن الأسرار سبعة

أولها المعمودية كأنها باب لبقيتها نولد بها ثانية بالمسيح: ان لم يولد

(186)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

أحد من الماء والروح فلا يقدر أن يدخل ملكوت السماء (يوحنا ص 3 عـ 5) ثم التثبيت الذي بقوتهِ ننمو بنعمة الله ونتقوى. قال الرب للرسل بعد ان اعتمدوا كما شهد القديس اغوسطينوس: فامكثوا أنتم في المدينة إلى أن تلبسوا قوة من العلاءِ (لوقا ص 24 عـ 49)، ثم الافخارستيا التي هي حقاً قوت سماوي تفتات بهِ نفسنا وتنتعش. وفيها قال المخلص:

جسدي مأكل حقاً ودمي مشرب حقاً (يوحنا ص 6 عـ 26).

ثم سر التوبة الذي به تعود إلينا صحة النفس بعد فقدانها بما أصابنا من جراح الخطية. ولما قال هذا نفخ فيهم وقال لهم: خذوا الروح القدس من غفرتم خطاياهم تغفر لهم ومن امسكتم خطاياهم تمسك لهم (يوحنا ص 20 عـ 22)، وبعدها المسحة الأخيرة التي تذهب ببقايا الخطايا وتنعش قوى النفس: لأن يعقوب الرسول يقول في كلامهِ على هذا السر وان كانت لهُ خطايا تغفر لهُ ويليها سر الدرجة الذي به يعطى سلطان للأبد على مباشرة الأسرار في الكنيسة وقضاء جميع الوظائف المقدسة وفي الآخر سر الزيجة كي يولد من اقتران الرجل والأمرأة الشرعي والمقدس أولاد يعبدون الله ويحفظون النوع البشري ويربون على الديانة والتقوى.

الثاني والعشرون: ليست الأسرار كلها متساوية قدراً ولزوماً

ينبغي أن نعرف أن الأسرار ولو حوث جميعها قدرة الهية عجيبة مع ذلك ليست كلها بمتساوية لزوماً أو منزلة ولا لجميعها قوة واحدة بعينها للدلالة إنما ثلاثة منا يقال عنها أنها الزم من غيرها ومع هذا ليست على درجة واحدة من اللزوم.

(187)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

لأن المعمودية لازمة لكل أحد على الاطلاق بدليل قوله تعالى: ان كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يدخل ملكوت الله (يوحنا ص 3 عـ 5) أما سر التوبة فلا يلزم الاَّ للذين ارتكبوا خطية مميتة بعد المعمودية لأنهم لا يستطيعون سبيلاً إلى النجاة من الهلاك الأبدي ما لم يتوبوا توبة حقة عن خطبتهم. ثم ان سر الدرجة غير لازم لكل واحد من المؤمنين لكنهُ لازم كل اللزوم لعموم الكنيسة واذا لاحظنا مقام الأسرار في الكنيسة فاق سر الافخارستيا كثيراً جميع باقي الأسرار قداسة وقدراً. وسندرِك هذا جميعهُ على أيسر منوال حين نأتي بالبيان على كل سر من الأسرار في محلهِ.

الثالث والعشرون: من منح هذه الأسرار المقدسة الإلهية

ومن يوزعها على وجه الخصوص

يجب أن ننظر ممن اخذنا هذه الأسرار المقدسة الإلهية. فما من ريب في أن قدر المنحة الجليلة يزداد عظمة وسموًّا بنسبة قدر المانح وعظمته. ولذا ما من أشكال في بيان هذه المسئلة لأنه لما كان الله سبحانه هو الذي يجعل الناس أبراراً وكانت الأسرار نفسها بمنزلة أدوات عجيبة لنوال البرارة تبين أنهُ ينبغي أن نعرف الله وحده بعينهِ منشئ التدبير والأسرار بيسوع المسيح فضلاً عن أن الأسرار تشتمل على قوة وفاعلية تلج حتى باطن النفس فلما كان من قدرة الله وحده أن ينفذ قلوب الناس ونفوسهم تبين أن الله سبحانه رسم الأسرار بواسطة المسيح كما ينبغي أن نعتقد اعتقاداً ثابتاً انه أيضاً يوزعها في الباطن وقد شهد لهُ في هذا الصدد القديس يوحنا المعمدان بقوله: الذي أرسلني لأعمد بالماء هو قال لي أن الذي

(188)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ترى الروح ينزل ويحل عليهِ هو الذي يعمد بالروح القدس (يوحنا ص 1 عـ 33).

الرابع والعشرون: من يستخدم الله في توزيع الأسرار

وإن كان الله سبحانهُ مبدع الأسرار ومانحها مع ذلك قد شاءَ ان تتوزع في الكنيسة لأعلى أيدي الملائكة بل على أيدي البشر لأنهُ قد ثبت بتقليدات الآباء المتواصلة ان من اللازم لقيام الأسرار خدمة ومادة وصورة.

الخامس والعشرون: ان الخادم لا يمنع قوة السر ونعمتهُ بردأتِهِ

ان خدام الأسرار في هذه الوظيفة المقدسة لا يمثلون شخصهم بل شخص المسيح الرب وعليهِ سواء كانوا صالحين أو طالحين اذا استعملوا الصورة والمادة اللتين تستعملها الكنيسة الكاثوليكية دائماً بموجب رسم المسيح وقصدوا أن يصنعوا ما تصنعهُ الكنيسة في هذه الخدمة يتمنون السر حقيقة ويوزعونهُ بما أن ثمرة السر لا يعيقها شيء الاَّ اذا أراد من يتناولها أن يحرمها ويقاوم الروح القدس. وقد أثبت القديس أغوسطينوس جلياً في تلك المحاورات التي عارض بها الأراطقة الدوناتيين أن الكنيسة قد تمسكت في كل اين وآن بهذا القول الصحيح وعولت عليه. وإذا استشهدنا الكتاب المقدس سمعنا رسول الأمم يقول: أنا غرست وأفلو اسقى ولكن الله انمى فليس الغارس بشيءٍ ولا الساقي بل الله الذي ينبغي (قورنتية 1 ص 3 عـ 6 و 7) فقد تبين

(189)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

صريحاً من هذه الآية أنهُ كما أن الأشجار لا تضر بها رداءَة غارسيها الأشرار هكذا الذين غرسوا في المسيح لا تلحق بهم وصمة من ذنوب الخدمة الطالحين. ولهذا كما أفاد علما}نا القديسون أخذاً عن بشارة القديس يوحنا الرسول (ص 4 عـ 2) ان يهوذا الاسخريوطي أيضاً عمد كثيرين ولم نقرأ أن أحداً منهم أعيد عماده وهكذا قال بصريح العبارة القديس اغوسطينوس في مقالتهِ الخامسة في تفسير بشارة يوحنا: ان يهوذا عمد ولم يعمد بعمده الذين عمدهم ويوحنا المعمدان عمد وقد عمد من بعده من كان عمدهم لأن عماد يهوذا كان عماد المسيح اما عماد يوحنا فكان ليوحنا ولم نقصد بذلك أن نفضل يهوذا على يوحنا بل عماد المسيح وان منح بيد يهوذا على عماد يوحنا ولو منحه يوحنا بيده.

السادس والعشرون: ما القول في أولئك الذين يخدمون

الأسرار بضمير مدنس

لا يخالنَّ في بال الرعاة أو غيرهم من خدمة الأسرار اذا سمعوا أن السر لا يفقد فعله بسوء آداب مانحهِ ان يكفيهم الاهتمام فقط بخدمة السر كما ينبغي بدون التفات إلى طهارة الآداب ونقاوة الضمير. لأنهُ ولو كان من الواجب التدقيق والاعتناء في منح السر مع ذلك ليس في هذا وحده ينحصر كل ما يتعلق بهذه الوظيفة. فلا يبرجنَّ من ذهنهم أبداً ان الأسرار لا تفقد قطعاً ما تضمنه من القدرة الإلهية لكنها تقبل إلى الموت والهلاك الأبدي بمن يخدمونها بنفس مدنسة بالآثام.

(190)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فينبغي أن نوعز أولاً وثانياً وعلى التوالي بأن يجب أن تباشر الأقداس بالقداسة وتقوى الله. قال داود النبي: قال الرب للمنافق ما لك تحدث بحكي وتأخذ عهدي على لسانك وأنت قد ابغضت التأديب ونبذت كلامي وراءك (مزمور 49 عـ 16 و 17). فإن كان لا يجوز للإنسان المدنس بالخطايا أن يتذكر بالأشياء الإلهية فكم يجب أن يعد مقترفاً كبائر من يعرف ذاته مذملاً بالآثام ولا يرهب أن يتمم السر بفهم مدنس ويأخذه ويمسه ويمنحه لغيره ويخدمه بأيدي نجسة. لاسيما أن القديس ديونيسيوس يقول: لا يسمح للاثمة أن يمسوا الأسرار مساً.

فعلى خدمة الأشياء المقدسة اذن ان يقفوا أثر القداسة ويتقدموا إلى خدمة الأسرار بالطهارة وهكذا يرّوضوا نفوسهم على تقوى الله كي ينالوا بحولهِ تعالى من مباشرتها واستعمالها كل يوم اغزر نعمة.

السابع والعشرون: في مفعولي الأسرار الخاصين

في أن شرحنا ما تقدم من هذه الأمور لزم أن نعلم ما هو مفعول السر لأن هذه المعرفة توضح ما أوردناه فيما مرَّ من تعريف السر. فللأسرار مفعولان خاصة والمحل الأول بينهما لتلك النعمة التي تسميها جرياً على اصطلاح العلماء اللاهوتيين بالنعمة المبرَّرة هكذا علمنا رسول الأمم بصريح العبارة اذ قال: ان المسيح أحب كنيستهُ وبذل نفسهُ دونها ليقدسها ويطهرها بحميم الماء بكلمة الحياة (أفسس ص 5 عـ 25 و 26) وان سألت كيف يتم هذا الأمر العظيم العجيب بالسر فدونك الجواب من القديس أغوسطينوس الشهير قوله في هذا الصدد: ان الماء يغسل الجسد ويمس القلب وهذا مما

(191)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يفوق مدارك العقل البشري. لأنهُ من المقرَّر ان ما من شيءٍ حسي يحوى من طبعهِ قوة تلجِ باطن النفس. غير أننا نعلم بنور الإيمان أن قدرة الله الضابط الكل خولت الأسرار قوة تعمل ما لا تستطيع أن تعملهُ الأشياء الطبيعية بقوتها.

الثامن والعشرون: كيف تقررت مفاعيل الأسرار تقريراً

عجيباً منذ نشأة الكنيسة

ان الله سبحانهُ العظيم الرأفة قد شاءَ أن يعلن لنا بالآيات المعجزة ما تفعلهُ الأسرار باطناً مذ شرع برسمها كي نعتقد اعتقاداً وطيداً أنها تفعله للأبد ولو بعدت عن حواسنا بمراحل حذراً من أن يخالج عقول المؤمنين أدنى شك في مفاعيلها. فنضرب صفحاً عن ذكر ما جرى في نهر الأردن في اعتماد مخلصنا اذ فتحت السماوات وظهر الروح القدس بشكل حمامة لنعلم أن نعمته تفاض على نفوسنا لدى اغتسالنا في حوض المعمودية المقدسة فنضرب صفحاً عن هذه الآية المعجزة لأنها تختص بتقديس العماد أكثر من خدمة باقي الأسرار ولكن أليس أننا تقرأُ في أعمال الرسل أنهم حين قبلوا الروح القدس يوم العنصرة غدوا متدرعين بالقوة والحمية للتبشير بحقيقة الإيمان واقتحام الأخطار والأهوال في سبيل مجد المسيح وأنه حينئذٍ سمع فجأة من السماءِ صوت كصوت ريح عتصفة وظهرت لهم السنة متقسمة كأنها نار فمن هذا نعقل أننا نعطى هذا الروح نفسه في سر التثبيت ونخوّل أيضاً تلك القوى التي تقدرنا على محاورة ومقاومة أعدائنا الألداء يصلون لنا نار الوعي في كل

(192)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

آن وهم الجسد والعالم والشيطان.

وكانت هذه الآيات تجري على الرسل أحياناً في أثناء خدمتهم الأسرار في نشأة الكنيسة ولم تبطل حتى تثبت الإيمان وتعزَّزت أركانه.

التاسع والعشرون: في بيان فضل أسرار العهد الجديد على

أسرار العهد العتيق

قد تبين اذن مما أوردناه من المفعول الأول للأسرار أي النعمة المبررة أن القوة المتضمنة في أسرار العهد الجديد هي أفضل وأسمى منها في أسرار الشريعة القديمة لأن هذه لما كانت عناصر ضعيفة حقيرة أفادت المدنسين تطهيراً للجسد لا للنفس (غلاطية ص 4 عـ 9 وعبرانيين ص 9 عـ 13)، ولم تكن مرسومة الاَّ بمنزلة علامات أشياء تشير إلى ما كانت أسرارنا مزمعة أن تفعله.. أما أسرار الشريعة الجديدة الصادرة عن جنب المسيح الأقدس الذي قرب نفسه لله قرباناً طاهراً بالروح القدس فتطهر ضمائرنا من أعمال الموت لنخدم الله الحي وهكذا تخولنا بقوة دم المسيح النعمة المدلول عليها بعلاماتها ولهذا اذا قابلناها مع الأسرار القديمة نجدها أقوى منها فاعلية وأغرز منها نعمة وأجل منها قداسة.

الثلاثون: ما هي الأسرار التي تطبع وسماً وما هو الوسم

ويوجد مفعول آخر للأسرار انما لا يعم جميعها بل ثلاثة منها فقط المعمودية والتثبيت والدرجة المقدسة وهو وسم تطبعه في النفس ودليله من قول الرسول المعظم: وقد مسحنا هو الله الذي ختمنا أيضاً وجعل عربون روحه في قلوبنا (قورنتية 2 ص 1 عـ 22) فقوله ختمنا عبارة صريحةٍ عن الوسم لأن الختم شأنهُ أن يسم.

(193)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

أما الوسم فهو أشبه بعلامة تطبع في النفس وترسخ فيها ولا يمكن محوها للأبد وكتب القديس اغوسطينوس في صدده قائلاً: ألعل الأسرار المسيحية هي أوهن من ذاك الوسم الجسدي الذي يتسم بهِ الجندي فإن الجندي اذا غادر الجندية ثم عاد إليها لا يتسم بوسم جديد بل يعرف فيهِ القديم ويثبت.

الحادي والثلاثون: ما هو مفعول الوسم وكيف لا يجوز تكرار

الأسرار الواسمة

ان فائدة الوسم هي أننا نصير جديرين بقبول شيءٍ مقدس أو بمباشرتهِ ثم كي يمتاز الواحد عن الآخر بعلامة ما. فبسوم المعمودية ننال كلا الأمرين اذ نصير جديرين بقبول باقي الأسرار وبهش يتميز الشعب المؤمن عن باقي الأمم الغير المؤمنة ومثلهُ نعرف وسم التثبيت والدرجة.

فأولهما يلبسنا السلاح الروحي بمنزلة جنود المسيح ويخولنا قوة للاعتراف باسمهِ جهاراً ولمحاربة عدونا الباطن والأرواح الشريرة التي تحت السماء (أفسس ص 6 عـ 11) ثم يميزنا عن المعمدين حديثاً الذين هم كالأطفال الرضيعين. والثاني يقلد السلطان على عمل الأسرار وخدمتها ثم يميز من تقلدوا هذا السلطان عن بقية جماعة المؤمنين فعلينا اذن أن نتمسك بعروة قانون الكنيسة الكاثوليكية الوثقى الذي يعلمنا أن هذه الأسرار الثلاثة تسم وسماً وأنهُ لا يجوز قطعاً تكرارها في وقت من الأوقات.

(194)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الثاني والثلاثون: بأية حجج يقنع الرعاة الشعب المؤمن في أن

يحلّ الأسرار ويستعملها بورع

هذا ما وجب ايراده بوجه العموم بشأن الأسرار اما على الخصوص فعلى الرعاة في شرحهم هذه الحقائق أن يصوبوا جهدهم نحو أمرين أولهما أن المؤمنين يدركون عظم ما تستحقهُ هذه المنح الإلهية السماوية من الوقار والإكرام والاحترام. وثانيهما أنهُ لما كان الله تعالت رأفتهُ وجودته رسمها لخلاص كل البشر لزمهم جميعاً أن يستعملوها بالتقوى والورع ويضطرموا تشوقاً إلى الكمال المسيحي بحيث يعتبرون أنهم اذا أهملوها لاسيما سرّي التوبة والافخارستيا نابهم أعظم ضرر وأشد خسارة ويسهل على الرعاة أن يبلغوا هذا المراد اذا رسخوا في مسامع الشعب المؤمن ما تقدم بيانهُ من قداسة الأسرار وفائدتها وذلك أولاً أن الرب مخلصنا قد رسمها ولا يمكن أن يصدر منهُ الاَّ ما كان في غاية السموَّ من الكمال وحين نباشرها يأتي الروح القدس إلى أعماق قلوبنا بقدرته الفعالة ويتخذها منزلاً. ثم أنها تحتوي قوة عجيبة وثيقة على شفاء النفوس وبها تتدفق علينا كنوز غنى الآلام الربية التي لا تحد. وفي الأخر ترينا أن كامل البناء المسيحي يستند على أساس متين الأركان وهو أساس حجر الزاوية على أنهُ ان لم يحصن ذاك البناء من كل جهة بكرازة كلمة الله واستعمال الأسرار يخشى كثيراً من أن يسقط أكثره لأننا تقبل الحياة بواسطة الأسرار وبها أيضاً نقتات ونتغذى ونحفظ وننمو.

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(195)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الفصل الثاني

"في سر المعمودية"

أولاً: لماذا ينبغي أن يكثر من تلاوة التعليم بخصوص العماد

على مسامع المؤمنين

قد تبين مما ورد حتى الآن عن الأسرار بوجه العموم أن من اللازم ضرورة أن نعرف ما تقدمهُ الكنيسة الكاثوليكية موضوعاً للإيمان بخصوص كل واحد منها لادراك حقائق الديانة المسيحية ولترقية أسباب التقوى على أن من يطالع بتمعن رسالة رسول الأمم إلى أهل رومة يقضي بلا تردد ولا ارتياب أن المؤمنين يلتزمون أشد التزام بمعرفة سر العماد معرفة كاملة (رومة ص 6 عـ 3 و 4 و 5) فإنه يذكر هذا السر غير مرة بكالم مفخم ومملوء من روح الله ويعظم قداسته ويبين لنا فيهِ بياناً جلياً موت فادينا ودفنه وقيامته لنكون موضوعاً لتأملنا ومثالاً لسيرتنا ولهذا لا يستكثرنّ قط رعاة النفوس ما يبذلونه من العناءِ والاجتهاد في سبيل تفسير هذا السر للشعب.

ثانياً: متى يلتزم راعي النفوس خاصة ببسط الكلام على المعمودية

ج لا يكتفينَّ الرعاة أن يشرحوا سر العماد جرياً على عادة الأقدمين يومي السبت العظيم والعنصرة اللذين فيهما كان من مألوف العادة في الكنيسة أن تحتفل هذا السر بعظيم الورع وبأبهى

(196)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الأبة بل يجب عليهم أن يغتنموا الفرصة للمباحثة في هذا الموضوع في باقي الأيام وأنسب ما يرى من الأوقات لهذا الأمر هو وقت التزامهم بأن يعمدوا أحداً لاسيما اذاً رأوا جمهوراً كبيراً من المؤمنين مجتمعاً لحضور هذه الرتبة فإنهُ وان لم يمكنهم وقتئذٍ أن يبينوا كل الفصول المختصة بهذا السر يسهل عليهم مع ذلك أن يشرحوا منها فصلاً أو فصلين فإذا ما سمع المؤمنون بآذانهم ما يتلى عليهم من تفسير هذه الحقائق ونظروا بعيونهم الاحتفالات نفسها في الوقت عينهِ تشير إليها إشارة صريحة تأملوها بورع وانتباه. فينتج من ثم أن كل أحد متى رأى هذه الأمور جارية من غيره يخطر في بالهِ ما عقده من المعاهدة مع الله سبحانهُ حين قبل سر العماد ولوقتهِ يفتكر أيضاً فيما اذا كانت سيرته وأدابه منطبقة على ما يقتضيهِ الاعتراف بالدين المسيحي. فلا بد اذن من أن نبين تبييناً جلياً طبع العماد وجوهره توضيحاً لما يجب علينا تعليمهُ. ولناتينَّ في بادئِ بدءٍ الى تفسير معنى اسم العماد نفسه.

ثالثاً: ماذا يعني اسم العماد بالخصوص

لا يخفي أن اسم العماد في الأسفار الإلهية يعني غسلاً سواء اقترن به السر أو لم يقترن (اشعيا ص 24 عـ 23) وأحياناً يعبر عن آلام المسيح بسبيل الاستعارة (مرقص ص 4 عـ 4). أما عند علماء الكنيسة فلفظة عماد لا تدل على أي غسل كان للجسد بل على ذاك الغسل المقترن بالسر مع كلمات الصورة المرسومة فبهذا المعنى عبر عنهُ الرسل مراراً بموجب رسم المسيح الرب.

(197)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

رابعاً: بأية أسماء عبرت الآباء أيضاً عن الغسل السري

قد اتخذ الآباء القديسون أسماء أخر أيضاً للتعبير عن هذا الشيء نفسهِ فشهد القديس اغوسطينوس أنهم سموا العماد سر الإيمان لأن الذين يقبلونهُ يعترفون بكامل عقائد الديانة المسيحية. ومنهم من دعوه سر الاستنارة من حيث أن قلوبنا تستنير بالإيمان الذي نعترف بهِ في العماد وبهذا المعنى قال رسول الأمم: اذكروا الأيام السالفة التي استنرتم فيها وصبرتم على جهاد الآلام الشديد (عبرانيين ص 10 عـ 22).

أشار إلى الزمن الذي تعمدوا فيهِ. ثم القديس يوحنا الذهبي الفم سماهُ تطهيراً في خطبتهِ التي ألقاها على المرشحين للعماد لأننا بالعماد نلقى عنا الخمير العتيق لنكون جبلة جديدة (قورنتيه 1 ص 5 عـ 7) ثم دعى دفناً (رومة ص 6 عـ 4) ثم غرساً ثم صليب المسيح. ويتلخص سبب هذه التسميات جميعها من رسالة رسول الأمم إلى الرومانيين وقد سماه القديس ديونيزيوس مبدأ الوصايا المقدسة لكون هذا السر بمنزلة باب ندخل بهِ في شركة الحياة المسيحية ومنهُ نشرع بالطاعة للأوامر الإلهية.

فهذا ما ينبغي بيانهُ على وجه الإيجاز في اسم العماد.

خامساً: ما هو تعريف المعمودية

نظراً إلى تعريف المعمودية نقول أنهُ وان سهل علينا أن نورد فيها تعريفات كثيرة نقلاً عن العلماء الكنائسيين الاَّ أننا نرى أوفقها وأطبقها.

معنى التعريف الذي يسوغ لنا أن نفهمهُ من كلام الرب في بشارة

(198)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يوحنا ومن رسالة رسول الأمم إلى أهل أفسس حيث قال مخلصنا: ان لم يولد الإنسان من الماء والروح القدس لا يستطيع أن يدخل ملكوت الله (يوحنا ص 3 عـ 5) وقال الرسول في كلامهِ على الكنيسة: يطهرها بحميم الماء بكلمة الحياة (أفسس ص 5 عـ 20) فيتبين من قولهما أن أقوم وأطبق ما تعرف بهِ المعمودية أنها سر الميلاد الثاني بالماء وكلمة الحياة: لأننا بالطبيعة نولد من آدم أبناء الغضب أما بالعماد فإننا نولد في المسيح أبناء الرحمة. لأنهُ حقاً قد أعطى الناس سلطاناً أن يصيروا أبناء الله أولئك الذين يؤمنون باسمهِ ليسوا من دم ولا من هوى لحم ولا من مشيئة رجل بل من الله ولدوا (يوحنا ص 1 عـ 12 و 13).

سادساً: كيف يتم سر العماد

كيفما عبرنا عن طبع العماد وجوهره بقي أن يعلم الشعب أن هذا السر يتم بالغسل الذي يقترن بهِ من الضرورة كلمات معلومة احتفالية من قبل رسم المسيح حسبما علمنا آباؤُنا القديسون في كل آن ومنهم الجليل أغوسطينوس فيما قالهُ بصريح العبارة في كتابهِ السادس دحضاً لدوناتوس الملحد: أقرن الكلام بالعنصر يتم السر (أي اقرن الصورة بالمادة) إنما حذرَّا من أن يتورط المؤمنون في الضلال باعتبارهم ما يقولهً عامة الناس من أن الماءَ نفسهُ المحفوظ في حوض المعمودية هو السر بعينهِ لزم أن ننبههم تنبيهاً حثيثاً أن السر لا يتم الاَّ حين نستعمل حقيقة الماء في غسل أحد مع اقتران الكلام المرسوم من الرب وقد قلنا في البداية لدن تكلمنا على الأسرار بوجه العموم أن كل سر يقوم بالمادة والصورة لذلك يلزم

(199)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

رعاة النفوس أن يبينوا اية هي المادة وأية هي الصورة في سر المعمودية.

سابعاً: ما هي مادة العماد الخاصة

ان مادة هذا السر أو عنصره هي كل نوع من الماء الطبيعي سواء كان بحر أو نهر أو بئر أو حوض أو ينبوع بحيث يقال فيهِ أنهُ ماء لم يمازجه شيء آخر. لأن مخلصنا قد علم قائلاً: ان لم يولد الإنسان من الماء والروح القدس لا يستطيع أن يدخل ملكوت الله (يوحنا ص 3 عـ 5) وقال الرسول المعظم أن الكنيسة طهرت بحميم الماء.

وقرأنا في رسالة يوحنا الرسول أن الشهود في الأرض ثلاثة: الروح والماء والدم (يوحنا 1 ص 5 عـ 3) ولنا أيضاً على اثبات ذلك نصوص أخرى كثيرة من الكتاب المقدس.

ثامناً: في تفسير الآية الواردة في بشارة القديس متى عن

عماد النار

ان ما قالهُ يوحنا المعمدان من أن يأتي الرب ويعمد بالروح القدس والنار لا يفهم قطعاً عن مادة العماد بل يشار بهِ إلى مفعول الروح القدس الباطن أو إلى الأعجوبة التي ظهرت يوم العنصرة حين هبط الروح القدس من السماء على الرسل بشكل ألسنة نارية (ابركسيس ص 2 عـ 3) وقد أنبأَ المسيح الرب عن ذلك بقولهِ: ان يوحنا عمد بالماء وأنتم تعمدون بالروح القدس ليس بعد أيام كثيرة.

(200)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

تاسعاً: بأية رموز ونبوات يستدل على قوة مياه العماد

قد أفادتنا الأسفار الإلهية أن الرب أشار أيضاً إلى هذا الأمر نفسهِ بالرمز وأقوال الأنبياء لأن هامة الرسل قد بين في رسالتهِ الأولى (ص 3 عـ 21) ان الطوفان الذي طهر العالم حين تفاقم شر البشر على الأرض ومالت أفكار القلوب كلها إلى الاثم كان صورة ورمزاً لماءِ العماد واجتياز بني اسرائيل ببحر القلزم اشارة إلى هذا الماء أيضاً كما كتب رسول الأمم إلى أهل قورنتية (قورنتية 1 ص 1). ثم تطهير نعمان السرياني (يوحنا ص 5 عـ 2) ثم قوة البركة المعروفة ببركة الضان العجيبة وآيات أخر مثلها شتى وردت رمزاً وصورة لهذا السر. أما نظراً الى النبوات فما من أحد يمكنهُ أن يشك في أن تلك المياه التي يدعو إليها أشعيا جميع العطاش والتي نظرها بالروح حزقيال النبي خارجة من الهيكل ثم تلك العين التي شاهدها زكريا بروح النبوة معدة لغسل الخاطي والحائض تشير إلى ماء العماد الخلاصي.

عاشراً: لماذا أراد الله سبحانهُ أن يستعمل الماء لا مادة أخرى

في سر العماد

قد أبان القديس ايرونيموس بحجج كثيرة في كتابتهِ إلى أوقيانوس أنهُ من المواقف لطبع العماد وقوته أن تكون مادته الخاصة الماء اما في هذا المقام فحسب الرعاة أن يعلموا أنه لما كان هذا السر لازماً للجميع بدون استثناء البتة لزوماً قطعياً لادراك الحياة كان الماء أنسب مادة لهُ من كل سواه لوجوده في كل مكان على الأرض ولسهولة تناوله. ثم لأن الماء يدل على مفعول العماد بأسرح دلالة.

(201)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فكما أن الماء يغسل الأدران هكذا قوة العماد وفاعليتهُ ترحض أدناس الآثام وزد على ذلك كما أن الماء أجدر من كل ما سواه بتبريد الأجساد هكذا بالعماد تخمد حرارة الشهوات الجسدية.

الحادي عشر: لماذا يضاف الميرون إلى الماء القراح والطبيعي

ينبغي أن نعلم أنهُ وان كان الماء القراح الذي لم يخالطه شيء آخر مادة جديرة بتكميل هذا السر كلما دعت الضرورة إلى منحهِ الاَّ أن الكنيسة الكاثوليكية قد حافظت وفقاً لما تسلمته من الرسل على أن يضاف الميرون المقدس إلى الماء حين يمنح العماد بالرسوم الاحتفالية ولا يخفى أن بذلك تزداد الدلالة على مفعول المعمودية . ويجب أن نعلم الشعب أيضاً أنهُ ولو وقع الريب أحياناً فيما اذا كان هذا الماء أو ذاك هو حقاً الماء الذي يقتضيهِ كمال السر مع ذلك فليكن مؤكداً ولا يصح العماد قطعاً من مادة أخرى غير الماء الطبيعي.

الثاني عشر: لماذا ينبغي أن نبين لجميع المؤمنين بدون استثناء صورة العماد الكاملة

بعد أن يكون الرعاة أبانوا جلياً أحد الجزئين القايم بهما العماد أي المادة يجب عليهم أن يبذلوا جهدهم في ايضاح الصورة التي هي الجزء الثاني وهو شديد اللزوم فينبغي أن يصرفوا غاية جهدهم واهتمامهم في شرحه لأن معرفة هذا السر العظيم فضلاً عن أنها بنفسها تخول المؤمنين لذة كما يحدث عموماً في كل معرفة من

(202)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

معارف الأشياء الإلهية كثيراً ما يفتقر إليها في الإستعمال الجاري كل يوم اذ يتفق غير مرة أن تعرض ظروف أزمنة سيأتي القول عنها مفصلاً في بابهِ يلتزم فيها أناس من عامة الشعب وعلى الأكثر من النساء أن يمنحوا سر العماد فعليه يقتضي أن يعرف جميع المؤمنين تمام المعرفة ما يختص بجوهر هذا السر.

الثالث عشر: ما هي صورة هذا السر الكاملة والمطلقة

على رعاة النفوس أن يعلموا بعبارات صريحة جلية يتمكن الجميع من ادراكها على أيسر منوال أن صورة سر العماد الكاملة والمطلقة هي هذه: "أنا أعمدك باسم الآب والابن والروح القدس" هكذا علمنا ربنا ومخلصنا حين أمر رسلهُ قائلاً: اذهبوا علموا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس (متى ص 28 عـ 19) فمن قوله عمدوهم فهمت حسناً الكنيسة الكاثوليكية المرتشدة بوحي الله أنهُ من الواجب أن فعل الخادم لهذا السر يظهر بالصورة وذلك يتم حين يقول أنا أعمدك غير أنهُ لما كان يقتضي أن يدل على شخص المعمد وعلى العلة الأصلية الفاعلة العماد فضلاً عن الدلالة على خادم السر لزم أن يضاف ضمير المخاطب "ك" وأسماءِ الأقانيم الثلاثة الإلهية بالتفصيل كي تنم صورة السر المطلقة بتلك الألفاظ السابق ذكرها فيقال أنا أعمدك باسم الآب والابن والروح القدس وليس أقنوم الابن وحده كما كتب مار يوحنا هو الذي يعمد بل الثلاثة الأقانيم الإلهية بأجمعها يشتركون في العمل بسر العماد. أما قولهُ باسم لا بأسماء فيدل دلالة صريحة على وحدانية الطبيعة واللاهوت في الثالوث الأقدس لأن الإسم في

(203)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

هذا المقام لا يعود إلى الأقانيم بل يشير إلى الجوهر الإلهي والسلطان والقوة التي هي بعينها واحدة في الأقانيم الثلاثة.

الرابع عشر: هل جميع الألفاظ في صورة العماد هي لازمة

من باب الضرورة

يجب أن نعتبر أن في هذه الصورة التي قلنا أنها تامة وافية توجد بعض ألفاظ لزوماً قطعياً بحيث اذا اهملت لا يتم السر وبعضها ليست بلازمة كل اللزوم فيقوم السر بدونها كلفظة أنا فإن فحواها مضمر في لفظة أعمد. بل قد جرت العادة في كنائس الروم ان يستعملوا الصورة بخلاف هذا الأسلوب فيهملون ذكر الخادم لحكمهم بأنهُ غير واجب. فجرى من ذلك أنهم يستعملون في المعمودية أحياناً هذه الصورة: يعمد عبد المسيح بسم الآب والابن والروح القدس. وقد تبين جلياً من حكم المجمع الفلورنتيني وتحديده أن السر يصح بهذه الصورة لأن هذه الصورة لأن هذه الألفاظ تفي بما يتعلق بحقيقة السر أي الغسل الذي يتم وقتئذٍ فعلاً.

الخامس عشر: كيف عمد الرسل باسم المسيح

اذا سلمنا ان الرسل في وقت من الأوقات عمدوا بسم المسيح فقط فينبغي أن نتأكد أنهم عملوا ذلك بإلهام الروح القدس كي تزيد الكرازة باسم يسوع المسيح اعتلاناً واشتهاراً في نشأة الكنيسة ويعظم قدر سلطانهِ الإلهي الغير المتناهي في العالم على أننا اذا أمعنا النظر جيداً في هذا الأمر تحققنا أن هذه الصورة ثبتت كاملة

(204)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

باجزائها كمارسمها المخلص نفسهُ لأن ذكر يسوع المسيح يتناول معاً ذكر أقنوم الآب الذي مسحهُ والروح القدس الذي مسح بهِ.

السادس عشر: ينبغي أن نعتقد أن الرسل لم يعمدوا قط

باسم المسيح دون ذكر الأقنومين الآخرين من

الثالوث الأقدس

هب أنهُ بقي ريب في أن الرسل عمدوا أحداً باسم المسيح فقط فيمكنا اذا شئنا أن نرى في تفسير ذلك رأي أبوينا القديسين الجليليين المعظمين امبروسيوس وباسيليوس فإنهما ذهبا إلى أن هذا الكلام لا يدل على أن الرسل لم يستعملوا الصورة العامة الدارجة التي تحوى اسم الثلاثة الأقانيم بالتفصيل بل يراد بهِ أنهم استعملوا العماد الذي استلموه من المسيح لاعماد يوحنا ويظهران رسول الأمم أيضاً قد اصطلح على نوع هذا الكلام في رسالتهِ إلى أهل غلاطية اذ يقول: أنتم الذين اعتمدتم بالمسيح فالمسيح لبستم (ص 3 عـ 27) مشيراً بذلك إلى أنهم اعتمدوا بإيمان المسيح لا بصورة أخرى غير التي أمر مخلصنا وربنا بوجوب حفظها وحسبنا الان ما قلناه في المادة والصورة المختصتين أعظم اختصاص بجوهر العماد تعليماً للمؤمنين.

السابع عشر: كيف يجب أن يكون الغسل في هذا السر

المعروف بسر الميلاد الثاني

لما كان من الواجب في تتميم هذا السر أن يراعي أيضاً نوعية

(205)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الغسل الحقيقي اقتضى أن الرعاة يلقنون الشعب هذا التعليم ويبينةا لهُ أنهُ من الأمور المسلمة والجارية بمألوف عادة الكنيسة عموماً أن العماد يصح بأحد أنواع الغسل الثلاثة لأن المتقدمين إلى قبول هذا السر اما أنهم يغطسون في الماء أو يصب الماء أو يرش عليهم وأيما نوع حفظ من هذه الأنواع الثلاثة صح العماد حقاً لأن الماء يستعمل في العماد غسلاً والحال أن الغسل يتم اما بالتغطيس الذي كان دارجاً في أوائل الكنيسة أو بسكب الماء كما نراه الآن جارياً بأغلب الاستعمال أو بالرش الذي يتلخص أن هامة الرسل استعملهُ اذ بيوم واحد هدى الى الإيمان الصحيح ثلاثة آلاف نفس وعمدهم.

الثامن عشر: هل يكفي الغسل دفعة واحدة أو يطلب

ثلاث دفعات

لا عبرة في أن يكون الغسل دفعة واحدة أو ثلاث دفعات لأنهُ يتحقق تحقيقاً شافياً من رسالة القديبس غريغوريوس الكبير إلى لياندوس ان العماد كان يتم قديماً في الكنيسة بكلا النوعين والآن يصح أيضاً بأي نوع كان منهما إنما لابد من التمسك بالطقس الذي يراه كل أحد مرعياً في كنيستهِ.

التاسع عشر: لماذا في العماد يغسل الرأس خاصة

وهذا أيضاً مما ينبغي خاصة أن ننبه إليهِ بال المؤمنين وهو أنهُ يلزم أن يغسل الرأس خاصة الذي هو مركز جميع الحواس الباطنة والخارجة لا اي عضو كان من الجسد وان يلفظ المعمد كلام السر

(206)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

المحتوي الصورة حال سكبهِ الماء لا قبل الغسل ولا بعده.

العشرون: متى رسم المسيح سر المعمودية أَقبلَ آلامهِ أم بعدها

في ان أوردنا ما أوردناه يحسن بنا أيضاً أن نعلم المؤمنين ونذكرهم ان المسيح الرب رسم العماد وباقي الأسرار. فعلى الرعاة اذن أن يعلموا الشعب ويبينوا لهُ غير مرة أن المعمودية يعتبر فيها زمنان مختلفان احدهما حين رسمها المخلص والآخر لما سن الشريعة بوجوب قبولها. فنظراً الى الزمان الأول يستبين أن الرب رسم هذا السر لما عمده يوحنا الصابغ وخول الماء قدرة على التقديس.

فإن القديسين الجليلين غريغوريوس النزينزي وأغوسطينوس يشهدان بأن الماء أعطى وقتئذٍ قوة على ايلاد الحياة الروحية.

وفي هذا المعنى كتب القديس اغوسطينوس في محل آخر قائلاً: منذ حين استحم المسيح بالماء غسل بالماء كافة الخطايا (في مقالتهِ التاسعة والعشرين في زمن رسم المعمودية) وقال أيضاً: قد اعتمد الرب لا لكونهِ مفتقراً الى التطهير بل كي يطهر الماء بمماسة جسده الطاهر ويكسبهُ قوة التطهير (في مقالتهِ السابعة والثلاثين)

ومما يثبت هذه الحقيقة بحجة قاطعة ان الثالوث الأقدس الذي باسمهِ يتم العماد أعلن وقتئذٍ حضور لاهوته فإن الآب سُمع صوته والابن كان حاضراً بعينهِ والروح القدس انحدر عليهِ بشكل حمامة ثم فتحت السماوات دليلاً على أنهُ يتهيأ لنا أن نصعد إلى معاليها بواسطة العماد ومن رام أن يعرف كيف خوَّل الرب المياه مثل هذه

(207)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

القدرة الإلهية العظيمة فليعلم أن هذا يفوق مدارك العقل البشري. بل حسبنا أن ندرك أن الماء بممارستهِ جسد الرب المقدس الطاهر لدن اعتماده في نهر الأردن تكرّس لأن يستعمل في العماد استعمالاً يجدي خلاصاً. على أننا نعتقد أن هذا السر وان رسم قبل آلام المسيح التي كانت بمنزلة غاية جميع أعمالهِ قد اتخذ قوته وفاعليتهُ من الآلام.

الحادي والعشرون: متى ابتدأت الناس تتقيد بسنة العماد

اما نظراً إلى الزمن الآخر الذي اذيعت فيهِ سنة العماد فليس فيهِ أدنى محل للارتياب لأن علماء اللاهوت قد اجمعوا على أن جميع الناس المزمعين أن ينالوا الخلاص الأبدي قد بدأوا يتقيدون بسنة العماد بعد قيامة الرب مذ حين أمر الرسل قائلاً: اذهبوا علموا جميع الأمم وعمدوهم بسم الآب والابن والروح القدس. وهذا يتلخص من قول هامة الرسل في رسالتهِ الأولى: ولدنا ثانية برجاء حي بقيامة يسوع المسيح من بين الأموات (ص 1 عـ 3)ثم من كلام الرسول المعظم في رسالتهِ إلى أهل أفسس: بذل نفسهُ دونها (يتكلم على الكنيسة) ليقدسها ويطهرها بغسل الماء بالكلمة (ص 6 عـ 25) فتبين أن كلا الرسولين قد ارجعا الالتزام بالعماد الى الزمن الذي يلي موت الرب بحيث لم يعد ريب قطعاً في أن كلام الرب أيضاً: ان كان أحد لا يولد ثانية من الماء والروح القدس لا يستطيع أن يدخل ملكوت الله قد قالهُ بالنظر إلى ذاك الزمن نفسهِ الآتي عقب آلامهِ.

(208)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الثاني والعشرون: كم يجب من الاعتبار والاحترام لسر العماد

اذا شرح الرعاة باعتناءٍ وتدقيق الحقائق التي أوردناها لا يبقى ريب البتة في أن المؤمنين يعقلون ما لهذا السر من سموّ المقام ويحفونهُ بمزيد التقوى والاحترام لاسيما حين يتذكرون أن تلك المواهب السنية العظيمة التي أعلنت بالآيات المعجزة حين اعتمد الرب تعطى وتتوزع بقوة الروح القدس الخفية لكل فرد من البشر حين يعمد لأنهُ اذا عرض لنا ما عرض لخادم اليشع النبي أن تفتح عيوننا كي نقدر أن نعاين الأشياء السماوية فلا يقدر على أحد ان يكون خالياً من الحس العام فلا يأخذه العجب العجاب من أسرار العماد الإلهية. فنرى لماذا لا نعتبر أن هذا التعجب نفسهُ يتأتى للمؤمنين حين تكشف لهم الرعاة كنوز هذا السر وغناه حتى يتهيأَ لهم أن يشاهدوها لا بعين الجسد بل بعين العقل المستنير بنبراس الإيمان.

الثالث والعشرون: لكم صنف من البشر قلدت خدمة سر العماد

أنهُ لمفيد بل ضروري أن نبين من هم خدمة هذا السر لكيما يجتهد أولئك الذين فوضت اليهم هذه الخدمة بوجه الخصوص في أن يتمموها بقداسة وورع ولئلا يتجاوز أحد حدوده فيتطاول على ملك غيره أو يقحمهُ بكبرياء نفسهِ اذ يلزم حفظ النظام في كل شيءٍ كما علمنا رسول الأمم بقولهِ: فليكن كل شيءٍ بلياقة وترتيب (قورنتية 1 ص 14 عـ).

فمن الواجب أن يتعلم المؤمنون أن ثلاثة أصناف من البشر

(209)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يخدمون هذا السر. فالصنف الأول الأساقفة والكهنة الذين فوّض إليهم أن يمارسوا هذه الخدمة بحق خاص لا بسلطان غير مألوف بدليل أمر الرب لهم بشحص الرسل: اذهبوا وعمدوا وان اعتاد الأساقفة أن يتخلوا عن خدمة العماد للكهنة لئلا يفطروا إلى ترك الاهتمام بتعليم الشعب ونظراً إلى أن الكهنة يمارسون هذه الوظيفة بحق خاص حتى أنهم يقدرون أن يعمدوا أيضاً بحضرة الأسقف فهذا ثابت من تعليم الآباء واستعمال الكنيسة.

لأنهم لما رسموا لتقديس الافخارستيا التي هي سر السلام والوحدة لاق أن يعطوا سلطاناً على خدمة كل ما يلزم لكل أحد للاشتراك في هذا السلام وهذه الوحدة. فإن قال الآباء أحياناً أن ليس للكهنة حق التعميد بدون اذن الاسقف ينبغي أن نفهم كلامهم عن العماد الذي جرت العادة باحتفالهِ في أيام معلومة من العام. والصنف الثاني من خدمة هذا السر هم الشمامسة الذين لا يجوز لهم أن يمنحوا العماد بدون اذن الأسقف أو الكاهن كما تثبت ذلك من نصوص عديدة من الآباء القديسين.

الرابع والعشرون: من يحل لهُ أن يمنح سر العماد في حادث

الضرورة

ثم الصنف الأخير من خدمة سر العماد هم أولئك الذين يحل لهم أن يمنحوه اذا دعت الضرورة بدون احتفال ومن مصاف هؤلاء جميع الناس من عامة الشعب ذكوراً وإناثاً ومن أي مذهب كانوا لأن اليهود أيضاً والغير المؤمنين والأراطقة عند مسيس الحاجة يحل

(210)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

لهم أن يعمدوا بشرط أن يقصدوا عمل ما تعملهُ الكنيسة في نوع هذه الخدمة وقد اثبت ذلك الآباء والمجامع القديمة ثم المجمع التريدنتيني رشق بالحرم الذين يتجاسرون أن يقولوا أن العماد الذي يمنحهُ الأراطقة باسم الآب والابن والروح القدس مع نية فعل ما تفعلهُ الكنيسة هو عماد غير صحيح فلنا أن نتعجب هنا من جودة ربنا سبحانهُ وحكمتهِ الساميتين لأنهُ لما كان قبول هذا السر لازماً للجميع من باب الضرورة رسم مادته الماء الذي ليس شيء في العالم اعم منهُ ولا أيسر منهُ تناولاً ثم لم يشأ أن يستثني أحد من خدمتهِ. وان كان كما قلنا لا يحل للجميع أن يمنحوه بالطقوس الاحتفالية فليس ذلك لكون الطقس والاحتفال يفضلان على السر مقاماً بل لأنهما أقل منهُ لزوماً.

الخامس والعشرون: ما النظام الواجب أن يراعيه المؤمنون

في التعميد

لا يخالنَّ في بال المؤمنين أن العمل بهذه الوظيفة فوض إلى الجميع بدون فرق وتمييز بل لاق ووجب أن يقرر نظام ما بين الخدمة لأن الإمرأة لا يحل لها أن تعمد اذا حضر رجل ولا العالمي بحضرة الاكليريكي ولا الاكليريكي بحضرة الكاهن غير أن القوابل اللواتي ائتلفنَ العماد لا يملنَ اذا عمدنَ أحياناً بحضرة رجل لا يحسن التعميد وان كانت من جهة أخرى هذه الوظيفة هي أخصَّ بالرجل منها بالإمرأة.

(211)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

السادس والعشرون: لماذا ما عدا الذين يعمدون يستعمل

عرابون في سر الميلاد الثاني

يضاف إلى الخدمة الذين يتمنون السر كما قلنا نوع آخر من الخدام قد جرت العادة القديمة جدًّا في الكنيسة الكاثوليكية في استخدامهم في احتفال العماد المقدس فهولاء يسمون الآن عرابين وكان علماء اللاهوت قديماً يسمونهم قابلين أو كفلاء أو ضمناء ولما كانت هذه الوظيفة على الغالب تخص العامة لزم الرعاة أن يبذلوا جهدهم في تعليم المؤمنين ما يلزم لتتميمها حسناً فيجب في بادئ البدء أن يبينوا السبب الذي من أجله أضافوا العرابين أو القابلين إلى خدمة السر فيرى الجميع أن ذلك كان من باب الحق والصواب اذا تذكروا أن العماد إنما هو تجديد الميلاد الروحي الذي بهِ نولد أبناء الله وفيهِ قال زعيم الرسل: كأطفال ولدوا حديثاً إلى اللبن العقلي الذي لا غش فيهِ (بطرس 1 ص 2 عـ 2) فإذن كما أن الإنسان بعد أن يولد يفتقر إلى مربية ثم إلى معلم يهتمان ويعنيان في تربيتهِ وتثقيفهِ وتلقينهِ العلوم والفنون الصالحة هكذا الذين يتخذون حياة روحية من حوض المعمودية يلزم أن يسلموا إلى إنسان حكيم أمين يستطيع أن يدرِّبهم على وصايا الدين المسيحي ويرشدهم في سبل التقوى المستقيمة فينمون شيئاً فشيئاً بالمسيح حتى يبلغوا في الآخر بعونهِ تعالى إلى كمال الرجولية لاسيما اذا لم يتوفر للرعاة المقامين للإهتمام بأمر النفوس وقت يستطيعون فيهِ على القيام بمهمة تفقيه الصغار في الإيمان ولنا شهادة صريحة على هذه العادة

(212)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

القديمة من القديس ديونيزيوس في مقالتهِ الدرجات الكنائسية حيث يقول: قد خطر على بال قادتنا الإلهيين (اراد بهم الرسل) واستحسنوا أن تقبل الأطفال في المعمودية جرياً على هذه الطريقة الحميدة وهي أن الوالدين الطبيعيين يسلمان ولدهما إلى رجل عالم في الأمور الإلهية يقوم لديه مقام معلم يدربهُ بمنزلة أب روحي ضمين لخلاصهِ مدة حياتهِ كلها وأثبت هذا القول البابا إيجينيوس.

السابع والعشرون: في أن القرابة الروحية المقتبسة بالعماد تمنع

الزواج وتبطلهُ

قد رسمت الكنيسة المقدسة بغاية ما يكون من الحكمة أن المعمد والعراب يتقيدان بقرابة روحية مع المعمود أو الولد ومع والديه الحقيقيين بحيث يمتنع بينهم جميعاً عقد الزواج وإذا عقد يفسخ.

الثامن والعشرون: ما يلزم العرابين وما يطلب منهم

ثم ينبغي على الرعاة أن يعلموا المؤمنين ما يلتزم بهِ العراب من الواجبات لأن التغاضي عن اتمام هذه الوظيفة بلغ مبلغاً قصياً حتى أمست في الكنيسة اسماً بلا مسمى فلم يعد الناس يخالونها تحتوى على شيء مقدس بتة فعلى العرابين اذن أن يفتكروا على الدوام أنهم تقيدوا بهذه السنة خاصة وهي أنهم وكلوا وكالة دائمة على أولاد روحيين فيلزمهم بذل الجهد والاهتمام بهم في كل ما يلاحظ رسوم الديانة المسيحية لكي يستسير هولا سيرة حميدة وفقاً لما وعدوه بالنيابة عنهم وعداً حافلاً آن تعميدهم.

فهناك ما كتبهُ القديس ديونيزيوس في هذا الباب بلسان الكفيل (العراب) اني أتعهد بأن أدرب الولد عند بلوغهِ سن الرشد المرعي

(213)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

بنصحي لهُ النصح المتواصل الحثيث لكي يكفر بما يخالف ذلك ويعترف بواجباته الدينية ويتممها وفقاً لمواعيده. ومثلهُ القديس أغوسطينوس يقول: انني أنبهكم أنتم الذين قبلتم الأطفال من حوض المعمودية سواء كنتم رجالاً أن نساءً ان تعرفوا أنكم قمتم كفلاء لديه تعالى للصغار الذين قبلتموهم من الحوض المقدس وبالحق أنهُ من أوجب الواجبات على من تقلد وظيفة ما أن لا يكل ولا يملَّ أبداً في سبيل قضائها وان من تقلد حراسة أحد أو تعليمه لا يحل لهُ أن يتركه وشأنه لأنهُ أخذه على عهدتهِ وتحت كفالتهِ طالما رآه محتاجاً إلى عنايتهِ واسعافهِ. وقد عبر القديس أغوسطينوس بكلام وجيز عن الأشياء الواجب تلقينها للأولاد الروحيين وذلك في تكلمه على وظيفة العرابين نفسها اذ قال: ينبغي أن ينصحوهم بأن يحفظوا العفاف ويحبوا العدل ويتمسكوا بعروة المحبة وقبل كل شيء أن يعلموهم قانون الإيمان والصلاة الربية ووصايا الله العشر وأصول الديانة المسيحية.

التاسع والعشرون: لا يقبل أي كان بدون تمييز في وظيفة العراب

فما تقدم بيانهُ نعقل بدون أشكال إلى أي صنف من البشر لا تفوض إدارة هذه الوكالة المقدسة أي إلى أولئك الذين لا يريدون أن يقوموا بها بحسن الأمانة أو لا يستطيعون القيام بها باتقان واجتهاد ولهذا (ما عدا الوالدين الطبيعيين اللذين لا يحل لهما قطعاً أن يقبلا هذه الوظيفة ليظهر من ذلك جلياً تباعد هذه التربية بمراحل عن التربية الجسدية) يحرم

(214)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

خاصة اتخاذ العرابين من الأراطقة واليهود والكفرة لأنهم لا يزالون يهدسون ويهتمون في تشويه حقيقة الإيمان بالأكاذيب وتقويض أركان العبادة المسيحية.

الثلاثون: كم ينبغي أن يكون عدد العرابين

قد رسم المجمع التريدنتيني المقدس أن لا يكثر عدد الذين يقبلون المعمود من حوض المعمودية بل يكفي واحد فقط رجلاً كان أو إمرأة وعلى الأكثر اثنان رجل وامرأة لأن كثرة المعلمين قد تشوش نظام التهذيب والتعليم ثم يجب أن تتحاشى وفرة العرابين حذراً من أن تكثر بينهم وبين المعمودين ووالديهم القرابات الروحية التي تحظر عليهم عقد الزواج الشرعي فيمتنع من جراءِ ذلك انتشار الألفة البشرية.

الحادي والثلاثون: في أن العماد لازم من باب الضرورة للجميع

لأجل الخلاص

ان معرفة الأمور التي أوردناها إلى الآن هي جزيلة الفائدة للمؤمنين ولكن ما من شيءٍ يرى الزم من أن يعرفوا أن الرب سنَّ سنة العماد لجميع الناس بحيث اذا لم يولدوا ثانية في الله بنعمة العماد أدىَّ بهم مولدهم الأول من والديهم سواء كانوا مؤمنين أو كافرين إلى الهلاك والتعاسة الأبدية فعلى الرعاة اذن أن يكثروا من شرح هذه الآية الواردة في الإنجيل: ان كان أحد لا يولد ثانية من الماءِ والروح القدس لا يستطيع أن يدخل ملكوت الله (يوحنا ص 3 عـ 5).

(215)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الثاني والثلاثون: لابد من تعميد الأطفال ضرورة

قد ثبت باجماع القول والحكم عند الآباء القديسين أن الكنيسة استلمت من التقليد الرسولي أنهُ يجب أن نفهم هذه السنة ليس عن البالغين فقط بل أيضاً عن الأولاد الأطفال ثم ينبغي أن نعتقد أن السيد المسيح لم يشأ أن ينكر العماد ونعمته على أولئك الصغار الذين كان يقول فيهم: دعوا الصغار أن يأتوا اليَّ ولا تمنعوهم لأن ملكوت السماوات لمثل هؤلاء (متى ص 19 عـ 14) وكان يحتضنهم ويضع يده عليهم ويباركهم. ثم قرأنا أن بولس الرسول عمد عائلة برمتها فلا شك أنهُ عمد أيضاً الأطفال الذين كانوا من عدد تلك العائلة (قورنتية ص 1 عـ 16) وفي الآخر ان الله سبحانهُ سنَّ سنة الختان وهو صورة العماد وشدد الأمر بحفظها وما من أحد يجهل أن الأطفال كانوا يختتنون في اليوم الثامن من ميلادهم والحال ان الختان المصنوع بأيدي البشر لم يكن يفيدهم الاَّ تطهيراً للجسد مع أنهُ من المحقق أن العماد الذي هو الختان الروحي المصنوع لا بأيدي البشر بل بقوة المسيح يفيد الأطفال تطهيراً للنفس (قولوسايس ص 2 عـ 11).

وتختتم كلامنا في هذا الصدد بما علمهُ رسول الأمم: لأنهُ إذا كان الموت بسبب زلة واحدة كان على جميع الناس القضاء فبالأحرى كثيراً النائلون وفور النعمة والعطية والبر سيملكون في الحياة بواحد هو يسوع المسيح (رومة ص 5 عـ 17) فإذن كما أنهُ بخطية آدم التحقت بالأطفال الخطية الأصلية فبالأحرى يمكنهم أن ينالوا النعمة والبر السيد المسيح كي يملكوا بالحياة ولا يستطيعون

(216)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الى ذلك سبيلاً بدون العماد فعلى رعاة النفوس أن يعلموا المؤمنين أنهُ واجب كل الوجوب أن يعمدوا الأطفال ويدربوهم شيئاً فشيئاً منذ نعومة أظفارهم بوصايا الديانة المسيحية إلى معالي التقوى الحقيقية لأنهُ كما جاء في سفر الحكمة: ان الشاب حسب طرقهِ حتى أذا شاخ لا يحيد عنها (أمثال ص 22 عـ 6).

الثالث والثلاثون: ان الأطفال ينالون بالعماد النعمة الروحية

ولا يجوز أن نشك أن الأطفال اذا عمدوا ينالون سر الإيمان لا لكونهم يؤمنون باذعان عقلهم بل لكونهم متدرعين بإيمان والديهم اذا كانا مؤمنين والاَّ فبايمان جمهور القديسين عموماً أي المؤمنين كما أفاد القديس أغوسطينوس فيقول ان مقدمي الأطفال الى العماد هم جميع الذين يرتضون بتقديمهم إليهِ ويحبون أن يضموهم إلى شركة الروح القدس.

الرابع والثلاثون: ينبغي أن لا يؤخر عماد الأطفال

يقتضي أن يحض المؤمنون حضاً حثيثاً على أن يقدموا أولادهم إلى الكنيسة بأول ما يمكنهم بدون خطر على حياتهم ويعمدوهم بموجب الرسوم الحافلة لأن الأولاد الأطفال لما لم يكن لهم طريقة أخرى لنوال الخلاص الاَّ بقبولهم العماد تبين ما يرتكبهُ من الاثم الثقيل أولئك الذين يتأخرون أكثر مما تقتضيه الضرورة عن أنالتهم نعمة السر لا سيما أنهم بسبب ضعف عمرهم يلقون من أخطار الحياة ما يكاد لا يحصى.

(217)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الخامس والثلاثون: كيف ينبغي أن يتعلم الراشدون قبل العماد

قد تبين من عادة الكنيسة القديمة أنهُ يجب أن يؤخذ خلاف هذا الأسلوب بالنظر إلى أولئك الذين أدركوا سن الشباب وبلغوا الرشد الكامل وهم مولودون من والدين غير مؤمنين. اذ ينبغي أن يعرض عليهم الإيمان المسيحي ويحضون بكل اجتهاد ويفرون ويدعون إلى قبولهِ. فإذا تابوا إلى الرب الإله ينبغي حينئذٍ ان ينصحوا بالاَّ يتأخروا أكثر من الزمن المرسوم من الكنيسة عن قبول سر المعمودية.

لأن الروح القدس يقول: لا تؤخر التوبة إلى الرب ولا تتباطأ من يوم الى يوم (ابن سيراخ ص 5 عـ 8) فليبلّغوا أن التوبة الكاملة قائمة بالميلاد الجديد بالمعمودية. ثم يقدر ما يتأخرون عن العماد يحرمون نفوسهم التمتع بباقي الأسرار ونعمتها فإن بها تكرم الديانة المسيحية وبدون العماد لا يستطيعون اليها سبيلاً بل يفقدون أيضاً الثمرة السامية التي نجنيها من العماد لأن ماء المعمودية يرحض بالكلية دنس وأدران جميع الآثام المرتكبة فيما مضى ويحلينا أيضاً بعقود النعمة الإلهية فنقوى بعونها ومساعدتها على اجتناب الخطايا في المستقبل وعلى حفظ البر والطهارة ومعلوم لدى الجميع أنهُ على هذا يتوقف الكمال المسيحي.

السادس والثلاثون: يتبين أن عماد الراشدين ينبغي أن يتأجل

ولكن ولو كان الأمر كما ذكر مع ذلك لم تعتد الكنيسة أن تسرع يمنح العماد للراشدين بل قد رسمت أن يتأخر عنهم إلى أجل مسمى لأن هذا التأخير ليس فيهِ الخطر الذي قلنا أنفاً أنهُ يدهم الأطفال اذ يكفي

(218)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الراشدين عزمهم وقصدهم قبول العماد وتوبتهم عن سيرتهم الردية لنوال النعمة والبر اذا دهمهم فجأة مانع يمنعهم عن الاغتسال بماء العماد الخلاصي بل يرى بالعكس أن هذا التأجيل يعود عليهم بفوائد جمة : أولاً لما كانت الكنيسة ملتزمة أن تحترز من أن أحداً يقدم إلى هذا السر بالرياء والغش تهيأَ لها في هذه المدة أن تفحص وتتحقق إرادة من يطلبون العماد فلهذا السبب قد رسمت المجامع القديمة أن الذين يقبلون من اليهود إلى الإيمان الكاثوليكي يمكثون بضعة أشهر مع الموعوظين قبل أن يمنحوا سر العماد. ثانياً، تكون لهم مندوحة ليفقهوا حسناً في تعليم الإيمان الذي ازمعوا أن يتمسكوا بعروته وفي مراسيم السيرة المسيحية.

أخيراً أن هذا السر يحف بزيادة التوفير والإكرام اذا منح العماد برسومه الحافلة في أيام معينة من السنة فقط وهي أيام الفصح والعنصرة.

السابع والثلاثون: لا يحل دائماً تأخير العماد عن الراشدين

ومع ذلك ينبغي أن لا يؤخر العماد أحياناً لأسباب داعية ومعقوله كمداهمة خطر الموت ولاسيما اذا كان المرشحون تفقهوا تماماً في أسرار الإيمان ودليله ثابت مما عملهُ فيلبس الرسول وبطرس زعيم الرسل اذ أن أحدهما عمد قنداق خصيّ الملكة (ابركسيس ص عـ 38)

والآخر قورنيليوس (ابركسيس ص 10 عـ 48) بدون تأخير بل حالاً على أثر اعترافهما بقبول الإيمان.

الثامن والثلاثون: كيف ينبغي أن يكون استعداد المرشحين إلى العماد

(219)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثم يجب أن نعلم ونبين للشعب كيف ينبغي أن يستعد المرشحون الى

الى العماد فيلزم أولاً وبدءاً يريدوا وينووا قبول العماد لأنهُ لما كان كل أحد يموت عن الخطية بالمعمودية ويتخذ طريقاً جديدة للحياة والتهذيب (رومة ص 6 عـ 2) كان من العدل الاّ يمنح العماد لمكره أو لرافض بل للذين يقبلونهُ طوعاً واختياراً وهذا نعرفه من التسليم الدائم المحفوظ في الكنيسة بأن لا يعمد أحد قبل أن يسألأ هل يريد أن يعتمد حتى الأطفال أنفسهم لا يعتبرون خالين من هذه الإرادة لكون ارادة الكنيسة كفيلهم واضحة كل الوضوح.

التاسع والثلاثون: متى يحل تعميد المجانين ومتى يمتنع

ان المجانين اذا كانوا صحاة العقل من قبل ثم عرض عليهم الجنون ولم يبقَ في وسعهم آنئذ أن يظهروا ارادتهم بقبول العماد لا يجوز أن يعمدوا الاَّ متى وجدوا في خطر الموت فعند ذلك يجب أن يمنحوا العماد اذا كانوا أعلنوا رغبتهم في قبوله قبل أن اعتراهم الجنون والاَّ فلا يعمدون وهذا الحكم نفسهُ يجري على النائمين والمعتوهين أما اذا كانوا لم يصحوا قط ولم يملكوا استعمال العقل فحكمهم حكم الأطفال القاصرين عن درجة الرشد. فسلطان الكنيسة وعادتها يقضيان بوجوب تعميدهم.

الأربعون: ماذا يطلب غير ما ذكر لقبول العماد

ما عدا الإرادة المطلوبة لقبول العماد يلزم الإيمان من باب الضرورة نفسها لنوال نعمة السر. فإن ربنا ومخلصنا لذكره السجود قد علمنا بقولهِ: من يؤمن ويعتمد يخلص (متى ص 16 عـ 16) ثم من الواجب على كل إنسان أ، يتوب عما ارتكبهُ من الآثام في حياتهِ الماضية ويعزم على اجتناب جميع الخطايا في المستقبل

(220)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

والاّ من طلب العماد ولا يريد أن يصلح نفسهُ ويرتد عما تعوده من الخطأ يمنع كل المنع من سر العماد اذ لا شيء ينقض نعمة المعمودية وقوتها أكثر من نية وقصد أولئك الذين لا يعرفون حداً لارتكاب المعاصي. ولما كان الغرض من المعمودية أن نلبس المسيح ونعتصم بهِ تبين من باب الحق والصواب أنهُ يجب أن يمنع من العماد ذاك الذي يقصد الأستمرار على الخطايا والرذائل لاسيما أنهُ يجب أن يتحاشى منح شيء عبثاً مما يختص بالمسيح والكنيسة ونعلم علم اليقين أن المعمودية تذهب سدى بالنظر إلى البر ونعمة الخلاص في من يكون عازماً أن يسير حسب الجسد لا حسب الروح وان لم يكن ريب في أن السر يتم باعتبار كمالهِ وصحتهِ اللهمَّ اذا عمد بمقتضى الرسوم وفي نيتهِ أن يقبل ما تمنحهُ الكنيسة المقدسة ويثبت وجوب التوبة ما ورد في الابركسيس فإننا نقرأ فيهِ أن قوماً نخسوا في قلوبهم وقالوا لبطرس ولسائر الرسل ماذا نصنع فأجابهم زعيم الرسل قائلاً: توبوا وليعتمد كل واحد منكم (ابركسيس ص 2 عـ 38) وفي محل آخر قال: توبوا وارجعوا لتغفر خطاياكم (ص 3 عـ 19) ومثلهُ كتب رسول الأمم إلى الرومانيين مبيناً بصريح العبارة ان من يعمد لزمهُ أن يموت عن الخطايا (رومة ص 6 عـ 11) ولذا يحذرنا من أن نجعل أعضاءَنا سلاح اثم للخطية بل يأمرنا بأن نجعل أنفسنا لله كالذين هم أحياء من بين الأموات (رومة ص 6 عـ 11 و 12).

(221)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الحادي والأربعون: ان المذاكرة في هذه الحقائق تجدي

فائدة كبيرة

اذا أكثر المؤمنون من تأمل هذه الحقائق تحتم عليهم أولاً أن يقضوا أشد العجب من جودة الله الفائقة كل حد وقياس اذ لم يحلهُ الاّ رحمته إلى منح هذا الاحسان الإلهي الفريد أي العماد لمن لا يستحقونهُ ثم لو جعلوا نصب عيونهم كم يجب على المنعم عليهم بهذه المنحة أن تكون سيرتهم بعيدة عن كل اثم ورذيلة لأدركوا بسهولة أنهُ يطلب من المسيحيين أن يستسيروا كل يوم بتقوى الله وعبادتهِ كما لو كانوا في هذا اليوم نفسهِ نالوا سر العماد ونعمته على أنهُ ما من أمر أفود لاضرام قلوب المؤمنين بنار التقوى والحمية من أن الرعاة يبينون لهم بعبارة صريحة مفاعيل العماد.

الثاني والأربعون: ما هو مفعول العماد الخاص

ينبغي على الرعاة أن يكثروا من بيان مفاعيل العماد للمؤمنين كي يروا أنهم رقوا الى درجة مقام عال للغاية فلا يصبرون على أن يهبطوا منهُ بمكائد العدو ونزعته في وقت من الأوقات وأولاً فليعلموهم أن الخطية سواء التحقت بنا من والدينا الأولين أو ارتكبناها نحن باخيارنا وان بلغت من الفظاعة حدّاً لا يمكننا تصوره تمحى وتغفر بقدرة هذا السر العجيبة وقد تنبأ على ذلك قبل وقوعه بأحقاب حزقيال النبي متكلماً بلسان الله. واتضح عليكم ماءً طاهراً فتطهرون من جميع نجاساتكم (حزقيال ص 36 عـ 25) ورسول الأمم في رسالتهِ إلى أهل قورنتية في أن أورد عداداً طويلاً عن الأثمة أردف كلامهُ بقولهِ: ولقد كان بعضكم كهؤلاء

(222)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ولكنكم قد اغتسلتم وتقدستم وبرّرتم باسم ربنا يسوع المسيح وبروح الهنا. ومن المحقق أن هذا تعليم الكنيسة المقدسة في كل ابن وآن لأن القديس اغوسطينوس قد شهد في كتابهِ الذي حرره في عماد الأطفال قائلاً: ان الميلاد الجسدي يلحق بنا الخطية الأصلية فقط أما الميلاد الروحي فيغفر الخطية الأصلية وجميع الخطايا الإرادية أيضاً وكتب القديس ايرونيموس الى اوقيانوس يقول: ان الخطايا جميعها تغفر بالعماد. ولكي لا يبقى لأحد سبيل إلى الشك في هذه الحقيقة قد قررتها المجامع المقدسة وأيد تقريرها المجمع التريدنتيني المقدس اذ رشق بالحرم من يتجاسرون أن يرتأوا الخلاف أو يعلموا أن الخطايا وان غفرت بالمعمودية لا تمحى تماماً وتستأصل بالكلية بل كأنها تجزَّ بحيث تبقى أصولها راسخة في النفس. لأن المجمع المذكور نفسهُ يقول: ان الله سبحانهُ لا يبغض شيئاً في المعمدين لأن ما من أثر للشجب في أولئك الذين دفنوا حقاً مع المسيح بالعماد للموت ولا يسيرون حسب الجسد بل خلعوا الإنسان العتيق ولبسوا الإنسان الجديد الذي خلق حسب الله وصاروا أبراراً أطهاراً لا عيب فيهم ولا دنس ومقبولين لديه تعالى.

الثالث والأربعون: هل أن الشهوة في المعمدين خطية

يجب أن نعترف كما رسم المجمع المقدس بسلطانه في المحل نفسه أن الشهوة تبقى في المعمدين ولكن ليس لها نوعية الإثم ويوافق ذلك مذهب القديس اغوسطينوس أيضاً اذ قال: ان جريرة الشهوة تمحى في الأطفال المعمدين أما الشهوة فتبقى للجهاد.

(223)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وورد منه مثل هذا الكلام في محل آخر: جريرة الشهوة تمحى بالعماد أما الضعف فيبقى لأن الشهوة التي هي من الخطية ليست شيئاً آخر سوى ميل في النفس مضاد للصواب من طبعه. فإن لم يقترن بهِ رضا الإرادة أو الكسل في ردعه فهو بعيد عن الخطية الحقيقية بمراحل أما قول رسول الأمم: (اني لم أكن أعرف الشهوة لولا أنه قيل في السنة لا تشتهِ (رومة ص 7 عـ 7)

فلا يراد بهِ قوة الشهوة عينها بل رذيلة الإرادة في انثنائها الى الشهوة وقد سلمنا القديس غريغوريوس هذا التعليم بعينهِ اذ قال اذا زعم البعض ان الخطايا تترك بالمعمودية تركاً سطحياً ظاهراً فقط كان زعمهم اقبح الأقوال كذباً لأن النفس بسر الإيمان تحل من الخطايا بالكلية في بشارة ماريوحنا الرسول: من هو طاهر لا يحتاج الاّ غسل قدميه لأنه كله نقي (ص 13 عـ 10).

الرابع والأربعون: يتبين أيضاً أن المعمودية تمحو جميع الخطايا

من رام أن ينظر صورة هذه الحقيقة مطبوعة عياناً بطالع قصة نعمان السرياني الذي بعد أن اغتسل سبع مرات بماءِ الأردن كما شهد السفر الإلهي طهر من برصهِ وصار لحمهُ كلحم ولد صغير (ملوك 4 ص 5 عـ 14) وعليهِ نقول أن مفعول العماد الخاص مغفرة جميع الخطايا أصلية كانت أو فعلية ونضرب صفحاً عن شهادات كثيرة تبين لنا أن مخلصنا قد رسم هذا السر لأجل هذه الغاية ونكتفي بايراد ما قالـــــهُ زعيم الرسل بصريح العبارة: توبوا

(224)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وليعمد كل منكم باسم يسوع المسيح لمغفرة الخطايا (ابركسيس ص 2 عـ 38).

الخامس والأربعون: لا تغفر الخطية فقط بالعماد بل كل

عقاب ترتب عليها أيضاً

ان الله سبحانهُ تبارك حلمه ورأفته فضلاً عن غفران الخطايا بالعماد يترك أيضاً جميع ما ترتب عليها من العقوبات لأنهُ وان كان للأسرار جميعها أن تشركنا بقوة آلام السيد المسيح مع ذلك قال رسول الأمم في المعمودية وحدها اننا نموت بها للمسيح وندفن (رومة ص 6 عـ 4)

فالكنيسة المقدسة قد فهمت دائماً أن فرض الأعمال التقوية التي يدعوها الآباء تكفيرية على من يطهر بالعماد لا يخلو من أن يعود الى الخطأ من قدر هذا السر وليس في ما نعلمهُ في هذا الصدد مناقضة لعادة الكنيسة القديمة التي كانت في الأحقاب السالفة تفرض على اليهود صوم أربعين يوماً لدن تعميدهم اذ لم يكن ذلك الرسم من باب التكفير عن الأوزار بل من باب النصح والإرشاد لمن قبلوا العماد بأن يلازموا الأصوام والصلوات مدة من الزمان تكريماً لمقام السر.

السادس والأربعون: لا ينجو المعمود حديثاً من عقوبات

السلطة المدنية

ولو تحقق أن عقوبات الخطايا تغفر بالعماد مع ذلك ما من أحد يعفي من العقوبات المحكوم بها عليهِ من القضاة المدنيين لأجل اقترافهِ جريمة كبيرة كمن استحق الإعدام وحكم بهِ عليهِ بمقتضى الشرائع المدنية فلا ينجو منهُ بواسطة العماد على أن ولاة الأمور

(225)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

اذا صفحوا عن المجرمين اعلاءً لمجد الله في أسراره يعملون عملاً دينياً تقوياً يستحقون عليهِ وافر الحمد والثناء.

السابع والأربعون: تغفر بالعماد العقوبات المتوجبة على

الخطاة في الآخرة

يولي العماد أيضاً بعد هذه الحياة نجاة من جميع العقوبات التي تتبع الخطية الأصلية فقد نلنا هذه النعمة باستحقاق آلام الرب لأننا بالعماد نموت للمسيح كما تقدم القول فإن كنا غرسنا معهُ كما قال الرسول على شبه موته فنكون على شبهِ قيامتهِ أيضاً (رومة ص 6 عـ 3 و 4).

الثامن والأربعون: لماذا لا يرد إلينا بالعماد حال الطبيعة

الكاملة

اذا سألَ سائل: لماذا لا ننجو بالعماد من مكاره وأكدار هذه الحياة الزائلة ولا نرقى بقوة الغسل المقدس إلى درجة تلك الحياة التي وضع فيها قبل الخطية آدم أبونا الأول أجبناه أن لذلك سيبين خاصة. أولهما هو أننا لما اتخذنا بجسد المسيح بواسطة المعمودية وصرنا أعضاءَه لا يجب أن نرقى الى مقام أعلى من المقام الذي رقا إليهِ رأسنا نفسه. فإن كان السيد المسيح المملوء نعمة وحقاً من مولده لم يخلع ضعف طبيعتنا التي اتخذها قبل أن كابد عذاب الآلام والموت ثم قام لمجد الحياة الدائمة فهل نتعجب من أن المؤمنين الذين نالوا بالعماد نعمة البر السماوي ما زالوا لابسين جسداً واهناً كثير العطب حتى بعد أن يكونوا احتملوا لأجل المسيح مشقات

(226)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

كثيرة وماتوا يعودون الى الحياة ويستحقون أن يرتعوا مع المسيح في رياض الحياة الأبدية. والسبب الثاني الذي من أجلهِ بقى فينا بعد العماد ضعف الجسد والأمراض والأوجاع وحركات الشهوة هو كي تكون لنا بمنزلة بذار ومادة للفضيلة التي بها ننال أعظم مجد وأفضل ثواب لأننا لما نحتمل بصبر جميع الأكدار ونخضع بعون الله عواطف نفسنا الردية لحكم العقل يحق لنا أن نعتصم برجاءٍ وطيد اننا اذا جاهدنا مع الرسول جهاداً حسناً وتممنا سعيناً وحفظنا إيماننا يمنحنا أيضاً الرب القاضي العادل اكليل المجد في اليوم الأخير. ويظهر أن الرب تصرف على هذا النمط مع بني اسرائيل الذين وان خلصهم من عبودية المصريين بتغريق فرعون وجنوده في البحر لم يدخلهم حالاً أرض الميعاد السعيدة لكنهُ روّضهم قبلاً بوقائع شتى ثم لم ملكهم أرض الميعاد وطرد السكان من أوطانهم أبقى بقية من الأمم لم يقدروا على قرضها كي لا يعوز أبداً شعب الله مندوحة للحرب يروض بها قوته وبسالته ثم لو أعطي البشر بالعماد الخيرات الجسدية فضلاً عن المنح السماوية التي يتحلى جيد نفسنا بعقودها لكان لنا سبيل الى الشك في أن كثيرين يقبلون الى العماد سعياً في أثر نعيم الحياة الحاضرة أكثر من ابتغاءِ المجد المرجو في الآخرة مع أنهُ من الواجب أن تقدم دائماً للإنسان المسيحي الخيرات الحقيقية الراهنة الأبدية الغير المنظورة لا الخيرات الباطلة الغير الثابتة المنظورة.

(227)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

التاسع والأربعون: لا يخلو المعمدون من أن يذوقوا لذة راهنة

وان اكتنفتهم مشقات هذه الحياة

ان حالة هذه الحياة وان موعبة اكداراً لا تخلو من لذاتها ونعيمها فهل من أمر أشهى وألذ لنا نحن الذين طعمنا بالمسيح كأغصان الكرمة من أن نحمل الصليب على منكبينا ونتبع قائدنا وملكنا بعزم لاتوهمهُ الأتعاب ولا تصده الأهوال عن الكد والجد في إدراك ثواب دعوة الله العلوية فينال البعض اكليل البتولية وغيرهم تاج التعليم والكرازة وآخرون اكليل الاستشهاد والبعض تاج الفضائل الأخرى. فما من أحد يعطي هذه العلامات الشريفة المجيدة ما لم يكن قبلاً روّض نفسهُ بالاجتهاد في تحمل بلايا هذه الحياة وثبت في مضمار الجهاد فائزاً ظافراً.

الخمسون: ماذا ينال الإنسان بالعماد عدا غفران الخطايا

وترك العقاب

فنعود الى الكلام في مفعول العماد ونقول ان العماد فضلاً عن ابنهُ ينجينا من تلك الشرور الموبقة يولينا أيضاً خيرات سنية ومنحاً بهية لأن نفسنا تمتلئ نعمة إلهية نصير بها أبراراً وأبناء الله وورثة الحياة الأبدية (يوحنا ص 1 عـ 12) فقد كتب: من يؤمن ويعتمد يخلص (مرقس ص 16 عـ 16) وشهد الرسول أن الكنيسة طهرت بغسل الماء بكلمة الحياة. فوفقاً لتعليم المجمع التريدنتيني المقدس الذي حتم على الجميع بوجوب الاعتقاد بهِ تحت طائلة الحرم نقول ان هذه النعمة ليست قائمة بترك الخطايا فقط بل انما هي صفة إلهية ترسخ في النفس وكأنها ضياء ونور تنقي من كل دنس نفوسنا

(228)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وتوليها أفضل جمال وأسنى بهاء وهذا يلخص جلياً من الأسفار الإلهية اذ تقول ان النعمة تسكب علينا وتسميها عربون الروح القدس.

الحادي والخمسون: يتبع النعمة الإلهية المنسكبة بالعماد  
فضائل أخرى كأنها رفيقات لها

يصحب هذه النعمة جميع الفضائل السنية التي تنسكب في النفس مع النعمة من قبل الله تعالى ولذا قال الرسول المعظم لتلميذه تيطس: خلصنا هو لا اعتباراً لأعمال بر عملناها بل لرحمتهِ بغسل الميلاد الثاني وتجديد الروح القدس الذي أفاضهُ علينا بكثرة بيسوع المسيح مخلصنا (ص 3 عـ 5 و 6) فالقديس اغوسطينوس في تفسيره هذه العبارة (افاضةُ بكثرة) قال: ان المراد غفران الخطايا وكثرة الفضائل.

الثاني والخمسون: بالعماد نتحد بالمسيح اتحاد الأعضاء بالجسد

ان العماد يضمنا الى المسيح ويربطنا بهِ ربط الأعضاء بالرأس ولهذا كما تسري من الرأس قوة تحرك كل عضو من الجسد الى قضاء وظيفتهِ حسناً هكذا تفاض من امتلاءِ السيد المسيح على جميع الذين يتبرَّرون قوة ونعمة تصيراننا جديرين بكامل أعمال التقوى المسيحية.

الثالث والخمسون: كيف يتفق أن المعمدين مع ما نالوه من

فيضان الفضائل الكثيرة لا يزالون متقاعسين عن

التروض بالتقوى

(229)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

لا يتعجبنَّ أحد من أننا مع تسلحنا بوفرة الفضائل السنية وتحلينا بعقودها لا نقدم الى أعمال التقوى والصلاح أو لا نتممها الاَّ بمزيد الصعوبة والعناء على أن هذا لا يتأتى من قبل أن الله سبحانهُ لم يمنّ علينا بالفضائل الصادرة عنها هذه الأعمال بل لأن الشهوة ما برحت تقاوم فينا الروح أشد مقاومة. إنما لا يليق بالإنسان المسيحي أن يفشل في هذه الحرب أو يهلع أو ترتخي عزائمهُ بل علينا أن نعتصم بالرجاء الصالح معتمدين على رحمة الله اننا اذا جالدنا كل يوم على رياضة السيرة الصالحة تتسهل لنا وتستعذب خصال العفة وخصال العدل والقداسة.

فلنسعينَّ في أثرها بطيبة القلب والخاطر والله ولي السلام يكوت معنا ويعضدنا.

الرابع والخمسون: ان المعمودية تطبع في نفسنا وسماً لا يمحى

ثم ان المعمودية تطبع في نفسنا وسماً لا يمحى للأبد فلم يبقَ لنا هنا أن نطيل الكلام فيهِ اذا أوردنا ما بهِ الكفاية لدى تكلمنا في الأسرار بوجه العموم فحسبنا هنا أن نقتصر على ما مرَّ في هذا الموضوع.

الخامس والخمسون: يتبين أن العماد لا يمكن تكراره قطعاً

حيث حدَّدت الكنيسة ان العماد لا يكرّر بوجه من الوجوه من قبل قوة هذا الوسم وطبعه يلزم الرعاة أن يبذلوا جهدهم في تنبيه المؤمنين الى ذلك غير مرة حذراً من أن يهووا في الظلال وقد علم الرسول المعظم هذه الحقيقة بقولهِ: الرب واحد والإيمان واحد والمعمودية واحدة (أفسس ص 4 عـ 5) ثم لما حذّر الرومانيين من أن يفقدوا الحياة التي نالوها من المسيح بموتهم معهُ بالمعمودية قال: ان المسيح مات عن الخطية مرة واحدة (ص 6 عـ 10)

(230)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فأشار بذلك أشارة جلية على أنهُ لا يحل لنا أن نموت مرة ثانية بالمعمودية كما أن المسيح لا يمكنهُ أن يموت بعد ولذلك تعترف الكنيسة بمعمودية واحدة ونعقل أن هذا التعليم يطابق أتم مطابقة لطبع العماد والصواب من كون المعمودية هي الميلاد الثاني الروحي فكما أننا نولد مرة واحدة بالقوة الطبيعية ونبرز للوجود ولا يتكرّر الميلاد كما قال القديس اغوسطينوس كذلك الميلاد الروحي هو واحد وبالتالي لا يجوز قطعاً في وقت من الأوقات تكرار المعمودية.

السادس والخمسون: لا يعمد ثانية أولئك الذين يغتسلون

بماءِ العماد شرطياً

لا يتوهمنَّ أحد أن الكنيسة تكرّر العماد حين تغسل بمائهِ من وقع الشك في عماده قبلاً مستعملة صورة هذا الكلام: ان كنت معمداً فأنا لا أعمدك ثانية اما ان كنت غير معمد فأنا أعمدك باسم الآب والابن والروح القدس. فعلى هذا النحو لا يقال ان العماد يتكرر نفاقياً بل مع إضافة الشرط المشروح آنفاً يتم العماد بالقداسة.

السابع والخمسون: لا يمنح العماد الشرطي الاَّ لمن كان عماده

مشكوكاً فيهِ أو في صحتهِ

على رعاة النفوس ان يتداركوا جهدهم في هذا الخصوص بعض حوادث يكاد يقع فيها الخطا كل يوم فيلتحق بالسر اهانة كبيرة. لأن من الناس من يظنون أنهم لا يرتكبون أدنى خطئ اذا عمدوا أياً كان عماداً شرطياً. ولهذا اذا قدم اليهم طفل فلا يخطر على بالهم أن

(231)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يسألوا هل عُمدَّ قبلاً أو لا بل في الحال يمنحونهُ سر العماد ولو تحققوا أيضاً أن السر منح في البيت مع ذلك يقدمون على اعادتهِ في الكنيسة شرطياً باحتفال. مع أن ذلك ضرب من السكريلج (احتقار الأمور المقدسة) يقعون بسببهِ في التأديب الذي يسميه اللاهوتيون بالعجز لأن العماد الشرطي وفقاً لتعليم البابا اسكندر لا يحل منحه الاَّ للذين يبقى الريب بعد الفحص الجهيد في هل أنهم عمدوا عماداً صحيحاً أو لا وفيما خلا ذلك لا يجوز قطعاً اعادة العماد وان شرطياً.

الثامن والخمسون: ما الثمرة الأخيرة التي يجنبها الناس

من العماد

يجني من العماد أيضاً هذه الثمرة الأخيرة العائدة إليها بقية الفوائد المار ذكرها وهي ان باب السماء الموصد بسبب الخطية يفتح للمعمدين وتتبيين لنا مفاعيل العماد من الحوادث التي رواها الإنجيل المقدس في أثناء عماد المخلص في نهر الأردن فتحت السماوات وقتئذٍ وحلَّ الروح القدس على السيد المسيح بشكل حمامة. فذلك يدل على أن الذين عمدوا ينالون المواهب الإلهية ويفتح لهم باب السماء لا ليدخلوها حال اعتمادهم بل حين يرى الله موافقاً أن ينقذهم من جميع الملمات التعيسة التي تخلو عنها الحياة السعيدة ويقبلهم في ذلك المجد ناقلاً اياهم من حالة الموت الى حالة عدم الميتوتة. فلا ريب في أن الجميع يجنون هذه الثمار بالسواء من العماد اذا اعتبرنا قوته واما اذا لاحظنا استعداد المتقدمين الى

(232)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

العماد لزمنا أن نعتقد أن كلاً ينال من النعمة السماوية والثمار أكثر أو أقل من الآخر بحسب تأهبهِ.

التاسع والخمسون: ما قوة رتب العماد الحافلة ومنفعتها

بقى علينا الآن أن نبين بكلام موجز وجلي ما ينبغي أن تعملهُ الرعاة من جهة تلك الصلوات واحتفالات الرتبة والطقوس المقترنة بمنح هذا السر لأن رسول الأمم يقول في كلامهِ على موهبة اللغات أن النطق بلغة لا يفهمها المؤمنون يذهب سدى (قورنتية 1 ص 14 عـ 11).

فيصح هذا القول عينه في مسألة الطقوس والرتب لأنها تمثل لنا صورة ودلالة تلك الأمور التي تفعل بالسر. فإذا جهل الشعب المؤمن قوة هذه العلامات وما لها فلا يرى حينئذٍ منها كبير فائدة. فيلزم الرعاة اذاً أن يعتنوا جهدهم بأن يفهموا المؤمنين قوة هذه الاحتفالات ويقنعوهم بأنها وان كانت أقل لزوماً من السر مع ذلك يجب اعتبارها وتوفيرها غاية الاعتبار والتوقير ويكفينا مؤُونة البرهان على ذلك سلطة راسميها الذين هم الرسل القديسون مما لا يشوبهُ ريب ثم الغاية التى لأجلها أرادوا أن تستعمل هذه الاحتفالات. اذ من المحقق انها تساعد على منح الأسرار بأعظم تقوى وقداسة وكأنها تضع نصب أعيننا ما تتضمنهُ من تلك المواهب السنية الفاخرة وتطبع في نفوس المؤمنين احساناته تعالى الجزيلة.

الستون: كم هي أقسام رتبة العماد

ان جميع الاحتفالات والصلوات التي تستعملها الكنيسة في منح

(233)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

العماد تنحصر في ثلاثة أقسام فلا بد للرعاة أن يرعوا نظاماً في شرحها كي يتوفر لمن يلقونها على مسامعهم سهولة ايعائها في ذهنهم. فالأول يشتمل على ما يجب حفظه قبل التقدم الى حوض المعمودية. والثاني يحتوي ما ينبغي استعماله حين القدوم إلى الحوض المذكور. والثالث يتضمن ما من عادتهِ أن يضاف بعد تتميم العماد.

الحادي والستون: متى يجب تكريس الماء المطلوب استعماله

للعماد بالرتبة المألوفة

يجب أولاً اعداد الماء المطلوب استعماله في العماد ثم يكرس حوض المعمودية بزيت المسحة السرية. ولا يسمح بأن يصنع ذلك في أي وقت كان بل حسب عادة الأقدمين تنتظر أيام أشهر الأعياد وأقدسها فيكرس ماء العماد المقدس في بيرموناتها وقد كانت العادة القديمة في الكنيسة أن يحتفل فيها وحدها بسر العماد لا في وقت آخر الاَّ عند الضرورة ولكن وان لم تستصوب الكنيسة في هذه الأيام وجوب التمسك بتلك العادة فيما يخص العماد لما يطرأ من الأخطار على حياة البشر فإنها لم تزل إلى الآن حافظة بمزيد العبادة والاحترام عادة تكريس الماء الاحتفالي في بيرمون عند الفصح والعنصرة.

الثاني والستون: لماذا لا يسمح للمرشحين إلى العماد بأن

يدخلوا الكنيسة

ينبغي أن نشرح ما يسبق العماد أيضاً بعد تكريس الماء فنقول أنهُ يؤتى بالمرشحين للعماد إلى باب الكنيسة ويمنعون بالمرة من دخولها بما أنهم لا يستحقون أن يدخلوا بيت الله قبل أن يخلعوا عنهم

(234)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

نير العبودية الفظيعة ويقيدوا ذواتهم كلياَ بسلطانهِ تعالى الكلي العدل والاستقامة.

الثالث والستون: لماذا يسأل المرشحون عما يطلبونهُ

ويرشدون

ثم يسألهم الكاهن ماذا يطلبون من الكنيسة فاذا عرف مطلوبهم يعلمهم أولاً أصول الإيمان المسيحي الواجب أن يعترفوها في العماد وما من أحد يشك أن عادة هذا الرسم مأخوذة عن أمر ربنا ومخلصنا للرسل اذ قال: اذهبوا الى العالم كلهِ وعلموا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس وعلموهم جميع ما أوصيتكم بهِ. فمن هذه الآية الكريمة نستدل على أن العماد لا ينبغي أن يعطي قبل أن يتعلم المرشح على ما قل أصول الديانة المسيحية.

الرابع والستون: كيف يجب أن يتعلم الأميون بموجب

رسم الكنيسة القديم

لما كانت نوعية التعليم متوقفة على عدة سوالات لزم المرشح اذا كان بالغ الرشد ان يجاوب بنفسهِ على ما يطارح بهِ من الأسئلة وان كان طفلاً فعلى عرابهِ اي كفيلة أن يجاوب عنهُ ويكفلهُ كفالة جهيرة.

الخامس والستون: ما هو استعمال التقسيم

يلي التقسيم الذي يتم بالصلوات المقدسة الدينية لطرد الشيطان وايهان قواه ومحقها ولهذا ينفخ الكاهن ثلثاً في وجه المرشح كي تطرد عنهُ قوة الحية القديمة وينال نسمة الحياة المفقودة.

(235)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

السادس والستون: لماذا يوضع ملح في فم المرشح

يضاف الى التقسيم احتفالات اخر سرية لكل منها معنى خاص وشهير لأن وضع الملح في فم المرشح يدل دلالة صريحة على أنهُ أوشك أن ينجو بتعليم الله وموهبة نعمتهِ من نتانة الخطايا وينال ذوق الأعمال الصالحة العذب والرتوع في رياض الحكمة الإلهية.

السابع والستون: ما الغرض من عمل اشارة الصليب المقدس

على عدة أعضاء من الجسد

ترسم إشارة الصليب على الجبين والعينين والصدر والكتفين والأذنين دلالة على أن حواس المرشح تفتح بهذا السر وتتقوىَّ كي يقبل الله ويفهم وصاياه ويحفظها.

الثامن والستون: لماذا تدهن بالريق منخارا المرشح وأذناه

ثم يدهن بالريق منخارا المرشح وأذناه ويرسل في الحال إلى حوض المعمودية على مثال ذلك الأعمى المذكور في الإنجيل الذي أمره المسيح الرب بعد أن طلى عينيه بالطين بأن يذهب فيغتسل في بركة شيلوحا فذهب واغتسل وجاءَ يبصر فكما أن ماء شيلوحا فتح عيني ذاك الأعمى كذلك نوقن أن في الغسل المقدس قوة تأتي ذهننا بالنور لإدراك الحقائق السماوية.

التاسع والستون: ما المراد من الكفر بالشيطان

فبعد أن يكون تم كل ما ذكر يؤتى بالمرشح إلى حوض المعمودية

(236)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وهناك تجري طقوس واحتفالات اخر يستدل بها على خلاصة الديانة المسيحية، فالكاهن يسأل المرشح ثلاثة أسئلة اتكفر بالشيطان وبجميع أعمالهِ وبجميع خصالهِ وعلى كل سؤال يجيب المرشح أو العراب بالنيابة عنهُ نعم أكفر. فإذن من تجند للمسيح لزمهُ قبل كل شيء أن يعد وعداً صادقاً مقدساً أنهُ يكفر بالعالم والشيطان وأنهُ في كل اين وآن يمقتهما كاعدائهِ الالداء.

السبعون: ان المرشح يدهن بزيت العماد في صدره وبين

كتفيه فما الغرض من هذا الدهن

بعد ذلك يمسح المرشح بزيت العماد في صدره وبين كتفيه. أما بصدره فلكي ينبذ الضلال والجهل ويقبل الإيمان المستقيم بموهبة الروح القدس. لأن البار يحيا من الإيمان (غلاطية ص 3 عـ 12) واما بين كتفيه فلكي يخلع عنهُ الكسل والهلع ويمارس الأعمال الصالحة بنعمة الروح القدس لأن الإيمان بدون أعمال ميت (يعقوب ص 2 عـ 26).

الحادي والسبعون: كيف ينبغي على المرشح أن يعترف

بإيمانهِ

ثم يقوم تجاه حوض المعمودية ويسألأهُ الكاهن هكذا: أتؤمن بالله الآب الضابط الكل. فيجيب نعم أؤمن ومثلهُ عن باقي قانون الإيمان فيعترف بإيمانهِ اعترافاً دينياً جهيراً ولا يخفي أن بهذين الجوابين يتضمن فحوى كامل الديانة المسيحية ورسومهاْ.

(237)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الثاني والسبعون: لماذا يسأل من يدنو إلى الاغتسال بالماء

الخلاصي هل يريد أن يعتمد

متى أوشك الكاهن أن يمنح سر العماد يسأل من أزمع أن يعمده هل يريد أن يتعمد فإن أجاب بالإيجاب أما بنفسهِ أو عرابه بالنيابة عنهُ اذا كان طفلاً حالاً يغلسهُ بالماءِ الخلاصي باسم الآب والابن والروح القدس فكما أن الإنسان قد شجب بعدل لأنهُ أطاع الحية بارادته هكذا الرب لا يشأُ إن يقبل بجنديتهِ الاَّ من أراد باختياره كي يذعن للأوامر الإلهية من تلقاءِ نفسهِ ويظفر بالخلاص الأبدي.

الثالث والسبعون: لماذا يدهن رأس المعمود بالميرون

ففي أن يكون تم العماد يدهن الكاهن قمة رأس المعمود بالميرون كي يعقل أنهُ من ذاك النهار اتحد بالمسيح رأسهِ كعضو لهُ وقد طعم بجسد المسيح فصار مسيحياً نسبةً إليهِ كما أن المسيح دعي مسيحاً من المسح. وشهد القديس امبروسيوس أن الصلاة التي يتلوها الكاهن في ثناء المسح تفهمنا بالكفاية ما يدل عليهِ الميرون.

الرابع والسبعون: على ماذا يدل الثوب الأبيض أو المنديل الأبيض

الذي يلتحف بهِ المعمود

ثم يلبس الكاهن المعمود ثوباً أبيض قائلاً لهُ: خذ ثوباً نقياً تلبسهُ مصوناً من الدنس أمام منبر ربنا يسوع المسيح كي تنال الحياة الأبدية.

أما الأطفال الذين لا يستعملون لباساً فيعطيهم منديلاً أبيض ويتلو الكلام نفسهُ المار ذكره فأفاد الآباء القديسون أن هذا الثوب أو المنديل يرمز الى مجد القيامة التي نولد لهُ بالعماد والى النقاوة

(238)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

والجمال اللذين ازدانت بها النفس في أن رحضت من أدناس الخطايا والى البرارة والطهارة التي يجب على المعمود حفظها كل أيام حياتهِ.

الخامس والسبعون: على ماذا تدل الشمعة الموقودة التي يحملها المعمود

ثم يسلم بيد المعمود شمعة موقودة دلالة على أن المعمود يلتزم بالمواظبة على الأفعال الصالحة لينعش وينمي الإيمان المضطرم بالمحبة الذي نالهُ بالعماد.

السادس والسبعون: لماذا وكيف يجب أن يوضع للمعمود اسم

وفي الآخر يوضع للمعمود اسم يؤخذ عمنَّ أحصي بين عداد القديسين لحسن تقواه وفضائله اذ قد يتفق أن مشابهة الإسم تحملهُ على الاقتداء بفضيلتهِ وقداستهِ وفضلاً عن ذلك يتهيأ لهُ أن يتوسل إليهِ ويرجو أن يكون شفيعه المشفع في أمر خلاصهِ ويدفع عن نفسه وجسده الآفات والأخطار ولهذا يلام أولئك الذين يتخذون لأولادهم أسماء وثنيين ولاسيما اذا كانوا من أشقياء العالم وأراذيله. ومن ذلك نعقل أن ليس اعتبار للتوقى المسيحية عند أولئك الذين يحبون كثيراً ذكر الأناس الكفرة الى حد أنهم يريدون أن تطن بآذان المؤمنين في كل اين تلك الأسماء الوثنية.

(239)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

السابع والسبعون: خلاصة ما أوردناه في سر العماد

اذا صرحت رعاة النفوس بكل ما أوردناه في شأن سر العماد فلا يكون فاتهم شيء مما يرى مختصاً بهذه المعرفة لأننا قد أبنا مدلول اسم العماد وطبعه وجوهره وأقسامه وقد قلنا من رسمهُ ومن هم الخدام اللازمون لتتميم السر ومن يجب أن يقام بمنزلة معلم المعاونة المعمود في ضعفهِ وذكرنا من يقبلون هذا السر وما ينبغي من الاستعداد لقبولهِ وما قوته وفاعليته وفي الأخر ما يرعى في خدمتهِ من الاحتفالات والطقوس وكل ذلك شرحناه بالتفصيل على قدر ما يقتضيه المقام. فلذا ينبغي على الرعاة أن يهتموا ببيان هذه الأمور جميعها كي يواظب المؤمنون على الاهتمام والافتكار في أن يفوا تمام الوفاء ما وعدوه وعداً مقدساً دينياً لدن اعتمادهم ويسيروا سيرة تطابق اعترافهم بالديانة المسيحية.

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الفصل الثالث

"في سر التثبيت"

أولاً: لماذا ينبغي أن نبين في يومنا هذا خاصة بأجلى بيان

قوة سر التثبيت

يجب على الرعاة أن يبذلوا جل مجهودكم في إيضاح سر التثبيت للمؤمنين لاسيما في أيامنا حيث كثر الذين يهملونهُ في بيعة الله

(240)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

المقدسة وقل من يهتم في أن يجني منهُ ثمرة نعمة الله المطلوبة ولهذا لابد من أن نعلم المؤمنين حقيقة هذا السر وقوته ومقامه ثم أوقات منحه أي يوم

العنصرة خاصة أو أياماً أخرى يراها الرعاة موافقة لمنحهِ كي يعقلوا (اي المؤمنون) أن ليس الواجب عليهم فقط أن لا يهملوه بل أن يقبلوه بمزيد التقوى والورع لئلا يذهب سدى هذا الإحسان الإلهي بذنبهم فيخسرون خسارة جسيمة.

ثانياً: لماذا تسمي الكنيسة هذا السر سر التثبيت

حقنا أن نبتدئ ببيان اسم هذا السر فنقول أن الكنيسة تسميه التثبيت لأن المعمود حين يمسحه الأسقف بالميرون ويقول لهُ "أنا اسمك برسم الصليب واثبتك بميرون الخلاص باسم الآب والابن والروح القدس" ينال قوة جديدة تصيره أثبت عزماً ان لم يكن ما يمنع فاعلية السر ويبتدئ أن يكون جندياً كاملاً للمسيح.

ثالثاً: في أن التثبيت سر حقيقي من أسرار الشريعة الجديدة

ان الكنيسة قد عرفت دائماً التثبيت سراً حقيقياً وخاصاً وقد أثبت ذلك صريحاً البابا مليكادس وغيره كثيرون من الأحبار الأعظمين الأسمى قداسة والأبعد قدميةً والقديس اكليمنضوس في رسالتهِ الى يوليانوس قد أيد تعليم هذه الحقيقة بكلام تناهي بالصراحة والسداد اذ قال : يجب على الجميع أن يبادروا بدون ابطاء الى الولادة الثانية لله ثم الى التثبيت بيد الأسقف اي لنوال نعمة الروح القدس ذات المواهب السبع اذ لا يستطيع أن يكون مسيحياً كاملاً من يهمل هذا السر من قبل احتقاره اياه وباختياره لا بداعي الضرورة كما

(241)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

علمنا الطوباوي بطرس وباقي الرسل آخذاً عن وصية الرب. والأحبار الرومانيون أوربانوس وفبيانوس وأوسابيوس الذين كانوا مملؤين من هذا الروح نفسهِ وجادوا بحياتهم لأجل المسيح قد علموا هذا التعليم بعينهِ واثبتوه بمراسيمهم.

رابعاً: في المعلمين القديسين الذين ذكروا هذا السر

وناهيك عن اجماع الآباء القديسين قولاً وحكماً على هذه الحقيقة منهم ديوجينيوس الأريوباجيتا أسقف اتينا فإنه في كلامه على كيفية عمل هذه المسحة المقدسة ووجوب استعمالها قال: ان الكهنة يلبسون المعمود ثوباً نظيفاً لايقاً ويقدمونه الى الحبر فيسميهُ بالميرون المقدس الإلهي ويناوله سر القربان المقدس وأوسايبوس القيصري أجلَّ قوة هذا السر كل الاجلال حتى قال بدون تردد أن نوفاتوس الأراتيكي لم يقدر أن يستحق الروح القدس لأنهُ بعد أن عمد لم يوسم بالميرون المقدس (اى لم يثبت) في مرضهِ الثقيل ولنا أيضاً بينات واضحة سديدة على هذا السر من القديس امبروسيوس في كتابه الذي صنفه في الذين يقبلون سر العماد ثم من القديس أغوسطينوس في رسائلهِ التي كتبها دحضاً لبتليانوس التابع بدعة دوناتوس وكلاهما لم يريا امكاناً للريب في حقيقة هذا السر حتى أنهما اثبتاها بنصوص من الأسفار الإلهية فأحدهما أورد بينة على سر التثبيت آية الرسول المعظم في رسالته إلى أهل أفسس: لا تحزنوا الروح القدس الذي ختمتم بهِ (ص 4 عـ 20) والآخر أية داود النبي القائل فيها: مثل الدهن على الرأس الذي نزل على اللحية لحية هارون (مزمور عـ 132) ثم كلام الرسول المعظم في رسالتهِ إلى أهل رومية: محبة الله أفيضت على قلوبنا بالروح القدس الذي أعطيناه (ص 5 عـ 6)

(242)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

خامساً: ما الفرق بين المعمودية والتثبيت

ولو قال البابا ملكيادوس أن العماد مقترن أعظم اقتران بسر التثبيت مع ذلك يجب الاعتقاد أن ليس هو اياه بل يفرق عنه فرقاً عظيماً والدليل على ذلك اختلاف النعمة التي يخولها كل منهما واختلاف الشيء الواقع تحت الحواس الدال على النعمة عينها فبنعمة سر العماد يولد الإنسان للحياة الجديدة إنما بسر التثبيت يغدو الذين ولدوا رجالاً خالعين عنهم أخلاق الطفولية (قورنتية 1 ص 13 عـ 11) فبقدر ما يختلف الميلاد في الحياة الطبيعية عن النمو يختلف العماد الذي إنما هو الميلاد الثاني عن التثبيت الذي بقوتهِ ينمو المؤمنون ويتدرعون بكمال قوة النفس ثم من وجه آخر يظهر الفرق بين سر العماد وسر التثبيت وذلك عندما تعرض للنفس شدة جديدة فكما أننا نفتقر إلى نعمة العماد ليتدرب عقلنا بالإيمان كذلك نحتاج إلى نعمة آخرى تقوي عزائمنا وتثبتها حتى نعترف بالإيمان الصحيح بشجاعة ولا يهبنا عقاب ولا عذاب ولا خطر الموت نفسه ولما كان سر التثبيت يخولنا هذه النعمة تبين أنهُ سر متميز عن العماد ولهذا قد بين البابا ملكيداس بكلامهِ الفرق الواقع بين العماد والتثبيت اذ كتب قائلاً أن الإنسان يقبل في مصاف الجندية بالعماد ويتسلح للجهاد بالتثبيت. في حوض العماد يمنح الروح القدس الامتلاء للبرارة أما بالبتثبيت فيخوّل الكمال للنعمة. بالعماد نولد ثانية للحياة وبعد العماد نثبت على الجهاد بالعماد ننتسل وبعد العماد

(243)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

نتقرى. الميلاد الثاني يخلص بذاته من قبلوه بالسلام والتثبيت يدججهم بالسلاح ويدربهم على المحاربة وقد علمنا هذا التعليم مجامع عديدة تخص منها بالذكر المجمع التريدنتيني المقدس فإنهُ حكم فيهِ حكماً لا يحل لنا أن نرتاب فيه ولا أن نرى رأياً يخالفهُ.

سادساً: من أبدع سر التثبيت

حيث قد بينا فيما مضى شدة اللزوم لتعليم الشعب ما يختص بالأسرار بوجه العموم ولبيان منشئها ينبغي أيضاً أن تشرح للمؤمنين سر التثبيت ونبين لهم منشئه كي يدركوا أتم إدراك قداسة هذا السر فعلى الرعاة اذا أن يفهموهم أن السيد المسيح نفسهُ أنشأَ هذا السر ورسم أيضاً استعمالهُ بالمادة والصورة اللتين بهما تمنحهُ الكنيسة الكاثوليكية كما شهد القديس فابيانوس الحبر الروماني ويسهل اثبات ذلك لمن يعتقدون أن التثبيت سرٌّ لكون جميع الأسرار تفوق طور العقل البشري ومن ثم لا يكون منشئها الاَّ الله وحده فعلينا الآن أن نتكلم في أقسامهِ وأولاً في مادتهِ.

سابعاً: ما هي مادة هذا السر المقدس

مادة هذا السر الدهن المركب من زيت الزيتون والبلسم والمبارك من الأسقف ويعبر عنهُ بالميرون وفي اللغة اليونانية يسمى (كريزما) فالكتبة العالميون قد أطلقوا معنى هذه اللفظة على أي دهن كان وأما في اصطلاح الكتبة الكنائسيين قد خصت بالدلالة على الدهن الذي ذكرناه ولذلك تتألف مادة التثبيت من شيئين ماديين

(244)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ممتزجين وتدل على مواهب الروح القدس المتعددة التي تمنحها نعمة هذا السر للمثبتين وعلى عظمة هذا السر. فنظراً إلى أن هذه هي مادة هذا السر فقد علمت ذلك الكنيسة الكاثوليكية والمجامع المقدسة في كل اين وآن واستلمناه من القديسين ديونيزيوس وغيره كثيرين من الآباء المعظمين ولاسيما القديس فابيانوس الحبر الروماني الذي شهد أن السيد المسيح علم الرسل صنع الميرون وهم علمونا اياه.

ثامناً: على ماذا يدل الزيت في مادة التثبيت

ما من مادة أخرى أنسب من الميرون للدلالة على ما يفعلهُ هذا السر لأن الزيت لما أنهُ دسم ومن طبعه يثبت ويسري يشير إلى ملء النعمة التي تفيض من المسيح رأسنا وتسري إلينا بواسطة الروح القدس كما قال النبي داود: مثل الدهن النازل على لحية هارون النازل حتى جيب قميصه (مزمور 132 عـ 2) وفي محل آخر: مسحك الله بدهن الفرح أفضل من رفقائك (مزمور 45 عـ 8) وقول يوحنا الرسول: ومن امتلائه نحن جميعنا أخذنا (ص 1 عـ 16)

تاسعاً: على أي شيء يدل هنا البلسم الممزوج بالزيت

أما البلسم الطيب الرائحة للغاية (ابن سيراخ ص 24 عـ 20) فيدل على أن المؤمنين حين يكملون بقبول سر التثبيت تفوح منهم رائحة عطر الفضائل بأجمعها حتى يسوغ لهم أن يقولوا ما قالهُ رسول الأمم: نحن رائحة المسيح الطيبة لله (قورنتية 2 ص 2 عـ 15).

(245)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وللبلسم أيضاً قوة على منع الفساد والنتانة عن كل ما يطلى بهِ. وهذا يناسب كل المناسبة للدلالة على قوة السر اذ يتبين منهُ بأجلى بيان أن نفوس المؤمنين اذا تحلت بعقود النعمة السماوية التي تقتبس بالتثبيت تسنى لها أن تصان من وباء المآثم.

عاشراً: لما يقتضي أن الأسقف يبارك الميرون

ان الأسقف يكرس الميرون برتبة حافلة لأن فابيانوس الحبر الأعظم المشهود لهُ بالقداسة ومجد الاستشهاد أفاد أن مخلصنا نفسهُ فرض تبريكه في العشاءِ السري لما علم الرسل كيفية عمل الميرون ويمكنا أن نأتي أيضاً بحجة تبين لنا وجوب تبريك الميرون وهي أن أسرار أخرى كثيرة قد رسم السيد المسيح مادتها بنوع اكسبها القداسة أيضاً فلم يشأ فقط أن الماء يكون عنصراً للعماد بقولهِ: ان كان أحد لا يولد ثانية من الماء والروح القدس لا يستطيع أن يدخل ملكوت الله (يوحنا ص 3 عـ 5) ولكنهُ لما اعتمد جعل الماء يتخذ فيما بعد قوة للتقديس ولهذا قال القديس يوحنا الذهبي الفم: ان ماء العماد لو لم يتقدس بمسهِ جسد الرب لما كان قادراً على تطهير المؤمنين من خطاياهم فاذاً حيث لم يقدس الرب مادة التثبيت هذه باستعمالهِ اياها نفس استعمال الماء لزم أن تتكرَّس بالصلوات والابتهالات الدينية المقدسة ولا يمكن أن يختص تكريسها الاَّ بالأسقف وحده الذي أقيم خادماً مألوفاً لهذا السر.

(246)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الحادي عشر: ما صورة هذا السر

يجب علينا أيضاً أن نبين القسم الآخر الذي يتألف منهُ السر أي الصورة وهي الكلام الذي يستعمل للدهن المقدس وننبه للمؤمنين إلى أن يوقظوا نفوسهم الى التقوى والإيمان والعبادة لدن قبولهم هذا السر ولا سيما عند سماعهم كلام الصورة لئلا يحول مانع بينهم وبين النعمة السماوية. وهاك صورة التثبيت "أنا ارسمك برسم الصليب وأثبتك بميرون الخلاص باسم الآب والابن والروح القدس" هذا واذا رجعنا بالحقيقة الدينية الى نور العقل والصواب ثبت ما أوردناه بدون أشكال اذ لا بد من أن صورة السر تحوي جميع ما يشير الى ماهية السر نفسهِ وجوهره.

الثاني عشر: كيف تثبت صحة وكمال هذه الصورة لسر التثبيت

لابد من ملاحظة ثلاثة أمور في التثبيت كما أفاد القديس توما الأكويني في البحث الثاني والسبعين من القسم الثالث في الفصل الرابع منهُ. وهي القدرة الإلهية التي تفعل بالسر فعل العلة الرأسية ثم قوة النفس والروح التي ينالها المؤمنون بالدهن المقدس للخلاص وفي الآخر الوسم الذي يتسمهُ من أزمع أن ينزل مضمار الجهاد في الجندية المسيحية.

فالقدرة الإلهية يعبر عنها بكلام الصورة هذا الأخير: باسم الآب والابن والروح القدس وقوة النفس والروح بالكلام الأوسط وهو أثبتك يميرون الخلاص. والوسم بالكلام الأول وهو أنا اسمك برسم الصليب ثم ولو فرضنا أن ليس من حجة على اثبات ما نقدمهُ في كون الصورة الحقيقية

(247)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

المقرّرة لسر التثبيت هي التي أوردناها فحسبنا برهاناً ودليلاً على ذلك سلطان الكنيسة الكاثوليكية التي علمتنا دائماً هذه الحقيقة بحيث لم يعد يحتمل أدنى ريب في هذا الأمر.

الثالث عشر: من هو الخادم الخصوصي لهذا السر

على الرعاة ان يبينوا أيضاً من فوضت إليهم هذه الخدمة على وجه الخصوص لأن أرميا النبي يقول: ان الذين يسعون كثيرون ومع ذلك لم يرسلوا (ص 23 عـ 21) فمن اللازم اذن أن ندل على الخدام الحقيقيين الشرعيين لهذا السر لكي يستطيع الشعب المؤمن سبيلاً الى الظفر بسر التثبيت ونعمتهِ. فالأسفار الإلهية تبين أن للأسقف وحده سلطاناً مألوفاً على منح هذا السر لأننا نقرأ في الابركسيس أن أهل السامرة لما قبلوه كلمة الله أرسل إليهم بطرس ويوحنا اللذان صليا عليهم ليقبلوا الروح القدس اذ لم يكن بعد صلى على أحد منهم وإنما كانوا اصطبغوا فقط (ابركسيس ص 8 عـ 14 و 15) فنرى من ذلك أن الذي كان عمدهم حيث لم يكن الاَّ شماساً فقط لم يكن لهُ سلطان على التثبيت بل أن هذه الوظيفة تختص بالخدام الأكملين أي بالرسل بحق مرجي وقد لوحظ هذا الأمر كلما أتت الأسفار الإلهية بذكر هذا السر.

الرابع عشر: ويثبت هذا الأمر نفسه من مراسيم الأحبار

الأعظمين

ولا تنقصنا بينات سديدة على اثبات هذه الحقيقة من أقوال الآباء القديسين والأحبار الأعظمين كاوربانوس واوسابيوس ودامازوس

(248)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

واينوشنسيوس ولاون كما يظهر جلياً من مراسيمهم. ثم القديس اغوسطينوس قد شكا كثيراً من عادة المصريين والاسكندريين الفاسدة في تجاسر كهنتهم على منح سر التثبيت. وللرعاة أن يبينوا أن هذه الوظيفة فوَّضت بحق للأساقفة بالمثل الآتي: فكما أن الفعلة في البناء هم الخدام الأدنون يعدون الطين والكلس والحجارة والخشب وباقي الأدوات بيد أن اتمام البناء يختص بالبنَّا وحده. كذلك اقتضى أن هذا السر الذي يتم بهِ البناء الروحي لا يمنحهُ الاَّ عظيم الكهنة.

الخامس عشر: لماذا يقام عرابون في التثبيت وما هي القرابة

التي تؤخذ منهُ

يقام أيضاً عراب في التثبيت كما في العماد لأنهُ اذا كان الذي يبرز إلى ميدان الوعي في هذا العالم يحتاج إلى من يعلمهُ فن القتال كي يتقي الضربات والهجمات ويخرج من مضمار الجهاد فاتكاً بعدوه فبالأحرى يفتقر المؤمنون إلى من يعلمهم فن الحرب الروحية الموكول إليها خلاصهم الأبدي في أن يكونوا تدججوا بسلاح التثبيت للقتال الروحي.

فبالحق اذن ينبغي أن يقام عرَّابون أيضاً في منح هذا السر وتنشاء بينهم وبين المثبت قرابة روحية تمنع عقد الزواج الشرعي كما أبنَّا في ما سلف لدن تكلمنا على العرَّابين الذين يقامون في العماد.

السادس عشر: ان سر التثبيت لا يلزم لزوماً قطعياً ومع ذلك

لا يجوز إهمالهُ

كثيرأ ما يتفق أن المؤمنين يتجاوزون حد الاعتدال في الإسراع الى

(249)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

قبول هذا السر أو يتأخرون عنهُ تأخراً غير معقول فلا تقول شيئاً في الذين قد بلغوا الى درجة من الكفر قاصية حتى تجاسروا على احتقاره ورذله فينبغي على الرعاة أن يبينوا من هم الذين يجب أن يثبتوا وبأي عمر وبأي استعداد واجتهاد في التقوى يجب أن يكونوا وعليهم أن يعلموا في بادئ بدءهم أن هذا السر لا يلزم لزوماً قطعياً للخلاص ومع ذلك لا يحل لأحد أن يهملهُ وبوجه أولى ينبغي الحذر من ارتكاب التهاون بأمر موعب قداسة بهِ يمن الله سبحانهُ على الجميع بفيض مواهبه الإلهية. فإن ما يقدمه الله للجميع عموماً لأجل تقديسهم يلزم الجميع أيضاً ان يجدوا في أثره بمزيد الهمة والاجتهاد.

السابع عشر: في أن الجميع يلتزمون بقبول سر التثبيت

ان القديس لوقا البشير في كلامه على حلول الروح القدس ذاك الحلول العجيب قال: فحدث بغتةً صوت من السماء كصوت ريح شديدة تعصف وملاء كل البيت (ابركسيس ص 2 عـ 2) ثم بعيد ذلك قال: فامتلأوا كلهم من الروح القدس (ص 2 عـ 4) فيتاح لنا أن نفهم من هذه الآية الكريمة أن ذاك البيت هو صورة الكنيسة المقدسة ورمزها ومن ثم يلزم أن سر التثبيت الذي كان الشروع بهِ من ذاك اليوم يخص جميع المؤمنين. ويتلخص هذا نفسهُ من طبع السر المذكور لأن كل من يحتاج إلى النماء الروحي وقصد البلوغ الى الرسوخ على كمال الديانة المسيحية لزمهُ أن يقبل سر التثبيت والحال ما من أحد الاَّ صح فيهِ هذا القول. لأن من داب الطبيعة أن تستلزم نمآ المولودين وبلوغهم الى كمال العمر وان لم تدرك أحياناً

(250)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ما تبتغيه. فعليهِ أن الكنيسة الكاثوليكية أم الجميع تتوق من صميم فؤادها ان الذين ولدتهم ثانيةً بالعماد يبلغون الى كمال صورة الإنسان المسيحي ومن البين ان هذا لا يتم الاَّ بسر التثبيت فالجميع اذن يلتزمون بقبوله.

الثامن عشر: بأي عمر ينبغي أن يقدم المسيحيون الى هذا السر

يجب أن نعتبر في هذا الخصوص ان الجميع جديرون بقبول سر التثبيت بعد العماد انما قلَّ ما يوافق قبوله أن يدرك الولد سن التمييز ولهذا ان لم يرَ لزوم لانتظار السنة الثانية عشرة من عمره فيوافق كل الموافقة أن يؤجل على الأقل الى السابعة لأن التثبيت لم يرسم لضرورة الخلاص بل كي نتسلح بقوته ونتأهب حسناً للجهاد في سبيل إيمان المسيح وما من أحد يرى أن الأطفال الذين لم يبلغوا بعد سن التمييز جديرون بنوع هذا القتال.

التاسع عشر: كيف يلتزم بالاستعداد الى قبول هذا السر

الذين بلغوا من العمر الى سن الرجولية

ينتج مما تقدم ان الذين يطلب تثبيتهم وقد بلغوا الى سن الرشد اذا كانوا يتوقون حقيقة الى نوال نعمة هذا السر ومواهبهِ لا يكفيهم ان يتقدموا الى قبوله بالإيمان والتقوى بل يلزمهم أن يتوجعوا توجعاً حقاً على ما اقترفوه من الكبائر فعلى الرعاة أن يرشدوهم جهدهم ويحضوهم على أن يعترفوا قبلاً بخطاياهم ويباشروا الأصوام وغيرها من أعمال التقوى ويجددوا تلك العادة الحميدة القديمة في الكنيسة في أنهم لا يقبلون هذا السر الاَّ وهم صائمون ويسهل

(251)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

عليهم أن يقنعوهم بكل ذلك اذا فهموهم مواهب هذا السر ومفاعيله العجيبة.

العشرون: ما هي مفاعيل التثبيت

يلزم الرعاة أن يعلموا المؤمنين ان لهذا السر من المفاعيل ما لباقي الأسرار اذ يمنح نعمة جديدة ان لم يحل مانع دون قبولها. لأننا قد ابنَّا ان هذه العلامات هي سرية ومقدسة تدل على النعمة وتنشئتها فينتج من ثم أنهُ يترك الخطايا أيضاً ويغفرها اذ وجود النعمة والخطية معاً من الأمور المتنافية وما عدا هذه الأمور المشتركة بين باقي الأسرار فإن لسر التثبيت مزية في أنهُ يكمل نعمة العماد لأن الذين صاروا مسيحيين بالعماد، لا يزال فيهم ما في الأطفال الرضيعين من النحافة والضعف حتى يقبلوا التثبيت فيقويهم على دفع جميع غارات الجسد والعالم والشيطان الهائلة ويثبتهم بالإيمان ويشجعهم على الاعتراف باسم ربنا يسوع المسيح واعلاء مجده. ولذلك بلا مرآ دعي هذا السر سر التثبيت.

الحادي والعشرون: من أين أخذ اسم التثبيت

لم يؤخذ اسم التثبيت كما تصور البعض من باب الجهالة والكفر عن كون الأطفال المعمدين كانوا يتقدمون الى الأسقف لدن بلوغهم سن الرشد ليصادقوا على الإيمان المسيحي الذي نالوه بالعماد حتى ان التثبيت لا يفرق عن التعليم والتلمذة اذ ليس بينة صادقة تثبت هذه العادة بل أخذ هذا الإسم من حيث أن الله سبحانهُ بقدرة هذا السر يثبت فينا ما شرع بصنيعه في العماد ويستاقنا الى كمال الرسوخ على الديانة المسيحية ولا يثبت فقط بل ينمي أيضاً وبذلك

(252)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

شهد البابا مليكادس اذ قال: ان الروح القدس الذي حل في ماء العماد حلولاً خلاصياً يمنح الامتلأ للبرارة اما في التثبيت فيخول النماء للنعمة. ولا يمنح النماء على وجه بسيط بل بمقدار عجيب وقد مثلته الأسفار الإلهية بالثوب وعبرت عنه بأجمل تعبير لأن الرب المخلص بكلامه على هذا السر يقول: امكثوا في المدينة الى أن تلبسوا القوة من العلاء (لوقا ص 24 عـ 43).

الثاني والعشرون: تتضح قوة التثبيت مما جرى للرسل

اذا شاء الرعاة أن يبينوا فاعلية هذا السر الإلهية ولا شك أن في ذلك قوة لإنعاش قلوب المؤمنين أعظم انعاش حسبهم أن يوردوا ما جرى للرسل لأن هؤلاء قبل الآلام وفي أثنائها كانوا ضعفاء وهنين الى حد أنهم اركنوا الى الفرار حين قبض على الرب وان بطرس الذي كان قد أقيم صخرة الكنيسة وأساسها (متى ص 16 عـ 18 وص 26 عـ 6) وأبدى من نفسهِ ثباتاً وشهامة لا مزيد عليهما من العظمة والعلاء أرهبهُ صوت امرأة واحدة دنية فأنكر أنهُ تلميذ يسوع لا مرة واثنتين بل ثلاثاً (يوحنا ص 18 عـ 26) وبعد قيامة المخلص اختبأوا جميعاً في بيت خوفاً من اليهود (يوحنا ص 20 عـ 19) أما يوم العنصرة فقد امتلأ جميعهم من قوة الروح القدس العظيمة حتى بثوا الإنجيل الذي فوض اليهم تبشيره ليس في بلاد اليهودية فقط بل في كل المسكونة ببسالة وحرية فاقت طور العقول وقد اعتبروا أكبر سعادة لهم أن يحتملوا الإهانة والوثاقات والعذابات والصلبان لأجل المسيح.

(253)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الثالث والعشرون: التثبيت يسم وسماً ولا يمكن أن يتكرر

للتثبيت أيضاً هذه القوة وهي أنهُ يطبع وسماً بحيث لا يصح قطعاً أن يتكرّر كما ذكرنا آنفاً في سر العماد وكما سنبين صريحاً في سر الدرجة في محلهِ. فاذا الرعاة بينوا هذه الحقائق للمؤمنين بياناً جلياً لا ريب في أنهم في أن يكونوا عرفوا قدر هذا السر وفائدته يبذلون كل جهدهم في قبولهِ بمزيد القداسة والعبادة فيبقى علينا أن نتكلم بوجه الإيجاز على ما تستعملهُ الكنيسة المقدسة من الرتب والاحتفالات في منح هذا السر واذا شاءَ الرعاة أن يراجعوا ما مرَّ من الكلام في هذا الصدد عقلوا ما سوف يجديه هذا الشرح من عظيم الفائدة للمؤمنين.

الرابع والعشرون: لماذا يمسح جبين الذي يثبت بصورة صليب

ان الذين يثبتون يمسحون على جبينهم بالميرون المقدس لأن الروح القدس يفاض في قلوب المؤمنين بهذا السر ويزيدهم قوة وبسالة كي يستطيعوا أن يحاربوا حرب الأبطال في الجهاد الروحي ويقاوموا الأعداء المتفاقم شرهم ونفاقهم فيشير هذا الدهن في جبينهم الى أنهم يقدمون على الاعتراف بالاسم المسيحي بمطلق اختيارهم ولا يصدهم عنهُ مخافة أو حياءً تظهر علائمهما عادة على جبين الإنسان فضلاً عن أن المسيحي يمتاز بهذه العلامة عن باقي الناس فينبغي من ثم ان ترسم على أشرف جزء من أجزاء جسده.

الخامس والعشرون: في أي زمان خاصة ينبغي أن يمنح هذا السر

قد حافظت الكنيسة بعبادة مشتهرة على أن يمنح هذا السر بالخصوص

(254)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

أيام العنصرة لأن فيها خاصة تقوىّ الرسل بقوة الروح القدس وتثبتوا وبها يتذكر المؤمنون هذاالفعل الإلهي ويفتكرون بما في المسحة الإلهية من الأسرار.

السادس والعشرون: لماذا الأسقف يلطم وجه المثبت يكفهِ

ويطلب لهُ السلام

ثم لكي يتذكر الممسوح والمثبت أن من الواجب عليهِ أن يكون جندياً باسلاً متأهباً تمام التأهب لاحتمال جميع البلايا والاكدار بصبر جميل في سبيل اسم المسيح يلطم بيد الأسقف لطمة خفيفة على خده وفي الآخر يطلق بسلام كي يعقل أنهُ أدرك ملء النعمة السماوية والسلام الذي يفوق كل عقل (فيلبي ص 4 عـ 7) وهذه هي خلاصة الحقائق

الواجب على الرعاة أن يشرحوها في صدرؤ سر الميرون

لا بكلام فارغ بارد بل مضطرم بنار الغيرة والتقوى

حتى ترسخ في أعماق نفوس المؤمنين وأفكارهم

ــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(255)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الفصل الرابع

"في سر القربان"

أولاً: لماذا يجب أن تتعاطى سر القربان الأقدس ونتناولهُ

بأعظم وقار واحترام

كما أنهُ ما من سر من الأسرار التي قد سلمناها ربنا ومخلصنا بمنزلة أدوات ثابتة لنوال النعمة الإلهية يصح أن يقابل مع سر الافخارستيا الأقدس هكذا أيضاً ما من شر أفظع نفاقاً ويغيظ الله أعظم غيظ من استعمالنا هذا السر المملوء قداسة بل المحتوي مبدع القداسة استعمالاً خالياً من العبادة والاحترام. هذا ما نظره الرسول المعظم بعين الحكمة وحذَّرنا منهُ تحذيراً صريحاً لأنهُ لما بين فظاعة الاثم الذي يرتكبهُ من لا يميز جسد الرب أردف في الحال كلامهُ بقولهِ: ولذلك كثر فيكم المرضى والسقام ورقد كثيرون (قورنتية 1 ص 11 عـ 30) فيجب على الرعاة أن يبذلوا أعظم جهدهم وعنايتهم في شرح جميع المواد والمسائل التي ترى عائدة الى تكريم هذا السر واجلاله كي يعقل الشعب المؤمن ما يتوجب عليهِ من تأدية الإكرام الإلهي لهذا السر السامي ويجني منهُ أغزر ثمار النعمة وينجو من غضب الله الغير المتناهي عدلاً واستقامة.

(256)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثانياً: لأي سبب ومتى رسم سر الافخارستيا

يقتضي هنا أن نتبع الرسول المعظم معلماً اذا أعلن أنهُ سلم أهل قورنتية ما استلمهُ من الرب ونبين أولاً للمؤمنين رسم هذا السر (قورنتية 1 ص 11 عـ 23) ويتضح جلياً من الانجيل أن رسمهُ قد جرى على هذا النحو وهو أن سيدنا يسوع المسيح لما أحب خاصتهُ أحبهم الى الغاية (يوحنا ص 13) فلما علم أن قد وفت الساعة لينتقل من هذا العالم الى الاب عمل بحكمتهِ العجيبة ما يسمو كل نظام الطبيعة ويعلو كل عقل وادراك كي لا يفارقهم وقتاً من الأوقات. فبعد أن احتفل مع تلاميذه العشاء الفصحي وآن زوال الظل وحلول الحقيقة محله أخذ خبزاً وشكر (الله) وبارك وكسر وأعطى تلاميذه قائلاً: خذوا كلوا هذا هو جسدي الذي يبذل لأجلكم اصنعوا هذا لذكري وكذلك الكأس من بعد العشاءِ قائلاً: هذه هي الكأس العهد الجديد بدمي الذي يسفك من أجلكم اصنعوا هذا كلما شريتم لذكري (لوقا ص 22 عـ 20).

ثالثاً: لماذا يسمى هذا السر افخارستيا

ان علماء اللاهوت لما عرفوا أن ما من سبيل الى تبيين قدر هذا السر العجيب وسموه بلفظة واحدة قد التزموا أن يعبروا عنهُ بأسماءٍ كثيرة. فحيناً يسمونهُ افخارستيا وهي لفظة يونانية معناها نعمة صالحة أو شكر وبالحق ينبغي أن يسمى نعمة صالحة لأنها تدل على الحياة الأبدية كما كتب رسول الأمم: نعمة الله حياة الأبد (رومة ص 6 عـ 23)، ثم لأنهُ

(257)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يحتوي السيد المسيح الذي هو النعمة الحقيقية وينبوع المواهب الإلهية (يوحنا ص 1 عـ 14) ويصح فيهِ أيضاً أن يعبر عنهُ بلفظة شكر لأننا لما نقدم هذه الذبيحة الطاهرة نسدي لله سبحانهُ شكراً كل يوم لأجل جميع ما منّ علينا بهِ من احساناتهِ ولاسيما لأجل الخير الفائق في النعمة التي منحناها بهذا السر لا بل أن هذا الاسم عينهُ يوافق اتم الوفاق ما نقرأه من الأشياء التي صنعها الرب حين رسم هذا السر لأنهُ أخذ خبزاً وكسر وشكر (متى ص 36 عـ 20) وداود النبي لما كان يتأمل عظمة هذا السر قبل أن رنم بهذه التسبحة: صنع ذكراً لعجائبهِ رحوم هو الرب ورؤُوف أعطى غذاءاً لأتقيائِه: رأى أن يقدم عليها أسداء الشكر بقولهِ: صُنعهُ ذو جلال وبهاء (مزمور 110 عـ 4).

رابعاً: لماذا يسمى هذا السر شركة وسر السلام والمحبة

كثيراً ما يسمى هذا السر ذبيحة وسوف نتكلم عنها باسهاب ثم يسمى شركة اخذاً عن قول الرسول المعظم القائل: كأس البركة التي نباركها أليست هي شركة دم المسيح والخبز الذي نكسره أليس هو شركة جسد المسيح (قورنتية 1 ص 10 عـ 16) فالقديس يوحنا الدمشقي قد فسر هذه الآية بقوله: أن هذا السر يضمنا الى المسيح ويجعلنا شركاء جسده ولاهوته ويلحم بعضنا مع البعض بالمسيح كأننا جسد واحد وجبلة واحدة (كتابهُ الرابع عشر) ويتأَتى من ذلك أن هذا السر يدعى سر السلام والمحبة كي نعقل أن الذين يعملون بالعداوة والبغضاء والمشاحنة والشقاق والفتنة الواجب استئصال دابرها بالكلية لكونها آفات موبقة للمؤمنين هم لا يستحقون أن يدعوا باسم مسيحيين.

(258)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

لاسيما أننا نعلن بالذبيحة المقدسة التي نقدمها بحسب ديانتنا أننا نهتم قبل كل شيءٍ وفوق كل شيء ونجتهد كل الاجتهاد بحفظ رباط السلام والمحبة.

خامساً: ومن أي وجه يقال في هذا السر أنهُ زاد وعشاء

وكثيراً ما يسمى اللاهوتيون هذا السر زاداً لأنهُ طعام روحي نغتذي بهِ في غربة هذه الحياة ثم لأنهُ يمهد لنا السبيل الى المجد الأبدي والسعادة ولهذا نرى رسماً قديماً مرعباً في الكنيسة المقدسة أن لا أحد من المؤمنين يبارح هذه الحياة بدون هذا السر. ثم الآباء الأقدمون قد سموا أحياناً هذا السر عشاء تبعاً لقول الرسول المعظم لكون السيد المسيح قد رسمهُ في ذاك العشاء السري الأخير.

سادساً: لا يجوز عمل سر الافخارستيا أو تناوله بعد الأكل

أو الشرب أي لا يجوز القداس أو التناول الاَّ لمن

كان صائماً عن المأكل والمشرب

ان هذا السر الأقدس لا يحل تتميمهُ ولا تناولهً بعد أكل أو شرب وقد اتصلت الينا هذه العادة الخلاصية من الرسل أنفسهم الذين أدخلوها في كنيسة الله كما ذكر العلماء الأقدمون وحفظت مرعية بحيث لا يباشر هذا السر ولا يتناولهُ الاَّ الصائمون.

سابعاً: في أن الافخارستيا هي سر حقيقي

في أن بينا نوعية الاسم ينبغي أن نقول أن الافخارستيا هي سرٌ حقاً من الأسرار السبعة التي تباشرها الكنيسة المقدسة كل حين بالاكرام

(259)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

والعبادة لأنه في تقديس الكأس يقال سر الإيمان وفضلاً عما لدينا من البينات العديدة من الآباء القديسين الذين اجمعوا قولاً وحكماً وفي كل حين أن الافخارستيا يجب عدها من الأسرار يتحقق ذلم من ماهية السر وجوهره. لأن في الافخارستيا يجب عدها من الأسرار يتحقق ذلك من ماهية السر وجوهره. لأن في الافخارستيا علامات خارجة واقعة تحت الحواس ودلالة على النعمة وفاعليتها ورسم المسيح وهذا لا ريب فيهِ فإن أقوال الانجيليين والرسول توصحهُ ايضاحاً جلياً فحيث اجمعوا على اثبات هذه الحقيقة لم يعد لنا حاجة الى ايراد ما سوى ذلك من الحجج والبينات ونكتفي بالاشارة الى نصوص بعض الآباء القديسين ضاربين صفحاً عن ايرادها خشية الاسهاب. فالمجمع التريدنتيني حكم واثبت ان الافخارستيا والقديس اغوسطينوس في كتابهِ الثالث في الثالوث في الفصل الرابع منهُ وفي كتابهِ العشرين دحضاً لبدعة فوستوس في الفصل الثالث عشر منهُ. والقديس امبروسيوس في الفصل الثامن والعشرين من كتابهِ الثاني في الوظائف وفي الفصل الثاني من كتابهِ الأول في الأسرار والقديس توما اللاهوتي في البحث الثالث والسبعين من القسم الثالث في الفصل الأول منهُ.

ثامناً: ان في هذا السر أشياء كثيرة يطلق عليها اسم سر

على الرعاة أن يلاحظوا بتدقيق أن في هذا السر أشياء كثيرة أطلق عليها أحياناً العلماء اللاهوتيون اسم سر فقد اعتادوا أحياناً أن يسموا سراً التقديس والتناول وعلى الغالب جسد الرب ودمه المحتوين في الافخارستيا. قال القديس اغوسطينوس ان هذا السر

(260)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يقوم بشيئين اي بشكل العناصر المنظور ويجسد ودم سيدنا يسوع المسيح نفسهِ الغير المنظور. وباعتبار هذا المعنى نقول أنهُ ينبغي السجود لهذا السر أي لكونهِ جسد الرب ودمه وهذه جميعها تدعى أسراراً بالفساحة اما اعراض الخبز والخمر عينها فتسمى سراً حقيقة وبالاطلاق.

تاسعا: كيف تختلف الافخارستيا عن باقي الأسرار

يسهل علينا أن نرى مقدار الفرق بين هذا السر وباقي الأسرار جميعها لأن باقي الأسرار تكمل باستعمال المادة أي لدن منحها للناس.

فالعماد يقتبس جوهر السر حين يغسل الإنسان بالماء اما في الافخارستيا فيكفي تقديس المادة عينها لقيام السر لأن كليهما أي الخبز والخمر لا يبطلان أن يكونا سراً ولو حفظا في اناءٍ مكرس بدون أن يوزعا على أحد ثم في تتميم باقي الأسرار لا تتحول المادة أو العنصر من جوهر الى جوهر أخر لأن ماء العماد وزيت الميرون في أثناءِ منح السر وبعده يبقى الماء ماءً والزيت زيتاً أما في الافخارستيا فما كان خبزاً وخمراً قبل التقديس يستحيل الى جوهر جسد المسيح ودمه بالتقديس.

عاشراً: ان مادة الافخارستيا وان كانت من عنصرين أي

الخبز والخمر لا تقيم سرين

ولو كانت الافخارستيا من عنصرين اي الخبز والخمر اللذين بهما يتم مع ذلك نعترف استناداً على تعليم الكنيسة انها سر واحد لا اثنان وبخلاف ذلك لا تكون الأسرار سبعة بالعدد كما استلمناها كل حين

(261)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وكما حكمت المجامع المسكونية اللاتراني والفلورنتيني والتريدنتيني. ثم بما أن نعمة السر ينشأُ عنها جسد واحد سري لزم أن السر يطابق مفعوله ويكون واحداً بمعنى أنهُ يدل على شيءٍ واحد لا أن يكون عنصره واحداً. فكما ان المأكل والمشرب اللذان هما شيئان مختلفان يستعملان لشيءٍ واحد فقط اي لتغذية الجسد كذلك أيضاً وجب أن يطابقهما شكلا السر المختلفان بأن يدلا على الطعام الروحي الذي تغتذي بهِ النفوس وتنتعش ولهذا قال مخلصنا: جسدي مأكل حقاً ودمي مشرب حقاً (يوحنا ص 6 عـ 56). إنما ينبغي على الرعاة أن يبذلوا جهدهم في أن يبينوا للمؤمنين ما يدل عليهِ سر الافخارستيا كي ترتع نفوسهم في رياض التأمل في الأشياء الإلهية على حين يشاهدين بأعينهم الأسرار المقدسة.

الحادي عشر: ما هي الأشياء التي يدل عليها هذا السر

ان هذا السر يدلنا على ثلاثة أشياء. أولها ويختص بالماضي آلام المسيح فإن ربنا عينهُ قد أفادنا عن ذاك بقوله: اصنعوا هذا لذكري (لوقا ص 22 عـ 19) وشهد رسول الأمم بقولهِ: كلما اكلتم هذا الخبز وشربتم هذه الكأس تخبرون بموت ربنا الى أن يأتي (قورنتية 1 ص 11 عـ 26).

ثانيها ويختص بالحاضر النعمة الإلهية والسماوية التي نقتبسها من هذا السر لتغذية نفسنا وحفظها فكما أننا بالعماد نولد لحياة جديدة وبالتثبيت نتقوّى لنستطيع سبيلاً الى محاربة ابليس خزاه الله والى الاعتراف جهاراً باسم المسيح هكذا بسر الافخارستيا نقتات وننتعش.

ثالثها ويختص بالمستقبل أثمار النعيم والمجد الأبدي التي نجنيها في

(262)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الوطن السماوي سنداً على وعده تعالى فهذه الأشياء الثلاثة المتميزة باختلاف الزمان بين الحاضر والماضي والمستقبل يدل عليها سر الافخارستيا بحيث أنهُ بكليتهِ وان تألف من أعراض مختلفة يعود الى اعلان كل منها كأنهُ يدل على شيءٍ واحد.

الثاني عشر: ما مادة هذا السر وعلى أي نوع من الخبز

ينبغي التقديس

من الواجب على الرعاة أن يعرفوا في بادئ بدءهم مادة هذا السر كي يتمموه حسناً بموجب رسومهِ ثم كي يفهم المؤمنون ما يدل هو عليهِ ليضطرموا تشوقاً وهياماً الى نوالهِ فمادة هذا السر هي شيئان احدهما الخبز المصنوع من القمح وعليهِ نتكلم الآن وسيأتي الكلام على الآخر في محلهِ.

فقد أفاد الانجيليون (متى ص 26 عـ 26 ومرقس ص 14 عـ 22 ولوقا ص 22 عـ 19) ان السيد المسيح اخذ خبزاً بيده وبارك وكسر وقال: هذا هو جسدي وفي بشارة يوحنا أيضاً قال مخلصنا نفسهُ أنا هو الخبز الحي الذي نزل من السماء (ص 6 عـ 41) ولما كانت أنواع الخبز مختلفة لاختلاف مادته اذ منهُ ما كان يصنع من قمح ومنهُ من شعير أو من باقي حبوب الأرض وأثمارها. او لاختلاف كيفياته لأن منهُ ما يضاف اليه خمير وغيره ما كان خالياً منهُ فنظراً الى الأول يقول أن كلام المخلص يدل على أن الخبز يجب أن يصنع من القمح لأنهُ متى قبل خبز بدون قيد يفهم بهِ قطعاً بموجب اصطلاح التكلم الدارج الخبز المصنوع من القمح.

(263)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وهذا يتحقق ويتبين من صورة العهد القديم لأن الرب قد أمر بأن خبز الوجوه الذي كان يشير الى هذا السر يصنع من سميد (أحبار ص 24 عـ 5)

الثالث عشر: من اللائق أن الخبز الذي يكمل بهِ سر

الافخارستيا يكون فطيراً

كما أن خبز القمح وحده دون غيره بعد مادة صحيحة للسر (وهذا التعليم علمناه الرسل واثبتتهُ الكنيسة المقدسة بسلطانها) كذلك نرى مما صنعه الرب المسيح أن الخبز ينبغي أن يكون فطيراً لأن الرب صنع هذا السر ورسمهُ في اليوم الأول من أيام الفطير حيث لم يكن جائزاً وجود الخمير في بيوت اليهود. واذا اعترض أحد برواية يوحنا البشير القائل ان هذه الأشياء جميعها قد تمت قبل عيد الفصح سهل دفع اعتراضهِ بالتعليل الآتي وهو أن ذلك اليوم دعاه باقي المبشرين أول أيام الفطير لأن عيد الفطير كان يبتدئ من عشية يوم الخميس وفي هذا الوقت نفسه احتفل مخلصنا عيد الفصح وهو اليوم نفسهُ الذي يدعوه يوحنا الرسول اليوم السابق عيد الفصح اذ كان من قصده أولاً وبدءاً أن يدل على مدة اليوم الطبيعي الذي يبتدئ من شروق الشمس وينتهي بغروبها ولذلك فسر القديس الذهبي الفم اليوم الأول من الفطير ذاك اليوم الذي في مسائهِ ينبغي أن يؤكل الفطير و الرسول المعظم يعلمنا أن تقديس الخبز الفطير يناسب أعظم مناسبة طهارة القلب ونقاوته التي يجب أن يتصف بها المؤمنون لدن تقدمهم الى تناول هذا السر اذ قال:

(264)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

القوا عنكم الخمير العتيق لتكونوا جبلة جديدة كما أنكم فطير فإنه قد ذبح فصحنا المسيح فلنعيد اذاً لا بالخمير العتيق ولا بخمير السوء والخبث بل بفطير الخلوص والحق (قورنتية 1 ص 5 عـ 7 و8).

الرابع عشر: ان الخبز الفطير ليس بضروري لصحة سر الافخارستيا

لا يجب مع ذلك أن نعتبر هذه الكيفية (اي أن يكون الخبز فطيراً) لازمة كل اللزوم بحيث لو فقدت لا يمكن أن يصح السر لأن بكلا النوعين أي الفطير والخمير حقيقة الخبز واسمهُ. على أنهُ لا يسمح لأحد أن يغير طقس كنيستهِ الحميد. وبأولى حجة لا يجوز ذلك للكهنة اللاتينيين الذين أمرتهم الأحبار الأعظمون أن يقدسوا على الخبز الفطير فقط. فحسبنا ذلك بياناً لهذا الجزء من مادة سر الافخارستيا على أننا نعلم أيضاً أن الكنيسة لم تعين كمية المادة الواجب استعمالها في تكميل هذا السر حيث لا يمكن أن يعين عدد الذين يستطيعون أو يلتزمون بقبول الأسرار المقدسة.

الخامس عشر: ما المادة الواجب أن نتخذها في تقديس دم الرب

بقي علينا أن نتكلم على المادة الأخرى أو العنصر الآخر المطلوب مادة لهذا السر. فهو الخمر المعصور من عنب الكرمة اللممزوج بقليل من الماء لأن الكنيسة المقدسة قد علمتنا في كل حين أن مخلصنا قد استعمل الخمر في رسم هذا السر اذ قال: لا أشرب من عصير الكرمة هذه الآن حتى أشربه ذاك اليوم وقال القديس يوحنا فم الذهب أن من عصير الكرمة يخرج خمر لا ماء فجاءَت هذه الآية الكريمة تدحض سلفاً بدعة أولئك الذين رأوا أن يستعملوا

(265)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الماء صرفاً بدل الخمر في مباشرة هذا السر.

السادس عشر: ينبغي أن يمزج الخمر بقليل من الماء

ان بيعة الله المقدسة قد مزجت في كل حين الخمر بالماء وذلك أولاً لأن المسيح الرب هكذا صنع على قول المجامع المقدسة وشهادة القديس قبريانوس في كتابه الثاني من الرسالة الثالثة والستين الى سيسيلوس.

ثانياً لأن هذا المزج يعيد في ذهننا ذكر الدم والماء اللذين خرجا من جنبه الأقدس وفي الآخر ان المياه في الابركسيس تشير الى الشعب ولهذا كان امتزاج الخمر بالماء دلالة على اتحاد الشعب المؤمن مع المسيح رأسه وهذا الاستعمال قد تسلمته الكنيسة المقدسة من الرسل وحفظته دائماً وبدون انقطاع.

السابع عشر: ان استعمال الماء في مزج الخمر ليس بلازم لزوماً قطعياً

ويجب أن يكون الماء أقل كمية من الخمر

ولو كان عندنا حجج قوية على وجوب مزج الخمر بالماء بحيث لا يجوز اهمالهُ بدون اثم كبير مع ذلك اذا لم يكن مزج صح السر. انما ينبغي أن تعلم الكهنة ان الماء ينبغي أن يكون قليلاً لأن اللاهوتيين يرون ويحكمون ان هذا الماء القليل يستحيل خمراً في المزج. ولهذا كتب في هذا الصدد أونوريوس الحبر الأعظم في متابه الثاني يقول لأحد الأساقفة: قد نشأت في أمصارك عادة سئتة وهي أن الماء يستعمل في الذبيحة بأوفر كمية من الخمر مع أنهُ ينبغي بموجب اصطلاح الكنيسة العامة المعقول أن يكون الخمر أكثر كثيراً من الماء فهذان العنصران اذاً هما مادة هذا السر وبحق

(266)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

قد تقررت بعدة مراسيم لئلا يستحل أحد تقديم شيء ما خلا الخبز والخمر اذ لا يخلو الأمر من أن البعض لا يبالون في أن يضيفوا شيئاً آخر الى مادة هذا السر. فبقي علينا أن نتكلم على الأشياء المتضمنة في هذا السر والمزمور عنها بأعراض الخبز والخمر التي نؤمن ونعترف أنها الأسرار الدالة عليها دلالة بغاية المطابقة.

الثامن عشر: ما أكثر وما اسمى الأشياء التي تمثلها أشكال

الخبز والخمر في هذا السر

فأولاً تشير الى المسيح من حيث هو حياة البشر الحقيقية. لأن الرب نفسهُ قال جسدي ماكل حقاً ودمي مشرب حقاً (يوحنا ص 6 عـ 56) فلما كان اذا جسد السيد المسيح يمنح قوت الحياة الأبدية لمن يتناولون سرَّه بنقاوة وقداسة فحق أ، يكون كمال هذا السر بالأشياء المتضمنة هذه الحياة ليستهل على المؤمنين أن يدركوا أن نفوسهم وعقولهم تشبع من تناول جسد المسيح ودمه الثمينين ثم أن هذين العنصرين يفيدان المؤمنين معرفةً بوجود جسد الرب ودمه حقيقةً في السر لأننا اذ نعلم أن الخبز والخمر يستحيلان كل يوم الى جسد الإنسان ودمه بقوة الطبيعة أدَّى بنا هذا الشبه على أيسر منوال الى الاعتقاد أن جوهر الخبز والخمر يستحيل بالبركة السرية الى جسد المسيح ودمه الحقيقيين وتمدنا استحالة العناصر هذه العجيبة عوناً للاستدلال على ما يتم في النفس فكما أن جوهر الخبز والخمر يستحيل حقيقة الى جسد المسيح ودمهُ وان لم يتغيرا في الخارج (اى الخبز والخمر) هكذا أيضاً وان لم يظهر أدنى تغير فينا مع ذلك نتجدد للحياة حين نتناول سر الافخارستيا الحياة الحقة.

(267)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وزد على ذلك أن جسد الكنيسة لما كان واحداً يتألف من أعضاء كثيرة تبين أن ما من شيء يشير الى هذا الارتباط اشارة أوضح من عناصر الخبز والخمر لأن الخبز يتركب من حبوب كثيرة والخمر من عناقيد عنب عديدة هكذا يشيران الى أننا نحن مع كوننا كثيرين نرتبط برباط هذا السر الإلهي ارتباطاً متيناً حتى نصبح كاننا جسد واحد.

التاسع عشر: ما الصورة التي يجب استعمالها في تقديس الخبز

بلى هنا ان نتكلم على الصورة التي يجب استعمالها في تقديس الخبز لا لكي نعلم الشعب المؤمن هذه الأسرار (الا اذا مست الحاجة (اذ ما من لزوم لأن يتعلمها من لم يرتسم بالدرجات المقدسة) بل الكهنة فقط حذراً من أنهم اذا جهلوها في مباشرتهم السر يتورطون في اقبح الأخطاء والغلط. فعليه قد علمنا الرسل المبشرون (متى ص 26 عـ 26 لوقا ص 22 عـ 19) ورسول الأمم (قورنتية 1 ص 11 عـ 21 و 22)

ان صورة سر الافخارستيا هي هذه: هذا هو جسدي. لأنهُ قد كتب أن الرب يسوع في تلك الليلة التي أسلم فيها أخذ خبزاً وشكر وكسر واعطى تلاميذه وقال: خذوا وكلوا هذا هو جسدي هذه هي صورة التقديس التي استعملها السيد المسيح فاخذتها عنهُ الكنيسة المقدسة واستعملتها في كل حين ونضرب صفحاً قي هذا المقام عن ايراد شهادات الآباء القديسين التي تكاد لا تحصى في هذا المعنى وعن

(268)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ذكر حكم المجمع الفلورنتيني المعروف عند الجميع لاسيما أن كلام المخلص: اصنعوا هذا لذكري يغنينا عن كل دليل سواه على أن صورة التقديس هي التي ذكرناها.

لأن الذي أمر السيد لهُ المجد بعملهِ لا يرجع الى ما كان الذي نطق بهِ لا لداعي الدلالة فقط بل بالأكثر لداعي الانشاء والفعل. وعندنا أيضاً البرهان العقلي على اثبات هذه الحقيقة لأن الصورة هي التي تدل على ما يفعل بالسر والحال أن هذاا لكلام يدل على الشيء الذي يتم ويعلنهُ اعني بهِ استحالة جوهر الخبز الى جوهر جسد الرب الحقيقي فينتج اذن أن الصورة تقوم بهذا الكلام وبهذا المعنى ينبغي أن نفهم عبارة متى الانجيلي (بارك) فكأنهُ قال: أخذ خبزاً وبارك قائلاً: هذا هو جسدي.

العشرون: ليس جميع الكلام الذي من عادة الكنيسة أن تتلوه

لازماً للتقديس

ولو روى البشير في بداية التقديس هذا الكلام: خذوا وكلوا ذلك من المحقق أنهُ لا يعبر عن تقديس المادة بل عن استعمالها لا غير ولهذا يجب على الكاهن أن يلفظهُ تماماً. إنما ليس بضروري لعمل السر ومثلهُ لفظة "لان" أيضاً في قوله "لان" هذا هو جسدي الواردة في تقديس الجسد والدم والاَّ لتأتي أن السر لا جيب اتمامه أو لا يصح اذا لم يوجد أحد يتناولهُ مع أن الصحيح العاري من كل شبهة هو أن الكاهن اذا لفظ الكلام بحسب عادة الكنيسة المقدسة ورسمها يقدس حقيقة مادة الخبز ولو لم يوجد من يتناول الافخارستيا المقدسة.

(269)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الحادي والعشرون: ما الصورة الواجب استعمالها في

تقديس الدم

فنظراً الى ما يختص بتقديس الخمر وهو المادة الأخرى لهذا السر من الواجب أن الكهنة يعرفون صورته معرفة صريحة لنفس السبب الذي ذكرناه آنفاً. فينبغي اعتقاداً وثيقاً أنها تتضمن بهذه الألفاظ: هذا هو كأس دمي العهد الجديد الأبدي سر الإيمان الذي يسفك لأجلكم ولأجل كثيرين لغفران الخطايا. فمنها كلمات كثيرة مأخوذة من الأسفار المقدسة وبعضها حفظت في الكنيسة من تقليد الرسل. لأن: هذا هو كأس مأخوذ عن القديس لوقا (ص 22 عـ 20).

وعن رسول الأمم (قورنتية 1 ص 11 عـ 25) وما يليهِ وهو دمي (بالإضافة اي كأس دمي) العهد الجديد الذي يسفك لأجلكم ولأجل كثيرين لمغفرة الخطايا. مأخوذ بعضهُ عن القديس لوقا وبعضه عن القديس متى ثم قوله: الأبدي وسر الإيمان أخذناه عن تقليد الكنيسة المقدسة ترجمان الحق وحفيظه.

الثاني والعشرون: يتبين أن هذه الصورة هي صورة السر الحقيقية

ما من حد يرتاب في حقيقة هذه الصورة اذا ما انتبه هنا الى ما قلناه آنفاً في صورة تقديس الخبز اذ من المحقق أن الصورة متضمنة في هذه الألفاظ التي تشير الى استحالة جوهر الخمر الى دم المسيح ولهذا ليس لتقديس الخمر صورة سواها. لأن هذه الكلمات تعبر أيضاً عما يختص

(270)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

بهذا السر من الأثمار الناتجة عن سفك دم المسيح في آلامه. احداها مدخل السعادة الأبدية التي استفدناها بحق العهد الجديد الأبدي (عبرانيين ص 9 عـ 25) والأخرى اكتساب البر بواسطة سر الإيمان لأن الله سبحانهُ جعل يسوع كفارة بالإيمان بدمه ... حتى يكون هو باراً ومبرراً من لهُ الإيمان بيسوع المسيح (رومية ص 3 عـ 26) وثالثتها غفران الخطايا (عبرانيين ص 9 عـ 11).

الثالث والعشرون: في شرح صورة تقديس الدم

لما كانت كلمات التقديس هذه موعبة أسراراً وتوافق مدلولها اتم الموافقة لزم تفصيلها بأوفر ما يمكن من البيان والتدقيق. فقوله اذن أن هذا هو كأس دمي (ينبغي فهمهُ هكذا) هذا هو دمي المحتوي في هذه الكأس. اذ من الحق والوجوب أن يؤتى بذكر الكأس في التقديس بما أن هذا الدم هو مشرب المؤمنين. لأن هذا الدم لا يشير اشارة كافية الى كونهِ مشرباً ما لم يؤخذ باناء ما وقوله التالي (العهد الجديد) قد اردف لنعقل أن دم المسيح لا صورته كما كان يحدث في العهد القديم على ما نقرأُ في رسالة الرسول المعظم الى العبرانيين ان العهد لا ينبرم بدون دم (ص 9 عـ 18) قد أعطى حقيقة للبشر ذلك يختص بالعهد الجديد. ولهذا قال رسول الأمم أن المسيح وهو وسيط لوصية جديدة حتى أنهُ بواسطة الموت لفداء المعاصي التي جرت في عهد الوصية الأولى ينال المدعوون موعد الميراث الأبدي (ص 9 عـ 15). وينبغي أن يرجع هذا القول الى الميراث الأبدي الذي اتصل الينا حقيقة بموت السيد المسيح الموصي الأبدي.

(271)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثم قوله (سر الإيمان) لا ينفي حقيقة الواقع بل يدلنا على وجوب الإيمان الثابت بما احتجب عن الإدراك وخفي عن حاسة البصر فالحكم هنا بهذه الألفاظ يختلف عن الحكم بالكلام المقول في صدد العماد. لأننا اذ ننظر بعين الإيمان دم المسيح محجوباً تحت شكل الخمر نقول هذا سر الإيمان اما العماد فنسميه سر الإيمان لأنهُ يشتمل الاقرار العام بالدين المسيحي. ولو أننا نقول أيضاً من وجه آخر ان دم المسيح هو سر الإيمان من قبيل كون العقل البشري يتحمل صعوبة عظمى في اعتقاد ما يفرضهُ علينا الإيمان من أن السيد المسيح ابن الله حقاً واله وانسان معاً ذاق الموت لأجلنا موتاً يسار إليهِ بسر دمهِ.

الرابع والعشرون: لماذا يؤتى بذكر الموت خاصة من

تقديس الدم

ان تقديس الدم أنسب محلاً من تقديس الجسد لذكر آلام الرب بهذا الكلام: الذي يسفك لغفران الخطايا لأن الدم في تقديسهِ على حدة يحتوي قوة وأهمية أعظم في أن يشخص أمام عيون الجميع آلام الرب وموته ونوع آلامهِ. أما هذا الكلام الذي يسفك لأجلكم ولأجل كثيرين فهو مأخوذ بعضهُ من متى وبعضهُ من لوقا. فمتى قال: يهرق عن كثيرين (ص 26 عـ 28) ولوقا قال: الذي يسفك من أجلكم (ص 22 عـ 20). فالكنيسة المقدسة المدبرة بروح الله قد جمعت كلا القولين وهذا يشير الى ثمرة الآلام وفائدتها لأننا اذا لاحضنا قوتها لزمنا أن نعتقد أن المخلص سفك دمهُ لأجل خلاص

(272)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الجميع واذا اعتبرنا قوتها التي يجنبها البشر نعقل أنها لم تصل الى جميع الناس بل الى كثيرين فقط. فبقولهِ اذاً: لأجلكم أشار اما الى الحاضرين واما الى المختارين من شعب اليهود كتلاميذه الذين كان يخاطبهم ما خلا يهوذا الاسخريوطي ثم لما أردف كلامهُ بقوله ولأجل كثيرين عنى باقي المختارين من اليهود والأمم. فاذاً بحق وصواب لم يقل لأجل الجميع لأن الكلام في هذا المقام يتناول فقط اثمار الآلام التي أتت المختارين وحدهم بنتيجة الخلاص وهذا المعنى أيضاً يؤخذ من كلام الرسول المعظم: كذلك المسيح قرب مرة ليتحمل خطايا الكثيرين (عبرانيين ص 9 عـ 28).

وقول الرب في بشارة القديس يوحنا الرسول: أنا أسأل من أجلهم لا أسأل من أجل العالم بل من أجل الذين اعطيتهم لي لأنهم لك (ص 17 عـ 9) وقد احتجب في كلام التقديس هذا أسرار أخرى كثيرة يسهل ادراكها على الرعاة بعون الله اذا تعمقوا في تأمل الأشياء الإلهية.

الخامس والعشرون: لا يوافق أن نعتمد على حكم الحواس

في هذا السر

فلنرجعنَّ الان الى الكلام في شرح هذه الأمور التي لا ينبغي قطعاً اهمالها لئلا يجهلها المؤمنون وحيث يحذّر الرسول من أن يرتكب أكبر اثم أولئك الذين لا يميزون جسد الرب وجب على الرعاة أن يعملوا قبل كل شيء أن يجرد العقل والادراك عن الحواس في هذا الموضوع لأن

(273)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

المؤمنين اذا اعتقدوا أن ليس في هذا السر سوى ما يدرك بالحواس تهوروا لا محالة في أسفل دركات الكفر والضلال اذ يحكمون بأن ليس في هذا السر الاَّ بشكلي الخبز والخمر. فينبغي بذل الجهد والعناية في أن المؤمنين يجردون عقولهم عن حكم الحواس ويرفعونها الى التأمل في قوة الله وقدرتهِ الغير المتناهية.

السادس والعشرون: ماذا يتم في هذا السر بوجه الخصوص

بقوة التقديس السري

يعلمنا الإيمان الكاثوليكي أن نؤمن ونعتقد أن ثلاثة أشياء مدهشة تتم بكلام القديس في هذا السر. أولها أن هذا السر يحتوي جسد المسيح الرب الحقيقي الذي ولد من العذراء بعينهِ والجالس في السماء على يمين الآب. ثانيها انهُ لا يبقى فيهِ بعد التقديس جوهر المادة كلياً ولو مهما استبان ذلك غريباً وبعيداً عن الحواس. ثالثها وهو يتلخص من الأمرين المذكورين ويلمح اليه كلام التقديس تلميحاً صريحاً ان الأعراض المنظورة بالأعين أو المدركة بباقي الحواس هي قائمة بذاتها بدون استناد الى شيء بنوع عجيب يفوق الادراك. فننظر بعيوننا اعراض الخبز والخمر حال كونها غير مستندة الى جوهر البتة بل قائمة بذاتها لأن جوهر الخبز والخمر قد استحال الى جسد الرب ودمهِ استحالة فقد بها جوهر الخبز والخمر.

(274)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

السابع والعشرون: من المؤكد أن الافخارستيا تحتوي جسد

المسيح عينه الذي ولد من مريم البتول

يجب على الرعاة أن يعتنوا جهدهم في أن يبينوا في كلامهم على استحالة الخبز الى جسد المسيح كم هو صريح وجلي كلام مخلصنا الدال على حقيقة وجود جسده في سر الافخارستيا لأنهُ يقول: هذا هو جسدي هذا هو دمي فما من سليم العقل يمكنهُ أن يجهل ما يجب أن نفهمهُ بهذا الكلام لاسيما أنهُ واقع على الطبيعة البشرية التي لا يحتمل الايمان قطعاُ وقوع ادنى شبهة بوجودها حقيقة في السيد المسيح وقد أفاد صريحاً ايلاريوس القديس الجليل والعلامة التحرير أنهُ لم يبق محل للارتياب في حقيقة جسد المسيح ودمه لأن الإيمان يعلمنا والمسيح الرب نفسه أعلن لن أن جسده ماكل حقاً.

الثامن والعشرون: كيف يثبت أيضاً أن جسد المسيح الحقيقي

موجود في الافخاريستيا

وللرعاة أيضاً نص آخر يستسنونه ومنهُ يطلعون صريحاً على وجود جسد الرب ودمه حقيقةً في الافخاريستيا. فالرسول المعظم في أن ذكر ان الرب قدس الخبز والخمر وناول رسلهُ الأسرار المقدسة أردف كلامه بقوله: فليختبر الإنسان نفسه وهكذا فليأكل من هذا الخبز ويشرب من هذه الكأس لأن من يأكل ويشرب وهو على خلاف الاستحقاق انما يأكل ويشرب دينونة لنفسهِ اذ لا يميز جسد الرب (قورنتية 1 ص 11 عـ 26) فلو لم يكن شيء يستحق الاحترام في هذا السر الاَّ ذكر آلام المسيح وعلاماتها كما يهزو

(275)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الأراطقة ترى ما كان الداعي الى حض المؤمنين بمثل هذا الكلام الرهيب على أن يمتحنوا ذواتهم لأن الرسول عبر بهذه اللفظة المرعبة أي دينونة عما يرتكبه من فظيع الإثم من كان غير طاهر وتناول جسد الرب المحجوب في الافخاريستيا اذ لا يميزه عن باقي الأطعمة. وقد أوضح الرسول بأوفر اسهاب هذه الحقيقة في نفس هذه الرسالة بقوله قبيل الآية الموردة: كأس البركة التي نباركها اليست شركة دم المسيح والخبز الذي نكسره اليس هو شركة جسد الرب. فلا شك أن هذا الكلام يبين جوهر جسد المسيح ودمه الحقيقي. فيلزم الرعاة اذن أن يشرحوا آيات الكتاب المقدس هذه ويعلموا خاصةً أنهُ لم يبقَ ادنى ريب أو تردد في هذه الحقيقة لاسيما بعد أن بيعة الله فسرتها بسلطانها المقدس المعصوم.

التاسع والعشرون: كيف ينبغي أن نطلع على حكم كنيسة المسيح

في معنى الكتب المقدسة وفي حقيقة وجود جسد

المسيح ودمه في سر الافخاريستيا

يمكننا أ، نتصل الى معرفة هذا الحكم بطريقين أولهما استطلاع رأي الآباء القديسين الذين نشأوا في بداية الكنيسة ثم في كل حقب من الأحقاب التالية فجميعهم شهود عدول على تعليمها والحال أن هؤلاء بأجمعهم وباتفاق الكلمة سلمونا حقيقة هذا الاعتقاد فلما كان تصدير جميع شهاداتهم فرداً فرداً يقتضي عناء ويفضي الى الملل فنكتفي بايراد بعضها أو بالاشارة اليها فيتسهل لنا الحكم على باقيها. فالأول القديس امبرسيوس فإنهُ أعلن ايمانهُ في الفصل

(276)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

التاسع من كتابهِ عن الذين يقبلون الأسرار اذ شهد قائلاً ات جسد المسيح الحقيقي يؤخذ في هذا السر كما أخذ حقاً من مريم العذراء ذلك من الإيمان ينبغي أن نتمسك بعروتهِ الوثقى. وفي محل آخر يقول: قبل التقديس يوجد الخبز على المذبح واما بعد التقديس فجسد المسيح ثم القديس يوحنا الذهبي الفم وليس بأقل من ذاك جدارة بالاعتبار والصدق قد اعترف بهذه الحقيقة وعلمها في محال عديدة ولاسيما في خطبتهِ الستين في الذين يتناولون القربان المقدس حال كونهم غير انقياء ثم في خطبته الرابعة والأربعين والخامسة والخمسين في تفسير بشارة يوحنا يقول: فلنخضع لله ولا نقاومهُ ولو كان قولهُ تعالى يستبين مضاداً لأفكارنا أو نظرنا لأن كلامهُ معصوم عن الخطاة وحسنّا عرضةٌ للخداع ووافقهما كل الموافقة القديس اغوسطينوس نصير الإيمان الكاثوليكي الباسل في ما علمهُ كل حين لاسيما في تفسيره عنوان المزمور عـ 32 حيث قال: من المحال ان الانسان يحمل ذاته بيديه فلا يقدر على ذلك الاَّ المسيح وحده لأنه كان محمولاً بين يديهِ حين قال وهو على العشاء هذا هو جسدي. ثم القديس كيرللوس (ونضرب صفحاً عن ذكر القديس يوسينوس والقديس ارنياوس) في الفصل 13 و 14 من كتابهِ الرابع في تفسير بشارة يوحنا: يثبت اثباتاً جلياً وجود جسد الرب في هذا السر بكلام لا يمكن أن يشوه بالكذب والتحريف. وان رام الرعاة شهادات أخرى من الآباء القديسين عليهم بما ورد من نصوص القديسين ديونيزيوس وايلاريوس وايرونيموس ويوحنا

الدمشقي في هذا الصدد التي عني بجمع شتاتها بعض العلماء الأفاضل في جريدة واحدة.

(277)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الثلاثون: كم مرة رذل وحرم الرأي المضاد هذا التعليم في

مجامع الكنيسة

هذا ما كان من الطريق الأول لاثبات هذه الحقيقة. بقي علينا الوجه الثاني وهو الاطلاع على حكم الكنيسة في الأمور المختصة بالإيمان اي في تحريمها التعليم المناقض لهذه الحقيقة. فمن المحقق أن الإيمان بوجود جسد المسيح ودمه الحقيقيين في سر الافخارستيا قد انتشر وبث في كامل الكنيسة وقبلهُ جميع المؤمنين برضاهم واختيارهم حتى ان برنجير قبل خمسمائة سنة ونيف لما تجاسر على انكارخ زاعماً أن في هذا السر علامة لآلام المسيح فقط ففي الحال عقد مجمع في فرسيل بأمر البابا لاون التاسع وحكم عليهِ باتفاق الكلمة فرذل هو نفسهُ أرطقتهُ ثم لما عاد الى هذيانهِ الكفري اجتمع عليهِ ثلاثة مجامع أخرى احدهما في تور واثنان في رومية احدهما بأمر البابا نيقولاوس الثاني والآخر بأمر البابا غريغوريوس السابع وحرموه ثم اثبت هذا الحرم البابا اينوشفسيوس الثالث في المجمع اللاتراني الكبير وفيما بعد قد اثبت وقرَّر الإيمان بهذه الحقيقة المجمعان الفلورنتيني والتريدنتيني بأوفر ايضاح فإذا نشط الرعاة الى ايضاح هذه الحجج تسنى لهم ان يثبتوا الضعفاء ويأتو قلوب الأفاضل الأتقياء بمزيد السرور و السلوان (ولا نقول شيئاً عن أولئك الذين أعمى الضلال عقولهم وحملهم على أن يبغضوا نور الحق أكثر من كل ما سواه).

(278)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الحادي والثلاثون: كيف يتضمن قانون الإيمان العقيدة

بوجود جسد المسيح ودمهِ في هذا السر

لا يحل للمؤمنين أن يشكوا في أن الإيمان بهذه العقيدة أيضاً متضمن بين باقي قواعد الإيمان لأننا اذ نؤمن ونعتقد أن الله سبحانهُ على كل شيء قدير لزمنا أن نعتقد أنهُ قادر أيضاً على هذا العمل العظيم العجيب الذي نكرمهُ في سر الافخارستيا. ثم لما كنا نؤمن بالكنيسة الكاثوليكية ينتج نتجاً لازماً اننا نؤمن معاً بحقيقة هذا السر التي أبناها. لأنها هي تعلمنا اياها.

الثاني والثلاثون: يتبين قدر الكنيسة المجاهدة من عظمة

هذا السر

ما من شيء يمكن أن يزاد على نعيم الاتقياء وفائدتهم حين يتأملون قدر هذا السر الأسمى. فأولاً يعقلون به كمال الشريعة الانجيلية التي اعطيت حقيقة ما كانت الشريعة الموسوية تدل عليهِ بالصور والرموز ولهذا قال القديس ديونيزيوس بالهام الهي: ان كنيستنا هي متوسطة بين كنيسة اليهود وأورشليم العليا ولذلك مشتركة بكلتيهما. وفي الحق لا يقدر المؤمنون أن يدركوا حق الإدراك كمال الكنيسة المقدسة اذ لا يحول بينها وبين السعادة السماوية الاّ درجة واحدة. اذ أننا حاصلون مثل السمويين على المسيح الإله والإنسان حاضراً لدينا ولا فرق بيننا وبينهم الاّ بدرجة واحدة وهي أنهم يتمتعون بمرآهُ السعيد عياناً أما نحن فنكرمهُ حاضراً في الافخارستيا بإيمان ثابت لا يتزعزع وان كان بعيداً عن أبصارنا محتجباً تحت

(279)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الأعراض السرية ناهيك ان المؤمنين يتحققون بهذا السر محبة المسيح مخلصنا الفائقة بالكمال اذ شاءَ بجودتهِ السامية أن الطبيعة التي أخذها منا لا تفارقنا بل توجد وتمكث معنا ما أمكن ليصدق في كل آن ما قالهُ الحكيم في سفر الأمثال بلسان الحكمة: ان نعيمي مع بني البشر (ص 8 عـ 31).

الثالث والثلاثون: ان كل الأشياء التي تختص بكمال الإنسان

كالعظام والعروق والأعصاب وما شاكلها هي موجودة

وجوداً حقيقياً مع اللاهوت في هذا السر

يجب أن نبين أيضاً في هذا المقام أن ليس جسد المسيح الحقيقي وكلما يتعلق بنوعية الجسد الحقيقة كالعظام والأعصاب يوجد فقط في هذا السر بل المسيح كله. اذ يقتضي أن نعلم أن المسيح هو اسم الإله والإنسان اي اسم أقنوم واحد اجتمعت فيهِ الطبيعتان الإلهية والإنسانية ولذلك يشتمل على كلا الجوهرين وتوابعهما أي اللاهوت والطبيعة البشرية بكمالها القائمة بالنفس وبجميع أجزاء الجسد والدم فكل هذا نعتقده موجوداً في سر الافخارستيا لأنهُ لما كانت الطبيعة البشرية كلها متحدة بالللاهوت اتحاداً أقنومياً في السماء امتنع الوهم في أن يكون الجسد الموجود في هذا السر منفصلاً عن اللاهوت عينهِ.

الرابع والثلاثون: ان الدم والنفس واللاهوت لا يوجدان في

الافخارستيا على وجه وجود جسد المسيح فيهِ

من اللازم أن يعلم الرعاة أن ليس كل ما ذكر موجوداً في هذا السر

(280)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

على نوع واحد بعينه أو بقوة واحدة لأن منهُ ما يوجد في السر بقوة التقديس وفاعليتهِ. فلما كانت كلمات التقديس تفعل ما تدل عليه قال علماء اللاهوت ان ما يستدل عليهِ بكلام الصورة يوجد في السر بقوة السر فاذا اتفق ان كانت الأشياء مفترقاً بعضها عن بعض بالكلية فلا يوجد في السرّ الاَّ ما دلت عليه الصورة. واما الباقي فيوجد بالتبعية ثم منهُ ما يحتويهِ السر لكونهِ مرتبطاً بالأشياء المدلول عليها بالصورة فيما أن الصورة التي تستعمل لتقديس الخبز تدل على جسد المسيح اذ يقال: هذا هو جسدي فيوجد في الافخارستيا بقوة السر جسد الرب بعينه ولكن لما كان الدم والنفس واللاهوت متحدة مع الجسد كانت هذه جميعها في السر لا بقوة التقديس بل انما توجد فيه من وجه اتحادها بالجسد ويقال فيها أنها موجودة في السر بالمرافقة أو التبعية ومن هذا القبيل يتحقق أن المسيح كلهُ موجود في السر. فمتى اتحد اثنان بينهما تمام الاتحاد لزم أن يوجد الواحد حيث يوجد الآخر فينتج من ثم ان المسيح كلهُ موجود تحت شكل الخبز وكله تحت شكل الخمر وكما أن تحت شكل الخبز لا يوجد الجسد فقط بل الدم أيضاً والمسيح كله حقيقة هكذا تحت شكل الخمر ليس الدم موجوداً فقط بل الجسد أيضاً والمسيح كله.

الخامس والثلاثون: لماذا يصير تقديسان في الافخارستيا

(اى تقديس كل من الخبز والخمر على حدته)

ولو كان من الواجب أن يعتقد المؤمنون ويتحققوا أن الواقع هو كما ذكر مع ذلك قد رسم من باب الحق والصواب ان يتم تقديس كل من

(281)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الخبز والخمر على حدته. فأولاً لكي تظهر جلياً آلام الرب التي بها انفصل الدم عن الجسد ولهذا السبب يذكر اهراق دمه في تقديس الخمر ثم كان ذلك بغاية المناسبة بما أن هذا السر قد أعطيناه قوتاً لنفسنا فرسم بمنزلة مأكل ومشرب اللذين بهما قيام القوت الكامل للجسد.

السادس والثلاثون: ان المسيح كلهُ موجود تحت كل جزء

من أجزاءِ الشكلين

لا يحل لنا أن نعرض عن القول أن المسيح كلهُ موجود لا تحت شكلي الخبز والخمر فقط بل تحت كل جزء من أجزائهما. هكذا كتب القديس اغوسطينوس قائلاً: ان كل واحد يتناول المسيح الرب وكله موجود في كل من الأجزاء ولا يتجرأُ على متناوليه بل يمنح ذاته كاملاً لكل واحد منهم. وهذا يتلخص أيضاً من رواية الانجيليين اذ نعلم أن ربنا لم يقدس أجزاء الخبز كلاًّ على حدته تالياً عليهِ الصورة بل قدس بصورة واحدة بعينها معاً كل الخبز المعد لتكميل السر المقدس ولتوزيعه على الرسل. وهذا ظاهر علناً في تقديس الكأس اذ قال : خذوا فاقسموا بينكم (لوصا ص 22 عـ 17). فكل ما اوردناه وشرحناه الى الآن مداره على أن الرعاة يلزمهم أن يبينوا للشعب المؤمن أن جسد المسيح ودمهُ الحقيقيين يحتويان في سر الافخارستيا ويأتي الكلام على المفعول الثاني الذي يفعلهُ التقديس وهو الاستحالة.

(282)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

السابع والثلاثون: لا يبقى بعد التقديس أدنى جوهر المادة

هذا السر

على الرعاة أن يبينوا الآن المفعول الثاني وهو أن جوهر الخبز والخمر لا يبقى في السر بعد التقديس ان في ذلك لعجباً عجاباً غير أنهُ مرتبط بما ابناه آنفاً. لأنهُ ان كان جسد المسيح قد وجد تحت أعراض الخبز والخمر بعد التقديس فمن الضرورة أن يكون وجد حيث لم يكن موجوداً اما بتغيير المكان أو بالابداع او باستحالة شيء آخر إليهِ والحال من المحقق الثابت ان جسد المسيح لا يمكن أن يكون في السر بوجه أنهُ يأتي من مكان الى آخر والاَّ لزم القول أنهُ يتغرب عن الأخدار السماوية اذ ما من شيءٍ يتحرَّك الاّ يترك المكان الذي يتحرَّك منهُ. أما القول أنهُ يوجد في السر من حيث أنهُ خلص هناك فلا يمكن تصديقه بل يمتنع وقوعه في الفكر. فبقي اذن أن جسد الرب يوجد في السر باستحالة الخبز إليه ولذا لزم القوم أن جوهر الخبز لا يبقى لهُ وجود بتة بعد التقديس.

الثامن والثلاثون: ان الاستحالة الجوهرية المثبوتة في المجامع

لها أساس في الكتاب الإلهي

ان آباءَنا الأقدمين في المجمعين اللاتراني والفلورنتيني المسكونيين قد اثبتوا بمراسيمهم الصريحة حقيقة هذا التعليم سنداً الى آيات الكتاب المقدس أما المجمع التريدنتيني فقد قرَّرها بأجلى بيان قائلاً : من يقل أن جوهر الخبز والخمر يبقى في السر مع جسد ربنا يسوع المسيح ودمه فليكن محروماً.

(283)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وقد تبينت هذه الاستحالة من شهادة الأسفار الإلهية وأولاً من كلام الرب نفسهِ في رسم هذا السر اذ قال : هذا هو جسدي. فلفظة هذا تدل على كامل جوهر الشيء الحاضر بقوة وضعها فلو بقي جوهر الخبز لما كان صح القول "هذا هو جسدي" ثم ان المسيح قال في بشارة يوحنا: ان الخبز الذي أنا سأعطيه هو جسدي لأجل حياة العالم (يوحنا ص 6 عـ 52) فقد سمى الخبز جسده. وبعيد ذلك أردف كلامهُ بقولهِ: ان لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمهُ فليست لكم حياة فيكم. ثم قال أيضاً: جسدي مأكل حقاً ودمي مشرب حقاً. فحيث سمى بصريح العبارة جسده خبزاً ومأكلاً حقاً ودمه مشرباً حقاً تبين جلياً أنهُ لم يبق شيء كلياً من جوهر الخبز والخمر.

التاسع والثلاثون: كيف عرف الآباء الاستحالة في هذا السر

من طالع كتب الآباء القديسين فهم بدون عناء أنهم اجمعوا في كل اين وآن قولاً وحكماً على هذا التعليم من ذلك ما كتبهُ القديس امبروسيوس في كتابهِ عن الأسرار : لعلك تقول يا هذا ان الخبز المستعمل في السر هو كالخبز الذي أكلهُ فأعلم أن هذا الخبز كان خبزاً قبل كلام التقديس ولكن لما وقع عليه التقديس استحال الخبز الى جسد المسيح. وقد أورد بعد ذلك عدة تشابيه ونموذجات تمهيداً لاثبات هذه الحقيقة ولما فسر في محل آخر هذه الآية من المزامير: كل ما تشاءَ الرب صنعهُ في السماءِ والأرض (مزمور 134) قال ولو نظرنا صورة خبز وخمر مع ذلك يجب أن نؤمن أن ليس بعد

(284)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

التقديس ألاَّ جسد المسيح ودمه. والقديس ايلاريوس في شرحهِ هذه المسألة عينها قال: ولو نظر في الخارج خبز وخمر مع ذلك هو جسد الرب ودمه حقيقة.

الأربعون: من أي وجه يسمى سر الافخارستيا خبزاً بعد التقديس

على الرعاة أن يبلغوا المؤمنين في هذا المقام أن لا يتعجبوا من أن سر الافخارستيا يدعى خبزاً بعد التقديس لأن قد جرت العادة في تسميتهِ خبزاً حيث لهُ شكل الخبز ولا يبرح يحوى قوة القوت والغذاء للجسد المختصة بالخبز. فمن عادة الأسفار الإلهية أن تسمي الشيء باسم ظاهرة كما يتبين مما ذكر في سفر التكوين ان ثلاثة رجال ظهروا لابراهيم مع انهم كانوا ملائكة (ص 18 عـ 2) ثم ذالك الاثنان اللذان ظهرا للرسل حين صعود السيد المسيح الى السماء سميا رجلين مع انهما ملاكان.

الحادي والأربعون: كيف تم هذه الاستحالة الجوهرية

ان شرح هذا السر دونه خرط القتاد مع ذلك ينبغي على الرعاة أن يبذلوا جهدهم في أن يبينوا للذين تقدموا في معرفة الأمور الإلهية (لأن الذين لم يزالوا ضعفاء يخشى عليهم من أن يرتبكوا من قبل عظمة هذا الأمر) طريقة هذه الاستحالة العجيبة التي تتم بأن كل جوهر الخبز يتحول بقدرة الله الى كامل جوهر جسد المسيح وكل جوهر الخبز يتحول بقدرة الله الى كامل جوهر جسد المسيح وكل جوهر الخمر الى كل جوهر دم المسيح بدون أن يمس الرب بأدنى تغير لأن المسيح لا يولد ولا يتغير ولا يزيد بل يثبت كله في جوهر واحد.

(285)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فالقديس امبروسيوس يقول في كلامهِ على هذا السر: انظر ما أفعل كلام المسيح فاذا كان لكلام الرب يسوع مثل هذه القوة العظيمة حتى يوجد ما لم يكن موجوداً كالعالم فكم يكون أعظم فاعلية حتى يحفظ ما كان موجوداً ويجعلهُ أن يستحيل الى شيءٍ آخر. وقد وافقهُ في هذا القول غيره من الآباء القديسين القدماء الاجلاء منهم القديس اغوسطينوس اذ قال: اننا نعترف بإيمان ثابت ان قبل التقديس كان خبز وخمر نشأة الطبيعة، اما بعد التقديس فاستحالا بالبركة الى جسد المسيح ودمه. ويوحنا الدمشقي في الفصل الرابع عشر في كتابه الرابع عشر في الإيمان المستقيم قال: هو جسد المسيح المتحد حقيقة باللاهوت الجسد الذي أخذه من العذراء القديسة لا ان الجسد الذي أخذه ينحدر من السماء بل أن الخبز نفسهُ والخمر يستحيلان الى جسد المسيح ودمه.

الثاني والأربعون: قد أطلق اسم الاستحالة الجوهرية اطلاقاً

محكماً على هذا التغيير العجيب

ان الكنيسة المقدسة الكاثوليكية قد أصابت بتسميتها هذا التحول العجيب استحالة جوهرية كما علم المجمع التريدنتيني المقدس. فكما أن الولادة الطبيعية بحق وأحكام تدعى تغير صورة من قبيل أن الصورة تتغير فيها. كذلك بصواب وحكمة قد أصطلح آباؤُنا الأقدمون أن يطلقوا على تحول جوهر شيء بكليتهِ في سر الافخارستيا الى كامل جوهر شيء آخر اسم استحالة جوهرية.

(286)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الثالث والأربعون: لا ينبغي أن نبحث بفضول عن كيفية

الاستحالة وعن مكان المسيح في هذا السر

كثيراً ما نبه الآباء القديسون الى أنهُ يجب تحذير المؤمنين من الافراط بالبحث الفضولي عن كيفية صيرورة هذه الاستحالة. لأننا لا نستطيع أن ندرك هذه الكيفية وليس عندنا مثال لها في التغيرات الطبيعية. انما علينا أن نعرف بالإيمان ان هذا هو الواقع لا أن نبحث بفضول عن كيفية وقوعه ومن الواجب على الرعاة أيضاً أن يتجنبوا في كلامهم على هذا السر الدخول في البحث عن كيفية وجود المسيح كله في كل جزء من جزئيات الخبز ولا يتعرضوا لمثل هذه المباحث الاَّ اذا ندبتهم اليها المحبة المسيحية. وحينئذٍ ينبغي في بادء البدء ان تحتاط عقول المؤمنين بذكر ما قالهُ الملاك جبرائيل لسيدتنا مريم العذراء: ان ليس عند الله أمر عسير.

الرابع والأربعون: ان وجود جسد المسيح في الافخارستيا ليس

كوجوده في مكان

ثم فليعلموا أيضاً أن المسيح الرب ليس في هذا السر كالمكان ودليلهُ ان المكان يتبع الأشياء ذاتها من حيث كبرها وصغرها والحال لا يقال ان المسيح موجود في السر على أنهُ كبير أو صغبر لأن هذا يختص بالكمية بل من حيث هو جوهر لأن جوهر الخبز يستحيل الى جوهر جسد المسيح لا الى جرمه وكميته. وما من أحد يرتاب أنالجوهر يوجد في حيز حقيقي كبير أو صغير على حدٍ سزى فإن جوهر الهواء وطبعهُ

(287)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يوجد في أكبر قسم الجو وأصغره كذلك طبع المآء كله يوجد في انآء كما يوجد في نهر كبير فحيث أن جسد الرب يخلف جوهر الخبز في السر ينبغي أن نعترف أنهُ يوجد في السر كوجود جوهر الخبز تماماً قبل التقديس والحال أن جوهر الخبز لم يكن يعتبر فيهِ كبر أو صغر الكمية الموجود فيها.

الخامس والأربعون: ما من جوهر في هذا السر تستند إليهِ

أعراض الخبز والخمر

بقى علينا أن نبين الأمر الثالث العظيم العجيب في هذا السر. فبعد أن يكون الرعاة أبانوا بالتفصيل القسمين الأولين يتسهل لهم شرح هذا القسم الثالث وهو أن أعراض الخبز والخمر في هذا السر قائمة بذاتها بدون استناد الى شيء. فقد ابنَّا آنفاً أن جسد الرب ودمه موجودان حقيقةَ في هذا السر بحيث لم يعد فيهِ شيء من جوهر الخبز والخمر ولا يمكن هذه الأعراض ان تستند الى جسد المسيح ودمهِ بقي أنها قائمة بذاتها غير مستندة الى شيء آخر ذلك مما يفوق نظام الطبيعة. وقد تمسكت الكنيسة المقدسة الكاثوليكية بهذا التعليم الثابت الدائِم ويسهل اثباتهِ بتلك النصوص التي تبين بها جلياً فيما مضى أنهُ لم يبقَ في الافخارستيا شيء من جوهر الخبز والخمر.

السادس والأربعون: لماذا أراد المسيح ان يعطينا جسده

ودمهُ تحت أعراض الخبز والخمر

ما من شيء أجدر بتقوى المؤمنين من أنهم يضربون صفحاً عن المسائل الدقيقة العويصة ويكرمون جلال هذا السر العجيب ويجلبونهُ ثم

(288)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يعطفون نظرهم فيهَ الى عناية الله الفائقة في رسمهِ توزيع هذه الأسرار المقدسة تحت أعراض الخبز والخمر لأن الناس لما كانوا من طبعهم يشمأزون كثيراً من أكل لحم البشر وشرب دمهم صنع الله بحكمته الغير المتناهية أن نعطي جسده مأكلاً ودمهُ مشرباً تحت أعراض الأشياء المذكورة أي الخبز والخمر اللذين نتناولهما كل يوم طعاماً لذيذاً. وزد على ذلك أيضاً فائدتين أخريين نقتبسهما من تناول جسد الرب ودمه تحت الأعراض المشار اليها. فأولاهما هي لو كنا نتناول جسد الرب تحت شكلهِ الخاص لكنا نمسي عرضةً لمثالب الكفار بدون أن نجد سبيلاً للفرار منها. والأخرى هو أننا أن كنا نتناول جسد الرب ودمه ولا ندركهما بالحواس مع كوننا نتناولها حقيقةً نستفيد زيادة إيمان كما صرح القديس غريغوريوس بمقاله هذا الشهير: لا أجر ولا ثواب حيث للعقل البشري خبرة وإدراك. فيلزم شرح جميع ما أوردناه الى الآن باحتراس واحتياط على قدر فهم السامعين وبحسب ما تدعو الى بيانه ظروف الزمان.

السابع والأربعون: ما الخير الذي ينالهُ من يتناول جسد

الرب ودمهُ باستيهال

ان ما يروى عن قوة هذا السر العجيبة وفوائده تخص معرفته جميع المؤمنين على اختلاف أنواعهم بدون استثناء وتلزمهم أعظم لزوم فلكي يدرك المؤمنون فائدة الافخارستيا ينبغي أن تشرح لهم شرحاً مسهباً.

ولكن لما كانت فوائده وأثماره جزيلة لا يقوى كلام ولا لسان على بيانها لزم أن الرعاة يعتمدون مبحثاً أو مبحثين ليبينوا ما يتضمنهُ هذا السر

(289)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

المقدس من فيض الخيرات وغزارتها ويتسنى لهم أن يدركوا أربهم اذا أوقفوا المؤمنين على قوة جميع الأسرار وجوهرها ثم مثلوا لهم الافخارستيا بينبوع وبقية الأسرار بجداول. وبالحق والواجب يقال أن الافخارستيا ينبوع جميع النعم لكونها تحتوي في ذاتها بنوع عجيب المسيح الرب ينبوع جميع المواهب السماوية وولي جميع الأسرار ومبدعها فلا غروَ أن سائر الأسرار تكتسب منهُ كينبوع كل ما لها من الخير والكمال. فالمخلص اذن من هذا القول ان مواهب النعمة الإلهية الغزيرة تفيض علينا من هذا السر.

الثامن والأربعون: ان ما يأتي الخبز والخمر جسدنا من

الفوائد يأتيه نفوسنا سر الافخارستيا بوجه اسمى وأجل

ان تأملنا طبع الخبز والخمر القائمة بهما مادة السر رأينا أيضاً كبير فائدة لنفسنا في سر الافخارستيا لأن الفوائد التي يأتيها الخبز والخمر للجسد يمنُّ بها جميعها سر الافخارستيا على نفسنا لنعيمها وخلاصها بطريقة أفضل وأكمل لأن هذا السر لا يستحيل الى جوهرنا كالخبز والخمر بل نحن على نوع ما نستحيل الى طبعهِ كما أفاد بالحق القديس اغوسطينوس في هذا المعنى اذ قال بلسان حال هذا السر: أنا طعام العظماء انمَ وكلني. فأنت لا تحيلني اليك كطعام جسدك بل أنت تتخوَّل اليَّ.

التاسع والأربعون: كيف تمنح النعمة بواسطة هذا السر

ان كانت النعمة والحق جعلا بيسوع المسيح (يوحنا ص 1 عـ 17) لزم ان ينسكبا في النفس حين تتناول بطهارة وقداسة من قال عن نفسهِ: من

(290)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يأكل جسدي ويشرب دمي يثبت فيَّ وأنا فيهِ (يوحنا ص 6 عـ 57).

لأن ما من ريب البتة أن الذين يتناولون هذا السر بوزع وتقوى يقبلون في ذواتهم ابن الله بنوع انهم يتطعمون بجسده كأعضاء حية وفقاً لما جاء في الكتاب العزيز: من يأكلني يحي لأجلي (يوحنا ص 6 عـ 58) ثم قوله تعالى: الخبز الذي أنا سأعطيه هو جسدي من أجل حياة العالم (يوحنا ص 6 عـ 52). فالقديس كيرللس في تفسيره هذه الآية يقول: ان كلمة الله لما اتحد بجسده جعلهُ محيياً فلاق اذن بهِ أن يتحد اتحاداً عجيباً بالأجساد بواسطة جسده المقدس ودمه الثمين اللذين نتناولهما بالبركة المحيية تحت شكلي الخبز والخمر.

الخمسون: ان الإنسان المدنس بالآثام والميت لا يحي

بتناول الافخارستيا ولو قيل أن هذا السر يمنح النعمة

اما القول في ان الافخارستيا تمنح النعمة فلا بد للرعاة من أن يفهموا بهِ المؤمنين أن من يتقدم اليها قصد الفائدة يلزمهُ أن يكون قد اقتبس النعمة قبل التناول. فإنهُ من المحقق كما أن الطعام الطبيعي لا يفيد الأجساد الميتة شيئاً هكذا السر المقدس لا يفيد النفس التي لا تحي بالروح ولهذا كانت أعراض الخبز والخمر في الافخارستيا دلالة على أنهُ رسم لا لإعادة الحياة للنفس بل لحفظها في الحياة وقد نص على ذلك القديس توما اللاهوتي في القسم الثالث في البحث التاسع والسبعين في الفصل الثالث منهُ ثم في الفصل الثلث والخمسين من كتابهِ في التعليم عن الكنيسة. ثم المجمع التريدنتيني في الجلسة الثالثة عشرة في الفصل

(291)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

السابع والقانون الحادي عشر منها. وقد قلنا هذا بحق لأن النعمة الأولى (التي يجب على الجميع أن يزدانوا بها قبل أن يقدموا على تناول الافخارستيا لئلا يأكلوا ويشربوا دينونة لنفوسهم) لا ينالها أحد ما لم يتأهب بالاشتياق والعبادة الى قبول عذا السر لأنهُ غاية جميع الأسرار ودليل الارتباط والاتحاد بالكنيسة اذ لا يستطيع أحد سبيلاً الى نوال النعمة خارجاً عنها.

الحادي والخمسون: كيف تغتذي النفس وتنمو بهذا

الطعام الروحي

ثم كما أن الطعام الطبيعي لا يحفظ الجسد فقط بل ينميه أيضاً ويؤتي الذوق كل يوم لذة وعذوبة جديدة كذلك طعام الافخارستيا ليس يغذي النفس فقط بل يزيدها قوة أيضاً وينعش فيها الروح بلذة الأشياء الإلهية ولهذا السبب قلنا بحق وصواب ان هذا السر يمنح النعمة لأن حقه أن يقابل بالمن المحتوى كل لذة وعذوبة (حكمة ص 16 عـ 20).

الثاني والخمسون: ان الافخارستيا تغفر الخطايا الخفيفة

ما من ريب في أن الافخارستيا تترك وتمحو الخطايا الخفيفة المعروفة بالخطايا العرضية لأن كل ما تفقده النفس بحدة الشهوة حين تعثر بشيء طفيف تعيده الافخارستيا عليها برحضها تلك الذنوب الخفيفة كما أن ما يفني من الجسد ويباد بقوة الحرارة الغريزية يعيده القوت الطبيعي شيئاً فشيئاً معيضاً عن المفقود. فقد أصاب القديس امبروسيوس بقوله في كلامهِ على هذا السر

(292)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

السماوي: نتناول هذا الخبز اليومي علاجاً للضعف الملم بنا كل يوم انما يجب أن نفهم هذه الأقوال عن تلك الخطايا الخفيفة التي لا تجذب النفس اليها عن ميل اليها ولذة بها.

الثالث والخمسون: ان هذا السر يقي النفس أيضاً من

الشرور المستقبلة

ثم في هذه الأسرار قوة تقينا أطهاراً وأبرياء من الآثام وتحفظنا سالمين من شر هجوم التجارب وكأنها تأهب النفس بعلاج سماوي لئلا تدنس وتفسد بسم الاضطراب الموبق ولهذا السبب شهد القديس قبريانوس بأنهُ لما كان الظالمون يسوقون المؤمنين في القديم الى منقع العذاب والقتل لأجل اعترافهم بالإيمان جرت العادة في الكنيسة الكاثوليكية ان يناولهم الأساقفة سر جسد الرب ودمه لئلا تغلبهم شدة الأوجاع ويفشلوا في الجهاد الخلاصي. ثم ان هذا السر يردع ويقمع شهوة الجسد لأنهُ لما كان يزيد النفوس اضطراماً بنار المحبة الإلهية لزم من الضرورة ان يخمد نار الشهوة.

الرابع والخمسون: كيف يتيسر الدخول الى المجد الأبدي

بواسطة هذا السر

وفي الآخر نحصر بكلمة واحدة جميع فوائد هذا السر واحساناته فنقول. ان في سر الافخارستيا قوة عظمى لتنويلنا المجد الأبدي لأنهُ قد كتب: من يأكل جسدي ويشرب دمي فلهُ الحياة الأبدية وأنا سأقيمهُ في اليوم الأخير (يوحنا ص 6 عـ 55) ونص على ذلك

(293)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

القديس توما اللاهوتي في البحث الثالث من القسم الثالث عشرة في الفصل الثاني منهُ والقديس يوحنا الذهبي الفم في كتابهِ السادس عن الكهنوت لأن المؤمنين بنعمة هذا السر يقضون هذه الحياة راتعين في مروج راحة الضمير وسلامه. ثم ينتعشون بقوته كايليا النبي الذي انعشت قواه رغيف من الخبز فسار أربعين يوماً وأربعين ليلة الى جبل الله حوريب (ملوك 3 ص 19 عـ 8). ومتى آن الأوان للانتقال من هذه الحياة يصعدون الى المجد الخالد والسعادة. فعلى الرعاة أن يشرحوا هذه جميعها باسهاب لاسيما اذا اتخذوا موضوعاً للكلام الفصل السادس من بشارة يوحنا حيث تتضح مفاعيل هذا السر الوافرة المتنوعة أو اذا رددوا في عقولهم أعمال السيد المسيح العجيبة مبينين أننا اذا كنا بكل حق نعد سعداء أولئك الذين قبلوا في بيوتهم المسيح الرب وهو في الجسد المزمع أن يموت أو استعادوا البرء من أدوائهم بمس طرف ثوبهِ فكم بالحري يكون أسعد وأغبط منهم حظاً أولئك الذين لا يأنف أن يدخل نفوسهم وهو في المجد الخالد ليشفي جروحها كلها ويجملها بجميع النعم والمواهب الجزيلة ويضمها إليهِ.

الخامس والخمسون: بكم نوع نتناول جسد المسيح ودمه

يجب أن نبين من هم الذين يستطيعون أن ينالوا أثمار الافخارستيا المقدسة الوافرة التي ذكرناها آنفاً وان التناول ليس من نوع واحد فقط لكي يتعلم الشعب المؤمن أن يتغاير في اقتباس المواهب الفضلى.

(294)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فقد أصاب اذن آباؤنا الأقدمون كما ورد في المجمع التريدنتيني بتمييزهم ثلاثة أنواع للتناول. لأن البعض يتناولون السر فقط وهم الخطاة الذين لا يرهبون أن يتناولوه بفم وقلب غير طاهرين وقال فيهم رسول الأمم أنهم بغير استحقاق يأكلون جسد الرب ويشربون دمهُ. وفيهم كتب القديس اغوسطينوس قائلاً من لا يثبت في المسيح ولا يثبت المسيح فيهِ فبلا شك أنهُ لا يأكل جسد المسيح روحياً وأن لاك بأسنانهِ سر جسده ودمه جسدياً وفي الظاهر. فمن كانوا على هذا الاستعداد فضلاً عن أنهم لا ينالون أدنى ثمرة من الأسرار يأكلون ويشربون دينونتهم كما شهد رسول الأمم. وبعضهم من يتناولون الافخارستيا روحياً فقط وهم الذين يتناولون هذا الخبز السماوي بالشوق والرغبة مضطرمين بالإيمان الحي الذي يعمل بالمحبة (غلاطية ص 5 عـ 6) وهؤلاء ينالون حقاً من سر الافخارستيا قسماً عظيماً من الفوائد اذا لم نقل جميعها. وبعضهم يتناولون الافخارستيا تناولاً حقيقياً وروحياً وقد امتحنوا ذواتهم جرياً على قول الرسول وتقدموا الى هذه المائدة الإلهية متوشحين بثوب العرس فيغتنمون من الافخارستيا النعم الغزيرة التي ذكرناها آنفاً. ومن المحقق ان الذين يكتفون بأن يتناولوا سر جسد الرب تناولاً روحياً فقط مع أنهم قادرون أن يتأهبوا للمناولة الحقيقية يحرمون نفوسهم خيرات عظمى سموية.

(295)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

السادس والخمسون: تبين أن من يتقدم الى تناول الافخارستيا

ينبغي أن يكون أعد نفسهُ لقبولها

يجب أن نعلم كيف ينبغي أن تكون النفوس متأهبة قبل أن تقدم على تناول الافخارستيا. فأولاً ينبغي أن يورد نموذج مخلصنا كي يتضح جلياً لزوم هذا الاسعتداد لأن الرب قبل أن سلم رسلهُ سر جسده ودمه غسل أقدامهم ولو كانوا وقتئذٍ اطهاراً اعلاناً بوجوب بذل الجهد والعناية في أن لا يخيس نفسنا شيء من الطهارة والبرارة حين نتقدم الى تناول هذه الأسرار. ثم فليعقل المؤمنون أن من يتناول الافخارستيا بنفس متأهبة خير التأهب يزدان بأجزل وأفخر حلى المواهب السماوية والنعم الإلهية وبالعكس اذا تناول بغير استعداد فضلاً عن أنهُ لا ينال خيراً تلم بهِ الشرور والاضرار لأن من شأن الأمور الخطيرة لاسيما الخلاصية أن تجدينا أعظم فائدة اذا استعملناها بوقتها وكما وبالعكس ينبغي اذا استعملناها في غير وقتها وعلى غير ما ينبغي فإنها تقبل علينا بالضرر والهلاك. ولهذا ما من عجب في أن مواهب الله العظيمة الفاخرة اذا قبلناها بقلب مستعد حسناً تفيدنا عوناً على اقتباس المجد السماوي واما اذا تقدمنا اليها بغير استحقاق اذاقتنا الموت الأبدي. ولنا في اثبات ذلك مثل تابوت الرب فإنهُ كان عند بني اسرائيل أجل شيء وأعزّه واكرمهُ لأن الرب كان يمنحهم بهِ ما لا يحصيه عادٌ من النعم والاحسانات الجليلة فلما استولى عليهِ الفلسطيون بلاهم بوباء ووبال مقرون بعار أبدي فاضح (خروج ص 26 عـ 61 وملوك 4 ص 5) هكذا الأطعمة

(296)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

اذا انحدرت من الفم الى معدة سليمة غذت الجسد وافادته نماءَ. اما اذا نزلت الى معدة موعبة اخلاصاً سيئة أنشأت أمراضاً قتالة.

السابع والخمسون: كيف ينبغي اعداد النفس الى تناول

الافخارستيا

ينبغي على المؤمنين أن يستعدوا أولاً وبدءًا استعداداً يميزون بهِ مائدة الرب هذه المقدسة من باقي الموائد العالمية وهذا الخبز السماوي من الخبز الطبيعي المألوف. وهذا يقوم في أن نؤمن ايماناً ثابتاً وثيقاً بحضور جسد من تخرُّ لهُ الملائكة سجداً في السماء: اسجدوا لهُ يا جميع الملائكة (مزمور 96 عـ 8) ومن أعمدة السماء تتزعزع وتبهت من زجره (أيوب ص 26 عـ 11) ومن السماءِ والأرض كلاهما مملؤتان من مجده (اشعيا ص 6 عـ 3). أي نميز جسد الرب كما قال الرسول (قورنتية 1 ص 11 عـ 29) من يجب علينا أن نرفع لهُ المجد والاكرام أحرى من أن نتفحص حقيقتهُ بمحاورات ومماحكات فضولية لا طائل تحتها.

ثم الاستعداد الثاني وهو لازم غابة اللزوم يتوقف على أن كلاً يفحص ذاته هل هو في حالة الصلح والسلام مع غيره وهل يحب قريبهُ حباً مخلصاً من صميم فؤاده لأن الرب قال في بشارة متى: فاذا قدمت قربانك الى المذبح وذكرت هناك أن لأخيك عليك شيئاً فدع قربانك هناك أمام المذبح وامضِ أولاً فصالح أخاك وحينئذٍ ئتِ وقدم قربانك (ص 5 عـ 23 و 24) وفي الأخر يجب علينا أن نفحص ضميرنا

(297)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

فحصاً جهيداً لئلا نكون مدنسين بخطية ما مميتة يلزمنا لزوماً حتمياً ان نتوب عنها ونرحضها بماءِ الندامة والاعتراف لأن المجمع التريدنتيني المقدس قرر في القانون الثالث عشر من الجلسة الثالثة عشرة أنهُ لا يجوز لمن تلذعه ذمتهُ أنهُ موجود في حال الخطأ المميت أن يتناول سر الافخارستيا قبل أن يطهر نفسهُ بالاعتراف السري على يد كاهن يسمع لهُ اعترافهُ ولو استبان لهُ في ضميره أنهُ نادم على خطيتهِ. وما عدا ما ذكر يجب علينا أن نتروىّ بعقلنا وفكرنا أننا غير أهل أن يمنَّ علينا الرب بهذا الإحسان العظيم ولهذا ينبغي أن نقول ما قالهُ ذاك القائد المئة من شهد الرب لهُ أنهُ لم يجد مثل إيمانهِ في اسرائيل: يا رب لست مستحقاً أن تدخل تحت سقف بيتي. لنفحصنَّ ذاتنا أيضاً ان كان لنا أن نقول ما قالهُ القديس بطرس زعيم الرسل: يا رب أنت تعلم أني أحبك (يوحنا ص 21 عـ 15) وان نتذكر أن الذي اتكأَ في وليمة الرب وليس عليهِ ثياب العرس أوثق بيديهِ ورجليهِ وطرح في الظلمة البرانية حيث يقاسي عقوبات أبدية.

الثامن والخمسون: ويلزم أيضاً من يقصد التناول استعداد

ما للجسد

لا يلزم استعداد النفس فقط للتناول بل استعداد الجسد ايضاً.

لأننا نلتزم أن نتقدم صائمين الى المائدة المقدسة بحيث لا نكون أكلنا أو شربنا شيئاً بتة من نصف ليل اليوم السابق الى الوقت الذي فيهِ نتناول ويستلزم أيضاً مقام هذا السر الجليل ان المتزوجين يمتنعون بضع أيام

(298)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

عن المضاجعة افتداءًا بداود النبي الذي لما كان مزمعاً على تناول خبز الوجوه من الكاهن قد اعترف ان النساء قد منعت عنهُ وعن الغلمان منذ ثلاثة أيام. فهذا جل ما ينبغي على المؤمنين أن يراعوه ليحسنوا التأهب الى تناول الأسرار المقدسة. واما ما بقي مما يجب تداركه في هذا الأمر فيعود بدون تعسف الى ما ذكرناه.

التاسع والخمسون: ان جميع المسيحيين يلتزمون ان يتناولوا

سر الافخارستيا قلما يكون مرة واحدة في العالم

من الواجب أن يبلغ المؤمنون تكراراً أن هذه السُّنة قد رسمت على الجميع بأن يتناولوا القربان المقدس لئلا يتوانى البعض متقاعسين عن قبوله بما يحتسبونهُ ثقيلاً وعسيراً من الاستعداد اللازم قبل التناول.

وفوق ذلك رسمت الكنيسة ان من لا يتناول كل عام في عيد الفصح اقلهُ مرة يطرد من الكنيسة.

الستون: كم مرة وبأية أزمنة يجب أن نتناول القربان المقدس

فلا يستكفين المؤمنون أن يتناولوا جسد الرب مرة فقط في كل عام عملاً بهذا الرسم بل يجب عليهم أن يتناولوه تكراراً. انما لا يمكن أن يتحرر قانون للجميع في هل أنهُ يفيد التناول كل شهر مرة أو كل أسبوع أو كل يوم. على أن القديس اغوسطينوس قد سلمنا هذه القاعدة الوثيقة في الفصل الرابع عشر من كتابه عن المداومة على الخير والصلاح بقولهِ: سر سيرة تمكنك من لاتناول كل يوم ولهذا من واجبات الخوري أن يحث المؤمنين مراراً على أن يكثروا من تناول الافخارستيا. اذ كما

(299)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يرون من اللازم أن يقدموا للجسد قوتاً كل يوم هكذا أيضاً لا يتوانون في غذاء النفس بهذا السر كل يوم حيث أنهُ من المحقق أن النفس لا تحتاج الى هذا القوت الروحي أقل مما تحتاج الأجساد الى القوت الطبيعي.

ويفيد كثيراً أن يكثر في هذا المقام ذكر الاحسانات العظيمة الإلهية التي نقتبسها من تناول سر الافخارستيا. وينبغي أيضاً أن تورد صورتها اي المن الذي كان بنو اسرائيل يأكلونهُ كل يوم لإنعاش أجسادهم وتقويتها (تكوين ص 6 عـ 15) ثم نصوص الآباء القديسين الذين حرضوا على الاكثار من تناول هذا السر. فالقديس اغوسطينوس في مقالتهِ الثامنة والعشرين عن كلام الله يقول: لأنك تخطيءُ كل يوم فتناول كل يوم. ومن يطالع أقوال الآباء الذين كتبوا في هذا المبحث يراهم مجمعين قولاً على هذا المعنى.

الحادي والستون: تتبين عادة الكنيسة قديماً في الاكثار

من التناول

قد اطلعنا من سر الابركسيس على أن المؤمنين في وقت ما كانوا يتناولون الافخارستيا كل يوم لأن جميع الذين كانوا وقتئذٍ يتدينون الدين المسيحي كانوا مضطرمين بنار المحبة الحقيقة الصادقة اضطراماً يقبل بهم على التأهب الى تناول جسد الرب اذ كانوا يواظبون على الصلوات بدون انقطاع ويباشرون باقي أعمال التقوى والعبادة. فلما فترت فيما بعد هذه العادة جددها بوجه من الوجوه البابا انكلاتوس الشهيد الفائق بالقداسة. لأنهُ انفذ أمراً بأن الخدام (الشمامسة) الذين يحضرون الذبيحة

(300)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الإلهية يتناولون القربان المقدس مقرراً أن ذلك كان من رسول الرسل. واستمرت هذه العادة زماناً طويلاً في الكنيسة حتى ان الكاهن في نهاية القداس في تناولهِ الافخارستيا كان يلتفت الى الشعب الحاضر ويدعو المؤمنين الى مائدة الرب قائلاً: هلموا يا أخوة الى التناول فالمستعدون منهم كانوا حينئذٍ يتناولون الافخارستيا بمزيد المهابة والورع. فلما فترت فيما بعد التقوى والمحبة الى حد ان المؤمنين امسوا يتقدمون نادراً الى التناول رسم فابيانوس الحبر الأعظم ان الجميع يتناولون القربان المقدس ثلث مرات في العام اي في عيد الميلاد وعيد القيامة وعيد العنصرة. ثم ثبت هذا الرسم عينهُ عدة مجامع لاسيما مجمع أغدي. وفي الآخر لما بلغ الحال الى هذا الحد من الاهمال حتى ان السنة لم تمس غير مرعية فقط بل أخذ الناس يتأخرون أيضاً عن التناول أعواماً برمتها رسم المجمع اللتراني ان المؤمنين يتقدمون الى تناول جسد الرب اقلهُ مرة كل عام في عيد الفصح وان من يتوانون عن العمل بموجب هذا الرسم يحرمون دخول الكنيسة.

الثاني والستون: لا يليق مناولة الافخارستيا للصغار الذين لم

يبلغوا بعد سن التمييز

وان كانت السنة التي فرضها الله وقررتها الكنيسة بسلطانها تعم جميع المؤمنين مع ذلك واجب أن يقال ان الذين لم يبلغوا بعد سن التمييز بداعي صغر عمرهم يستثنون من حكمها لأنهم لا يستطيعون أن يميزوا الافخارستيا المقدسة من الخبز المألوف ولا يمكنهم أن يقدموا الى

(301)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

تناولها بما يقتضي من العبادة والورع. فيما أن ذلك يغاير كل المغايرة رسم السيد المسيح لأنهُ قال: خذوا وكلوا. والحال من المؤكد أن الصغار ليسوا جديرين بأن يأخذوا ويأكلوا. نعم قد كانت جرت عادة قديمة في بعض أماكن في أن توزع الافخارستيا للصغار أيضاً ولكن قد نسختها الكنيسة بسلطانها من أحقاب اما للاسباب التي أوردناها وأما لبواعث أخرى مناسبة للتقوى المسيحية.

الثالث والستون: في أي عمر يجب أن يتناول الصغار

القربان المقدس

ما من أحد يقدر أن يعين العمر الذي فيهِ يجب أن تعطي الافخارستيا للصغار مثل الأب والكاهن الذي يعترفون لهُ بخطاياهم لأن من متعلقاتهما ان يستعلما ويستقصيا من الصغار هل لهم معرفة بهذا السر العجيب وشوق الى قبوله.

الرابع والستون: أيجوز أحياناً مناولة المجانين

لا ينبغي قطعاً أن يعطي السر لمختلى الشعور حين لا يدركون العبادة ولو كانوا قبل أن اعتراهم الجنون اعلنوا من نفوسهم التقوى والعبادة وصلاح الإرادة إنما يجوز أن يتناولوا الافخارستيا في آخر حياتهم بموجب مرسوم المجمع القرطاجني بشروط الاَّ يخشى خطر القيّ أو اهانة أخرى للقربان المقدس.

(302)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الخامس والستون: لا يحل أن يتناول العالميون القربان

المقدس تحت كلا الشكلين

اما نظراً الى ما يختص بطقس التناول فعلى الرعاة أن يبلغوا المؤمنين أن الكنيسة المقدسة قد حرّمت أن يتناول أحد الافخارستيا تحت الشكلين بدون اذن الكنيسة نفسها ما عدا الكهنة في تقديم ذبيحة جسد الرب. لأنهُ كما بين المجمع التريدنتيني ولو أن السيد المسيح في العشاء السري قد رسم صريحاً هذا السر تحت شكلي الخبز والخمر وسلمهُ الرسل مع ذلك لا ينتج أن المسيح الرب سن هذه السنة على أن جميع المؤمنين يتناولون القربان المقدس تحت كلا الشكلين لأن ربنا في تكلمهِ على هذا السر ذكر غير مرة شكلاً واحداً كما في قولهِ: من يأكل من هذا الخبز يحي الى الأبد والخبز الذي أنا سأعطيه هو جسدي لأجل حياة العالم والذي يأكل هذا الخبز يحي الى الأبد (يوحنا ص 6 عـ 52 و 59).

السادس والستون: في الأسباب التي لأجلها رسمت الكنيسة

التناول تحت شكل واحد للعوام

من البين أن الكنيسة قد ندبتها أسباب كثيرة معقولة باهظة لا الى أن تثبت فقط عادة التناول تحت شكل واحد بل أن تقررها أيضاً بسلطان حكمها القاطع.

فأولها وجوب التحذر خاصة من أن دم الرب يراق على الأرض الأمر الذي لا يسهل اجتنابهُ اذا اقتضى أن يتناول جمهور غفير من الشعب.

(303)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثانيها حيث ينبغي أن يكون القربان المقدس حاضراً على الدوام لمناولة المرضى يخشى كثيراً من أن شكل الخمر يفسد اذا بقي محفوظاً زماناً طويلاً.

ثم ان كثيرين لا يطبقون طعم الخمر ولا رائحته مطلقاً. لهذا قد أصابت الكنيسة في تقريرها شكل الخبز فقط لمناولة المؤمنين حذراً من أن يعطي لأجل الخلاص الروحي يعود بالضرر على صحة الجسد وناهيك أن الخمر قليلة في أمصار كثيرة ولا يمكن جلبها الاَّ بنفقات باهظة ومعاناة أسفار طويلة شاقة.

ثم السبب الأقوى والأخص هو قصد استئصال أرطقة أولئك الذين كانوا ينكرون وجود المسيح كله تحت كل من الشكلين بل يزعمون أن الجسد وحده بلا دم تحت شكل الخبز والدم بلا جسد تحت شكل الخمر. فبكل صواب وحكمة قد رسمت المناولة تحت شكل واحد وهو شكل الخبز كي تنجلي حقيقة الإيمان الكاثوليكي أمام أبصار الجميع. وتوجد أسباب أخرى قد جمعها أولئك الذين أسهبوا الكلام على هذا السر. فعلى الرعاة أن يأتوا بها اذا رأوا لزوماً لا يرادها. بقي علينا أن نأتي بالكلام على الخادم حذراً من أن يفوتنا شيؤ من التعليم المختص بهذا السر ولو كانت هذه المسألة من الأمور البديهية.

السابع والستون: ان الخادم الخصوصي لهذا السر هو الكاهن

ان الكهنة وحدهم أعطوا سلطاناً على تتميم سر الافخارستيا وتوزيعه على المؤمنين. لأن المجمع التريدنتيني المقدس قد صرّح بأن العادة قد

(304)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

حفظت في الكنيسة كل حين أن الشعب المؤمن يتناول الأسرار من الكهنة وان الكهنة ينالون نفوسهم لدى تتميمهم هذه الأسرار وقد أبان أن هذه العادة متسلسلة من التقليد الرسولي ويجب الاستمساك بها من باب الديانة لاسيما أن السيد المسيح قد أعطانا مثالاً في هذا الأمر الشهير أذ قدس جسده وناولهُ الرسل بيده (متى ص 26 عـ 26) وليس فقط قد أعطى الكهنة وحدهم سلطاناً على خدمتهِ بل تداركاً لأسباب الإكرام والتوقير لهذا السر قد حرمت الكنيسة بسنة مرعبة من أن أحداً يتجاسر أن يستعمل الآنية المقدسة وأغطية الأسرار وباقي أدوات التقديس أو يمسها ما لم يكن مرسوماً بالدرجات المقدسة الاَّ اذا دعت الى ذلك ضرورة باهظة.

الثامن والستون: ان للكهنة ولو خطاة سلطاناً على تقديس

الافخارستيا وتوزيعها

ان الكهنة وباقي المؤمنين يعقلون من حكم المجمع التريدنتيني في الجلسة الثانية والعشرين في الافخارستيا بما أنها ذبيحة كم ينبغي على الذين يتقدمون الى تقديس الافخارستيا أو خدمتها أو تناولها أن يكونوا متحلين بعقود العبادة والقداسة وان لم يكن فرق نظراً لصحة خدمتها بين أن حافظ على استعمال ما يتعلق بكمال نوعيتها فيصح هذا القول عينهُ بالنظر الى الافخارستيا لأننا نعتقد أن هذه الأسرار جميعها لا تستند الى استحقاق الخدام بل تتم بقدرة السيد المسيح وسلطانهِ. وهذا ما

(305)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ينبغي بيانه في الافخارستيا بحسب كونها سراً. فبقي علينا الآن أن نأتي بالكلام والشرح على كونها ذبيحة كي يتدبر الرعاة ما يجب عليهم تعليمهُ للشعب أيام الآحاد والأعياد عملاً بمرسوم المجمع التريدنتيني.

التاسع والستون: انا لافخارستيا ذبيحة العهد الجديد هي

مرضية لله غاية الرضى

ان هذا السر فضلاً عن أنهُ كنز الغنى السماوي الذي يكسبنا مرضاة الله وصداقته اذا أحسنا استعماله يحتوي أيضاً نوعية خاصة يتسنى لنا بها أسداء الشكر لله على ما أكرمنا بهِ من احساناته الغزيرة. فما أكثر ما تكون هذه الذبيحة مرضية ومقبولة اذا قدمت على حقها. فإن كانت ذبائح العهد القديم التي قيل فيها: ذبيحة وتقدمة لم تشأ (مزمور 39 عـ 7) وأيضاً: فإنك لا تبتغي ذبيحة فابذل ولا ترضى بمحرقة (مزمور 50 عـ 8) قد أرضيت الرب ارضاءً حتى شهد الكتاب الإلهي أن الرب اشتمَّ منها رائحة طيب أي أنهُ رضي بها وتقبلها (تكوين ص 8 عـ 21). فما أعظم ما يجب أن نرجوه من هذه الذبيحة التي ذبيحها ومقربها هو من سمع فيهِ مرتين صوت من السماءِ يقول: هذا هو ابني الحبيب الذي بهِ سررت (متى ص 3 عـ 17) فعلى الرعاة اذن أن يبذلوا جهدهم في بيان هذا السر كيما اذا حضر المؤمنون القداس الإلهي يتعلمون أن يتأملوه بانتباه وخشوع وعبادة.

(306)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

السبعون: ما هي الأسباب التي من أجلها رسم المسيح الرب

الافخارستيا

تعلم الرعاة أولاً وبدأً ان السيد المسيح رسم الافخارستيا لسببين أولهما لتكون لنفوسنا قوتاً سماوياً نتمكن بهِ من صيانة الحياة الروحية وحفظها. ثانيهما كي تحوز الكنيسة ذبيحة دائمة تكفر عن آثامنا وتستعطف الآب السماوي المحتدم غيظاً من الغضب الى الرحمة ومن صرامة الرجز الى لين الشفقة والرأفة ويسوغ لنا أن ننظر صورة هذه الأمر ومثاله في الخروف الفصحي الذي اعتاد بنو اسرائيل أن يقدموه ويأكلوه بمنزلة ذبيحة وسر ويقيناً لم يستطع مخلصنا حين أزمع أن يقدم ذاته ضحية للآب الأزلي على مذبح الصليب أن يبين لنا محبتهُ الفائقة بأجلى بيان من أن يخلف لنا ذبيحة منظورة بها تتجدد تلك الذبيحة الدموية الموشكة بعد هنيهة من الزمان أن تقرب على الصليب ولا تبرح الكنيسة تكرم ذكرها في العالم كلهِ كل يوم حتى انقضاء الدهر تكريماً بعود بوفير الفائدة لنفوسنا.

الحادي والسبعون: كيف يميز السر من الذبيحة

الفرق عظيم بين السر والذبيحة. لأن السر يتم بالتقديس أما الذبيحة فقوتها في التقدمة فطالما توجد الافخارستيا المقدسة في الحقق او تؤخذ الى المرضى فهي سر لا ذبيحة. ثم من حيث كونها سراً تأتي بعلة الاستحقاق من يتناولونها وبجميع فوائدها التي ذكرناها آنفاً. أما بما أنها ذبيحة فتحتوي قوة الاستحقاق والتكفير معاً. فكما أن السيد المسيح

(307)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

استحق لأجلنا بآلامهِ وكفر عنا كذلك من يقدمون هذه الذبيحة التي يشتركون بها معنا يستحقون أثمار آلام الرب ويكفرون.

الثاني والسبعون: متى رسمت ذبيحة العهد الجديد

ان المجمع التريدنتيني المقدس لم يدع محلاً للتردد أو الارتياب في رسم هذه الذبيحة. لأنهُ صرَّح بأن السيد المسيح رسمها في العشاء الأخير وطعن بسيف الحرم من يزعمون أن ليس ذبيحة حقيقية وبحصر المعنى تقدم لله أو ان الذبيحة ليست سوى اعطاء المسيح نفسهُ ماكلاً.

الثلث والسبعون: لا يجوز تقديم الذبيحة للقديسين

أو لخليقة أخرى

وصرح أيضاً المجمع التريدنتيني تصريحاً وفياً بأن الذبيحة تقدم لله وحده لأن الكنيسة ولو اعتادت أن تقيم القداسات أحياناً على ذكر القديسين واكرامهم مع ذلك قد علمت بأن الذبيحة لا تقدم للقديس بل لله وحده من توَّج القديسين بمجد لا يزول ولا يفنى. ولهذا ليس من عادة الكاهن أن يقول: اني أقدم لك أيها القديس بطرس أو بولس هذه الذبيحة لكنه يذبح لله وحده ويسدى لهُ الشكر على ما أنعم بهِ على القديسين الشهداء من النصر الجليل ويلتمس حمايتهم كي يتشفعوا بنا في السماء فيما نحن نكرم ذكرهم على الأرض.

الرابع والستون: من أين نقتبس هذا التعليم في ذبيحة العهد

الجديد وكهنوته

ان ما تعملهُ الكنيسة الكاثوليكية من حقيقة هذه الذبيحة قد استلمتهُ من

(308)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الرب حين سلم الرسل هذه الأسرار المقدسة في تلك الليلة الأخيرة بقولهِ: اصنعوا هذا لذكري. لأنهُ رسمهم وقتئذٍ كهنة على ما حدد المجمع المقدس وأمرهم ومن يخلفهم في الكهنوت ان يذبحوا جسده ويقدموه وقد بين هذا رسول الأمم تبييناً جلياً بما كتبهُ في رسالتهِ الى أهل قورنتية اذ يقول: لا تقدرون أن تشربوا كأس ربنا وكأس الشياطين ولا تقدرون أن تشتركوا في مائدة ربنا ومائدة الشياطين.

فكما أن المفهوم بمائدة الشياطين المذبح الذي كان يذبح عليهِ لهم هكذا أيضاً مائدة الرب بنتيجة قول الرسول لا تعني الاَّ المذبح الذي كانت تقدم عليه الذبيحة للرب.

الخامس والسبعون: أية صور ونبوات دلت في التقديم على

هذه الذبيحة

اذا استقصينا الرموز والنبوات في العهد القديم نرى أن ملاخيا النبي تنبأ على هذه الذبيحة بصريح العبارة اذ قال: من مشرق الشمس الى مغربها اسمي عظيم في الأمم وفي كل مكان تقتر وتقرب لاسمي تقدمة طاهرة لأن اسمي عظيم في الأمم بقول رب الجنود (ص 1 عـ 11) ثم سبق الأنباء عليها بهاتيك الذبائح بما أنها كمالها وختامها. على أننا نرى لها أتم تمثيل وأصرح دلالة في ذبيحة ملكيصادق لأن مخلصنا نفسهُ أعلن أنهُ أقيم كاهناً للأبد حسب رتبة ملكيصادق بتقديمهِ جسده ودمهُ تحت

(309)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

شكلي الخبز والخمر (عبرانيين ص 11 عـ 3).

السادس والسبعون: ان الذبيحة نفسها التي قدمت على

الصليب تتم في القداس

نعتقد اعتقاداً لا يخالجه ريب أن الذبيحة التي تكمل في القداس هي هي التي قدمت على الصليب وهي واحدة بعينها اى السيد المسيح الذي قدم ذاته مرةً واحدة على مذبح الصليب ذبيحة واحدة التي تتجدد كل يوم في الافخارستيسا بحسب أمر الرب القائل: اصنعوا هذا لذكري.

السابع والسبعون: ان الكاهن أيضاً واحد هو في الصليب

والقداس

الكاهن واحد أيضاً بعينهِ وهو السيد المسيح لأن يقدسون جسده ودمهُ ودليلهُ ظاهر من كلام التقديس لأن الكاهن لا يقول: هذا هو جسد المسيح بل هذا هو جسدي. أى أنهُ ينوب عن شخص المسيح الرب ويحول جوهر الخبز والخمر الى جوهر جسده ودمهُ الحقيقي.

الثامن والسبعون: القداس هو ذبيحة الحمد والتكفير معاً

فلما كان الحق كما ذكر اقتضى ان نعلم بدون أدنى تردد وريب ما صرَّح بهِ المجمع المقدس أيضاً وهو أن ذبيحة القداس ليست ذبيحة حمد وشكر فقط أو محض تذكار للذبيحة التي قدمت على الصليب بل انما هي أيضاً ذبيحة تكفير يرضى الله سبحانهُ بها ويعفو عنا ولهذا ما من

(310)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ريب في أننا اذا ذبحنا هذه الذبيحة وقدمناها بقلب طاهر وإيمان حر وتوبة حقيقية عن أثامنا ننال رحمةً من الرب ونعمةً في زمن العون لأن الرب يلتذ برائحة هذه الذبيحة ويمن علينا بالتوبة عن خطايانا ويمحوها ولهذا تتلو الكنيسة هذه الطلبة بقولها: كلما كمل تذكار هذه الذبيحة نعمل عمل خلاصنا اي أننا ننال أثمار الذبيحة الدموية الغزيرة بواسطة هذه الذبيحة الغير الدموية.

التاسع والسبعون: أثمار ذبيحة القداس تتصل أيضاً الى

المتنحيين

فعلى الرعاة أن يعلموا أن لهذه الذبيحة قوة تجدي نفعاً لا مقدمها أو متناولها فقد بل جميع المؤمنين أيضاً العائشين معنا على وجه الأرض والمتنحيين بالرب ولم يطهروا بعد تماماً من أدران زلاتهم. لأننا قد تسلمنا من تقليدات الرسل الثابتة الحقة أن ذبيحة القداس تفيد الموتى المشار اليهم كما تفيد الأحياء غفراناً لأثامهم ونجاةً من العقوبات وتكفيراً عن الزلات وصيانةً من كل نوع من الشدائد والملمات.

الثمانون: ما من قداس يقدم بحسب استعمال الكنيسة العام

يعد خصوصياً

يتضح بدون عناء مما ورد أن جميع القداسات تعد عمومية بما أنها تعود لفائدة جميع المؤمنين وخلاصهم.

الحادي والثمانون: الى ما تأول احتمالات هذه الذبيحة

ان لهذه الذبيحة رتباً واحتفالات جليلة لا يعد منها شيء حشواً وبدون

(311)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

طائل وكلها تعود الى تبيين عظمة هذه الذبيحة بأجلى بيان واغرآ المؤمنين بتأمل الأمور الإلهية المحتجبة تحت طي القداس الإلهي انما لا يسعنا المقام ان نسهب الكلام في هذا الصدد لأن هذا الموضوع يستلزم شرحاً طويلاً يتجاوز حدود الغرض من وضع هذا الكتاب ثم لأن الكهنة يعتبرون بسهولة على ما يكاد لا يحصى من كتيبات وتفاسير وضعها العلماء الأفاضل في هذا المبحث فقد انتهينا اذن بحولهِ تعالى من ابراد الفصول الوافية في سر الافخارستيا من حيث أنها سر ومن حيث أنها ذبيحة.

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الفصل الخامس

"في سر التوبة"

أولاً ينبغي على الرعاة أن يبذلوا جهداً جهيداً غير منقطع في أن يكرووا كثيراً على مسامع المؤمنين تعليم سر التوبة

كما أن الجميع عالمون ما للطبيعة البشرية من الضعف والوهن وكلاً يختبره في ذاته هكذا ما من أحد يجهل ما لسر التوبة من شديد اللزوم. فإذا وجب أن تقيس الاجتهاد الذي يبذلهُ الرعاة في بيان كا مادة من مواد التعليم على عظمة أهمية الشيء الذي يتكلون عليهِ لزمنا أن نعترف

(312)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

صريحاً انهم لا يفون أبداً حق الاعتناء تماماً في شرحهم مسئلة سر التوبة. فمن الواجب أيضاً أن يبذلوا في بيان هذا السر اعتناءَ أعظم مما يبذلونهُ في شرح سر العماد لأن العماد يمنح مرة ولا يتكرر أما سر التوبة فيتهيأ منحهُ بل يجب تكريره كلما عرض لنا أن نخطئ بعد العماد هكذا قال المجمع التريدنتيني: ان سر التوبة لازم للخلاص لمن سقطوا في الخطية بعد العماد لزوم العماد لمن لم يعمدوا بعد وقد أثبت هذه الحقيقة جميع من سلمونا الأمور الإلهية نقلاً عن قول القديس ايرونيموس الشهير في تفسيره نبوة اشعيا في الفصل الثالث من كتابه حيث يقول: ان التوبة هي الدفة الثانية. فكما أن السفينة اذا تحطمت لا تبقى وسيلة لنجاة راكبيها من الغرق الاَّ الاستمساك بخشية من أخشابها هذا في ان فقدنا سر العماد لا يبقَ لنا الاَّ أن نلجأ الى دفة التوبة والا ايسنا من الخلاص لا محالة وقد ورد هذاالكلام لا لاحثاث الرعاة فقط بل المؤمنين أيضاً حذراً من أن يواخذوا على التهاون في مثل هذا الأمر اللازم أشد اللزوم. فإذ يتذكرون أولاً الضعف الشامل عموم البشر يجب أن يتوقوا من كل قلوبهم الى أن يسلكوا بعون الله في طريق الرب بدون عثرة. واما اذا عثروا حيناً ما فعليهم أن يلجأوا الى رحمة الله الفائقة الذي بما أنهُ الراعي الصالح يضمد جراح خرافهِ ويداويها ولا يتأخروا أبداً عن تناول دواء التوبة الشافي.

ثانياً: ان لفظة التوبة يعبر بها عن معاني شتى

قبل أن ندخل في هذا البحث يلزمنا أن نبين قوة ودلالة هذا الأسم

(313)

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

المختلسة حذراً من أن يهوى أحد من مهاوي الضلال بالتباس اللفظة كما قال القديس امبروسيوس في الفصل التاسع من كتابهِ الثاني عن التوبة لأن البعض يفهمون التوبة بمعنى التكفير وغيرهم يبتعدون عن تعليم الإيمان مراحل بتوهمهم ان التوبة ليس لها أدنى علاقة بالزمن الماضي ويحكمون بأنها حياة جديدة لا غير. أما نحن فنقول ان لهذا الاسم معاني كثيرة أولها تغير الانسان الذي يبدأ أن يكره شيئاً كان قبلاً حسن بعينهِ بدون التفات الى ما يكون فيهِ من الشر أو الخير.

هكذا يتوب جميع الذين يكمن حزنهم حسب العالن لا لأجل الله. فمثل هذه لا تقبل بهم الى الخلاص بل الى الموت (قورنتية 2 ص 7 عـ 10) والثاني توجع الإنسان على اثم ارتكبه وكان قبلاً رضي بهِ لاحباً بالله بل بنفسهِ والثالث أن يتوجع الإنسان باطناً أو يبرز أيضاً علاقة خارجة لتوجعه لا من الاثم الذي اقترفه فقط بل إنما يحزن لأجل الله فيطلق معنى التوبة حقيقة على كل من هذه الأنواع التي ذكرناها. أما ما نقرأه في الأسفار الإلهية من أن الله سبحانهُ ندم أو تاب فينبغي فهمهُ من باب الاستعارة كما لا يخفى لأن الكتاب المقدس يستعمل نوع هذا التكلم جرياً على عادة البشر حين يعلن أن الله رسم أن يغير شيئاً اذ يرى أنهُ يفعل مثل البشر الذين اذا ندموا على شيء يصرفون كل جهدهم في تغييره فعلى هذا النحو كتب ان الله ندم على خلقته الإنسان (تكوين ص 6 عـ 6) وفي محل آخر: ندم على اقامتهِ شاول ملكاً (ملوك 1 ص 15 عـ 11).

(314)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثالثاً: ما الفرق بين معاني التوبة

ينبغي أن نعلم أن الفرق عظيم بين معاني التوبة هذه. لأن التوبة الأولى يجب نظمها في سلك الرذائل والثانية هي حركة صادرة عن سجس العقل واضطرابهِ وأما الثالثة فتختص بالفضيلة وتدعى سراً ومعناها هو المقصود في هذا المقام. فأولاً نأخذ في الكلام عليها باعتبار كونها فضيلة بل لأن الرعاة يلزمهم أن يدربوا المؤمنين على كل نوع من الفضيلة فقط بل لأن أعمال هذه الفضيلة أيضاً هي بمنزلة مادة يدور عليها سر التوبة: فإن لم نتدبر أولاً فضيلة التوبة جهلنا لا محالة قوة السر.

رابعاً: ما هي التوبة الباطنية

من الواجب أن ننبه المؤمنين ونحضهم على أن يبذلوا غاية جهدهم للحصول على التوبة الباطنية التي نسميها فضيلة اذ بدونها قلما تفيد التوبة الخارجة. فالتوبة الباطنية هي التي نرجع بها الى الله من صميم فؤادنا ونبغض ونمقت ما اقترفناه من الآثام ونعزم عزماً وثيقاً أن نصلح سيرتنا السيئة وآدابنا الفاسدة مع اعتصامنا برجا نوال الغفران من رحمتهِ تعالى فينبع هذه التوبة التوجع والحزن (الذي يسميه كثيرون قلقاً وتأثراً) بمنزلة مرافق لمقت الخطايا فبناءَ عليهِ قد عرف كثيرون من الآباء القديسين التوبة بتوجع القلب وانسحاقهِ.

خامساً: ليس الإيمان فرعاً من التوبة

من اللازم أن يتقدم الإيمان التوبة في من يتوب لأنه ما من أحد يستطيع

(315)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ان يرجع الى الله وليس فيهِ إيمان فينتج من ثم أن الإيمان لا يمكن أن يكون بنوع من الأنواع قسماً من التوبة.

سادساً: ان توبة القلب الباطنية تعد فضيلة

ان ما ورد من الوصايا المتعلقة بالتوبة يدل على أن هذه التوبة الباطنية تنظم في سلك الفضائل لأن الشريعة تأمر بتلك الأعمال فقط التي تباشر مع الفضيلة. ثم ما من أحد ينكر أن التوجع بوقته وكيفيته ومقداره من متعلقات الفضيلة وهي تقضي بصحتهِ وكفاتهِ لأنهُ قد يتفق أحياناً أن البشر يتوجعون على ما اقترفوه من الآثام توجعاً قاصراً عن المطلوب لا بل أن سليمان الحكيم قال ان البعض يسرّون بما عملوه من الشر (أمثال ص 2 عـ 4) ومنهم بالعكس يغالون في التوجع والحزن على اثمهم الى حد أنهم يقنطون من الخلاص ولعل ذلك جرى لقاين الذين قال: ذنبي أعظم من أن يغفر (تكوين ص 4 عـ 13) وتأكد عن يهوذا الدافع أن هذه التوبة كانت توبتهُ اذ لفرط حزنِهِ شنق ذاته ومات هالكاً. فعلينا أن نستعين بفضيلة التوبة كي نستطيع أن نقف على حد الاعتدال من التوجع.

سابعاً: كيف ينبغي أن يكون استعداد من يتوب توبة صادقة

وقولنا السابق يتبين أيضاً مما يقصد أن يصنعهُ من يتوب توبة صادقة فإنه يقصد أولاً وخاصةً أن يمحق الإثم ويرحض نفسهُ من كل دنس وخطية. ثانياً: أن يكفر لله عما اقترفهُ من الخطايا. اذ من المحقق أن العدل يستلزم التكفير. وان لم تكن علاقة عدل بالحصر بين الله

(316)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

والإنسان لفرط التفاوت بينها مع ذلك لا يخلو العدل بالكلية بينهما كما لا يخلو مثلهُ بين الآب وأولاده وبين المولى وعبده. ثالثاً أن يعود الإنسان الى رضا الله الذي أغاظه واسخطه بشناعة خطيتهِ. فكل هذه تدل دلالة وافية على أن التوبة تختص بالفضيلة.

ثامناً: بأية درجات نرقى الى معالى فضيلة التوبة الإلهية

وينبغي أن يعلم الرعاة أيضاً بأية درجات يتيسر لنا أن نرقى في مدارج هذه الفضيلة الإلهية فإن رحمة الله أولاً تتداركنا وتحوّل قلوبنا إليهِ وقد أبان ذلك أشعيا النبي بقولهِ: ردنا يا رب اليك فتريد. كما أثبت المجمع التريدنتيني في الفصل السادس من الجلسة السادسة وهذه هي الدرجة الأولى من سلم التوبة وهي تدارك الرحمة الإلهية والدرجة الثانية هي نور الإيمان الذي بهِ تستنير قلوبنا وتتجه إليهِ تعالى لأن الرسول يقول: ينبغي على من يتقرب لله أن يؤمن أنهُ كائن وأنهُ يجزل الثواب لمن يطلبونهُ (عبرانيين ص 11 عـ 6).

الدرجة الثالثة حركة الخوف الآتية على أثر الإيمان فإن النفس ترتد

عن الخطايا من تأملها العذابات القادحة المعدة للمصرين على آثامهم. ولعل أشعيا النبي عبر عن هذا المعنى بقوله: كمثل المتمخضة اذا قاربت الولادة تتضور في مخاضها هكذا كنا أمامك يارب (ص 26 عـ 17)

والدرجة الرابعة الرجا بنوال رحمة من الله ننتعش بها وتقوم سيرتنا

ونحسن خصالنا والدرجة الخامسة هي المحبة التي تضطرم قلوبنا بسعيرها ومنها يتلد ذلك الخوف المستفيض الجدير بالبنين

(317)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الصالحين الفاضلين فلا يرهبون شيئاً آخر الا أن يهينوا جلال الله فمن ثم يقلعون بالكلية عن عادة الإثم. فهذه درجات يترقى بها الإنسان الى فضيلة التوبة الجليل قدرها.

تاسعاً: ما هي ثمرة فضيلة التوبة بوجه الخصوص

ان فضيلة التوبة تعتبر حقيقة سماوية والهية لأن صاحبها وعد بملكوت السماء ودليله مما ورد في بشارة متى (ص 7 عـ 22): توبوا فقد اقترب ملكوت السماوات. وفي نبوة حزقيال. قل لهم حيٌ أنا يقول الرب ليست مرضاتي بموت المنافق لكن بتوبة المنافق عن طريقه فيحيا (ص 22 عـ 11) وفي محل آخر. لا أريد موت المنافق بل أن يرجع عن طريقه ويحيَ. فمن المحقق أن المفهوم بالحياة هنا الحياة الأبدية السعيدة.

عاشراً: ما الحكم بالتوبة الخارجة ولأي سبب نظمها المسيح

في سلك الأسرار

يجب على الرعاة أن يعلموا أن التوبة الخارجة هي التي تقوم فيها نوعية السر وتحوى بعض أشياء واقعة تحت الحواس يعبر بها عما يجري باطناً في النفس. فينبغي أولاً أن نبين للمؤمنين وجه احصا المسيح اياها بين عداد الأسرار فبلا شك كان السبب الداعي لذلك مغفرة خطايانا التي وعدنا الله بها سبحانه بقولهِ: اذا تاب المنافق عن اثمه الى فلا بد للإنسان الخاطي أن يقف متردداً بين الشك واليقين في التوبة الباطنة اذ بحق يخشى الخطأ بحكمهِ في ما يعمله. فإذن كي يتلافى ربنا هذا المحذور رسم سر التوبة الذي بهِ نتيقن أن خطايانا قد غفرت بحلة الكاهن وترتاح ضمائرنا مطمئنة بالإيمان

(318)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الواجب أن يكون لنا بقوة الأسرار. لأن صوت الكاهن التارك خطايانا ينبغي أن نتخذه بمنزلة صوت المسيح نفسهِ الذي قال للمخلع: ثق يا ابني مغفورة لك خطاياك (متى ص 9 عـ 2) ثم لما لم يكن لأحد سبيل الى نوال الخلاص الاَّ بالمسيح وباستحقاق الامه كان من أوفق الأمور وانفعها لنا أن يرسم مثل هذا السر الذي بقوتهِ وفاعليته يجري علينا دم المسيح ويغلسنا من خطايانا التي فعلناها بعد العماد وهكذا نعترف بأن احسان المصالحة الذي نلناه قد أوتيناه من مخلصنا يسوع المسيح وحده.

الحادي عشر: كيف تكون التوبة سراً من أسرار الشريعة

الجديدة

لا يصعب على الرعاة أن يبينوا أن التوبة سر فكما أن العماد سر لأنه يمحو الخطايا لاسيما الخطية الأصلية فلهذا السبب نفسه يقال بحق أن التوبة سر لأنها تمحو الخطايا التى اقترفناها بارادتنا أو بفعلنا بعد العماد. ثم ان البرهان الأقوى على كونها سراً هو أن ما يعمله التائب ظاهراً وما يعمله الكاهن يدل على ما يجري في النفس باطناً ذلك دليل قاطع على احتوائها نوعية السر حقيقة لأن السر هو علامة شيء مقدس فإن الخاطي الذي يتوب يعبر بكلامه وفعله تعبيراً جلياً عن أنهُ ندم ورد نفسه عن الإثم ثم ما يعمله الكاهن ويقوله يعلن لنا رحمة الله الغافر تلك الخطايا وهذا ظاهر بديهياً من قول المخلص نفسه: اياك أعطي مفاتيح ملكوت السماوات فمهما حللته على الأرض يكون محلولاً في السما (متى ص 16 عـ 19) لأن حلة الكاهن الواردة بالألفاظ تدل على غفران الخطايا المفعول في النفس.

(319)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الثاني عشر: ان سر التوبة يمكن تكراره

ينبغي أن نعلم المؤمنين أن التوبة ليست من سلك الأسرار فقط بل انها أيضاً من الأسرار التي يمكن تكرارها لأن الرب لما سأله بطرس كم مرة يغفر لمن أخطأ هل الى سبع مرات أجابهُ لا أقول لك الى سبع مرات بل الى سبعين مرة سبع مرات (متى ص 18 عـ 22) ولهذا اذا تحدث الرعاة مع أناس يستبين أنهم لا يثقون بجودة الله ورأفتهِ ينبغي أن يشددوا عزائِهم قلوبهم ويوطدوهم على أركان الرجاء بالنعمة الاهلية ويسهل عليهم بلوغ هذا المأرب استماعهم الآية المذكورة آنفاً وغيرها من النصوص الكثيرة الواردة في الأسفار الإلهية بهذا المعنى ثم بالبراهين والحجج التي يعثرون عليها في كتب الآباء القديسين ولاسيما في كتاب مار يوحنا الذهبي الفم عن الساقطين وكتب القديس امبروسيوس في التوبة.

الثالث عشر: في ماهية مادة التوبة وكيفيتها

ما من شيء ينبغي أن يعرفه الشعب المؤمن أجل معرفة من مادة هذا السر ومن ثم يجب أن يعلم الرعاة أن هذا السر يختلف عن غيره خاصة في كون مادة باقي الأسرار شيئاً طبيعياً أو صناعياً أما في سر التوبة فأفعال التائب أي الندامة والإقرار والتكفير هي كمادة لهُ كما قرر المجمع التريدنتيني في الجلسة ال 15 في التوبة فصل 5 القانون الرابع. بما انها مطلوبة من قبل الرسم الإلهي في التائب لكمال السر ولنوال مغفرة الخطايا بالكمال والتمام ومن هذا القبيل يقال انها أجزاء السر والمجمع التريدنتيني يسمي هذه الأفعال

(320)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

كمادة التوبة لا لكونها ليست مادة حقيقية بل لكونها ليست من نوع المواد التي تستعمل في الخارج كالماء في العماد والميرون في التثبيت وأما قول البعض ان الخطايا نفسها هي مادة السر فاذا أمعنا النظر رأينا أنهً لا يفرق عن قولنا نفسهِ فكما أن الحطب مادة النار لأنهُ يفتي بقوة النار هكذا يمكن أن نسمي الخطايا التي تمحي بالتوبة مادة لهذا السر.

الرابع عشر: ما هي صورة سر التوبة

ولا يهمبنّ الرعاة ايضاح صورة هذا السر لأن معرفتها مما يحرك قلوب المؤمنين على نوال نعمة هذا السر بمزيد العبادة والخشوع. فهذه هي الصورة: أنا أحللك: وهي مستفادة لا من كلام السيد المسيح فقط وهو مهما حللتموه على الأرض يكون محلولاً في السماء بل من تعليم المخلص نفسهِ المتصل الينا من الرسل لأن الأسرار تدل على ما تفعله وهذه الألفاظ: أنا أحللك : تعبر عن غفران الخطايا الصادر عن منح هذا السر فتبين جلياً أن هذه هي الصورة الكاملة لسر التوبة. لأن الخطايا هي بمنزلة قيود تتغلل بها النفوس وتنحل منها بسر التوبة وهذا يتم حقيقة أيضاً في الحلة التي يمنحها الكاهن لمن كان قبلاً نال غفران خطاياه من الله بقوة الندامة الشديدة مع الشوق الى الاعتراف فمثله مثل مجرم يصفح الملك عن ذنبهِ بسلطانهِ أولاً ثم يصفح لهُ خادم العدل تنفيذاً لأمر الملك.

(321)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الخامس عشر: ما الفائدة من اضافة ابتهالات أخرى الى

صورة السر

يضاف أيضاً ابتهالات كثيرة لا لأنها لازمة للصورة بل لدفع ما لفعله يعيق قوة السر وفاعليته بذنب من يقبله.

السادس عشر: في الفرق الكبير بين سلطان كهنة المسيح في

الحكم على برص الخطية وبين سلطان كهنة الشريعة العتيقة

ما أكثر ما ينبغي على الخطاة من أسداء الشكر لله سبحانهُ على تخويله الكهنة في الكنيسة مثل هذا السلطان العظيم فإن كهنة العهد القديم كانوا يشهدون شهادة فقط بشفاء أحد من البرص أما الكهنة في العهد الجديد فقد خولوا سلطاناً لا على أن يقرروا بكون الإنسان محلولاً من خطاياه فقط بل انهم يحلون فعلاً وحقيقةً من الخطايا لكونهم خدام الله وذلك يفعله الله سبحانهُ بعينهِ وليَّ النعمة والبر ومبدأهما (مزمور 83 عـ 12)

(ورومية ص 8 عـ 23) كما أثبت المجمع التريدنتيني في الفصل 6 جلسة 14).

السابع عشر: بأي تأهب وطقوس ينبغي على التائبين أن

يتقدموا الى هذا السر

يجب على المؤمنين أن يراعوا بتدقيق الطقوس التي تجري أيضاً في هذا السر لأن ذلك مما يرسخ في نفوسهم النعم التي ينالونها من هذا السر.

اى مصالحتهم مع الله كعبيد مع مولاهم الكلي الرأفة أو بالحري كأبناء مع أبيهم الكلي الصلاح والجودة وييسر لهم ادراك ما ينبغي

(322)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الله عليهم ان يعملوه ليبدوا من نفوسهم أنهم متذكرون هذا الإحسان العظيم وشاكرون عليهِ (وذلك فرض على الجميع) لأن من يتوب عن خطاياه يجب أن يخر أمام الكاهن متذللاً خاشعاً لكيما اذا تواضع يقتلع من نفسهِ جرثومة الكبرياء التي هي مصدر جميع الآثام وينبوعها ويحترم في الكاهن الجالس قاضياً شرعياً لمحاكمتهِ شخص المسيح الرب وسلطانهُ فكما أن الكاهن في منحه باقي الأسرار يقوم مقام المسيح ويتمم وظيفتهُ كذلك في سر التوبة ثم يعترف (التائب) بخطاياه اعتراف من يقر أنهُ يستحق لأجلها أشد التونيب وأمر العقاب ويتوسل ملتمساً غفران آثامه وجميع ما ذكرناه قديم الاستعمال في الكنيسة كما يشهد القديس ديونيسيوس أسقف أتينا في رسالته الى ديموفليانوس.

الثامن عشر: ما هي الفوائد التي يجنيها الناس على وجه

الخصوص من سر التوبة

ما من شيء يفيد المؤمنين أعظم فائدة ولا يجيدهم أوفر سلوى وسرور من أن الخوارنة يسهبون لهم الشرح في الفوائد التي يقتبسونها من التوبة لأنهم يعلقون حينئذٍ أن عروقها مرة أما اثمارها فعذبة للغاية لأن قوة التوبة قائمة في أنها تصالحنا مع الله وتعصمنا معهُ بمحبة لا توصف. وقد يعقب عادة هذه المصالحة مع الله وتعصمنا معهُ بمحبة لا توصف. وقد يعقب عادة هذه المصالحة مع الله سلامة وراحة للضمير تفوق العقل وسرور للروح لا يقدر في أولئك الأنام الفضلاء الذين يقبلون هذا السر مرة واثنتين ومراراً. هكذا قال الرب بلسان نبيه حزقيال في هذا الصدد. والمنافق اذا تاب عن جميع خطاياه التي صنعها وحفظ جميع رسومي وأجرى الحكم والعدل فإنهُ يحيى حياةً

(323)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ولا يموت: جميع معاصيه التي صنعها لا تذكر لهُ (ص 18 عـ 20 و21) ومار يوحنا الرسول يقول: وان اعترفنا بخطايانا فهو أمين عادل فيغفر لنا خطايانا ويطهرنا من كل اثم (1 يوحنا ص 1 عـ 9) وبُعيد ذلك: ان أخطأ أحدكم (لاحظ أنهُ لا يستثني نوعاً من أنواع الخطايا) فلنا شفيع عند الآب يسوع المسيح البار وهو كفارة عن خطايانا وليس عن خطايانا فقط بل عن خطايا العالم كله أيضاً (ص 2 عـ 1 و 2).

التاسع عشر: بأي معنى يُقال أن بعض الخطايا لا تغفر

أمَّا ما نقرأه في الأسفار الإلهية من أن بعض الناس لم ينالوا رحمة من الرب مع كونهم التمسوها من صميم قلوبهم فيفهم أن ذلك قد جرى لأنهم لم يتوبوا عن خطاياهم توبة حقة من كل قلبهم. كما وقع لانتيوخوس (مكابين ص 9 عـ 13) وللعيس (عبرانيين ص 12 عـ 17) ولشاول (1 ملوك ص 15) فاذا عثرنا على مثل هذا القول في الكتاب المقدس أو في كتب الآباء القديسين الذين يظهر من كلامهم أن بعض الخطايا لا تغفر ينبغي أن تناولها بمعنى أن الحصول على مغفرتها مستصعب من قبل عدم التوبة أو ضعفها. وقد أشار الرب الى مثل هذه الخطايا بقولهِ في بشارة متى: من أجل هذا أقول لكم ان كل خطية وتجديف يغفر للناس ولكن التجديف على الروح القدس لا يغفر. وكل من يقول قولاً في ابن الانسان يغفر لهُ وأما الذي يجدّف على الروح القدس فلا يغفر لهُ لا في هذا الدهر ولا في الآتي (ص 12 عـ 31 و 32). فكما يقال أن بعض

(324)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الأمراض غير قابلة الشفاء من كون المريض يكره العلاج الشافي هكذا بعض الخطايا لا تغفر لسبب أن الخاطئ ينبذ نعمة الله وهي العلاج الخصوصي للخلاص. وقال هذا القول القديس اغوسطينوس في عظتهِ بكلام الرب: قد عظم دنس تلك الخطية حتى أن الخاطئ بعد أن عرف الله بنعمة المسيح يقاوم مؤاخاة المسيح ويصاده هذه النعمة عينها بثوران التصلُّف حتى يتعذَّر عليهِ التنازل الى التماس الغفران ولو الجأَه ضميره الشرير الى معرفة خطيتهِ واعلانها. (51)

العشرون: ما من أحد يستطيع أن ينال الغفران بغير التوبة

فلنرجعنَّ الى التوبة ونقول أن قوتها قد خُصَّت بمغفرة الخطايا بحيث لا يمكن بدونها على الاطلاق نوال الغفران ولا الرجاء بنوالهِ.

لأنهُ قيل: ان لم تتوبوا تهلكوا جميعكم كذلك (لوقا ص 13 عـ 3)

فهذا قالهُ الرب في الخطايا الكبيرة المميتة: ولو أن الخطايا الخفيفة المعروفة بالعرضية تحتاج الى نوع من التوبة لأن القديس اغوسطينوس يقول: لو كانت الخطايا العرضية تغفر بلا توبة لكانت التوبة الجارية كل يوم في الكنيسة على الخطايا العرضية تذهي سدّى. (في كتابهِ الخامس في الفصل الثامن من مقالتهِ الخمسين) على أنها (أي الخطايا العرضية) لا تقتضي ضرورة التوبة السرية. وهذا القول للقديس توما اللاهوتي وهو المعوَّل عليهِ باتفاق الكلمة في الكنيسة.

(325)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الحادي والعشرون: كم هي أجزاء التوبة المعروفة بالأجزاء

المكملة لا يكفي أن نتكلم بوجه العموم في الأشياء العملية كالتوبة بل على الرعاة أن يعتنوا أن يبينوا بالتفصيل كلاً من تلك الأشياء التي بها يستطيع المؤمنون سبيلاً الى ادراك نوعية هذا السر الخلاصي فما عدا المادة والصورة المشتركة فيهما جميع الأسرار قد خصَّ هذا السر كما يتقدّم القول بأن يكون لهُ أجزاء يقوم بها كمال التوبة وتمامها وهي الندامة والاعتراف والوفاء وقد عبر عنها مار يوحنا الذهبي الفم بهذا الكلام: ان التوبة تقضي على الخاطئ بأن يحتمل كل شيء بطيبة القلب والخاطر وان يكون في قلبهِ الندامة وفي فمهِ الاعتراف وفي كل عملهِ الاتضاع والوفاء المثمر.

وفي هذا المعنى صرَّح مار يوحنا المعمدان بقولهِ: اعملوا الآن ثمرة تليق بالتوبة والمجمع التريدنتيني في الجلسة 14 من سر التوبة في الفصل 3 من القانون 4. ومثلهُ المجمع الفلورنتيني في تعليم الأسرار. ومثلهُ مار توما اللاهوتي في الجزء 3 في السؤال 87 حيث يقول: لسر التوبة ثلاثة أجزاء مكملة اذا نقص أحدها لا تكون التوبة كاملة. وقد أشار الى ذلك النبي داود بقولهِ. القلب المنسحق المنكسر لا ترذلهُ يا الله (مزمور 50 عـ 19) وفي الابركسيس (ص 19 عـ 18) فتُعد هذه الأجزاء بين تلك التي تستلزم لإقامة الكلية في واحد فكما أن جسد الإنسان القائِم بأعضاء كثيرة باليدين والرجلين والعينين وغيرها من الأجزاء يعدُّ غير كامل اذا نقص أحدها وبالعكس يعتبر كاملاً اذا لم ينقصها شيء منها كذلك التوبة القائمة بهذه الأجزاء ولو أن الندامة والاعتراف يختصان بجوهرها ويكفيان لصيرورة الإنسان باراً مع ذلك ان لم يُضف اليهما الجزء الثالث أي الوفاء من الضرورة ان يخيسها

(326)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

شيء لكمالها. ولهذا قد ارتبطت هذه الأجزاء بعضها ببعض ارتباطاً يقضي بأن الندامة تتضمن القصد والعزم على الاقرار والوفاء وان الندامة وقصد الوفاء يتقدمان الاقرار والندامة يتقدمان الوفاء.

الثاني والعشرون: كيف تجتمع هذه الأجزاء الثلاثة في التوبة

لنا أن نورد البرهان الآتي على اجتماع هذه الأجزاء في التوبة. وهو بما أننا اقترفنا الاثم ضد الله بالكفر والقول والفعل. كان من الحق أن تخضع ذاتنا لسلطان مفاتيح الكنيسة في تلك الأشياء التى اهنّا بها اسم الله القدوس وبها عينها نسعى جهدنا في تسكين غضبهِ ونوال الصفح منهُ عن خطايانا ثم عندنا برهان آخر على اثبات هذا القول وذلك ان التوبة هي بمنزلة وفاء عن الخطايا صادر عن إرادة من اقترف الاثم ومفروض بأمر الله سبحانهُ الذي اقترف الاثم ضدّه. فلما كانت من وجه تطلب ارادة الوفاء الذي عليهِ خاصة مدار الندامة ومن وجه أخر يلزم أن التائب يخضع لحكم الكاهن القائم مقام الله كي يقدر أن يفرض عليهِ القصاص بنسبة جسامة أثامهِ أو خفتها تبين جلياً لزوم الاعتراف والوفاء وكيفتهما.

الثالث والعشرون: ما هي الندامة على وجه الخصوص في مادة

سر التوبة

لما كان ينبغي أن نبين للمؤمنين قوة هذه الأجزاء اقتضى الأمر أن نبتدئ بالندامة ونشرحها شرحاً مدققاً. اذ يجب أن لا يخلو قلبنا من الندامة كل مرة يخطر على بالنا ذكر خطايانا الماضية أو حين نغيظ الله ثانية باقترافنا الإثم. فالآباء حددوا الندامة في المجمع التريدنتيني بكونها توجع القلب ومقت الخطية المرتكبة مع القصد

(327)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

بعدم الرجوع اليها فيما بعد. وبُعيدَ ذلك قد قالوا في حركة الندامة: أنها تُعد النفس الى قبول الغفران اذا اقترنت بالاتكال على رحمتهِ تعالى وبالشوق الى أداء باقي ما يطلب لقبول هذا السر كما يجب. فيفهم المؤمنون من هذا التحديد ان قوة الندامة لا تقوم في أن الخاطئ يكف عن الخطأ فقط أو يقصد أن ينهج لنفسهِ منهج سيرة جديد أو أن يسير سيرة جديدة فعلاً بل خاصة وأولاً أن يبغض سيرته الرديئة الماضية ويفي عنها وهذا ما تثبتهُ صريحاً أقوال أولئك الآباء القديسين الواردة غير مرة في الأسفار الإلهية منهم داود النبي وهو يقول: قد أعييتُ في زفيري. في كل ليلة أغمر سريري بدموعي واميع بها فراشي (مزمور 6 عـ 7). وفي محل آخر: قد سمع الرب صوت بكائي (مزمور 5 عـ 6). وفي محل آخر: اهذّ جميع سنيّ بمرارة نفسي (مزمور 38 عـ 15). فلا شك أن مثل هذا الكلام عبارة عن مقت السيرة الماضية والبغض للخطايا.

الرابع والعشرون: لماذا سمَّى آباء المجمع الندامة توجعاً

من حيث أن آباء المجمع قد عرّفوا الندامة بكونها توجعاً ينبغي أن ننّبه المؤمنين أن لا يتوهموا أن المقصود هنا توجع الجسد حسياً بل توجع القلب لأن الندامة هي فعل القلب وشهد القديس اغوسطينوس ان التوجع رفيق التوبة لا التوبة نفسها. أما الآباء فعبّروا عن بغض الخطية ومقتها بلفظة توجّع لسبب أن الكتاب المقدس يستعمل هذه العبارة بهذا المعنى لأن داود النبي يقول: الى متى اردّد مشورات في نفسي ووجعاً في قلبي النهار كله (مزمور 12 عـ 3)

(328)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثم لأن التوجع يصدر عن الندامة في جزء النفس الأدنى الذي يحتوي قوة الشهوة. فكان اذن من الصواب أن تُعرف الندامة بالتوجُّع لأنها تنشئ التوجع وقد اعتاد التائبون أن يبذلوا أيضاً لبوسهم اعلاناً لتوجعهم. قال الرب يسوع في ذلك: الويل لك يا كورزين الويل لك يا بيت صيدا لأن القوات التي كنَّ فيكما لو كنَّ في صور وصيدا لتابتا قديماً بالمسوح والرماد (متى ص 11 عـ 21). ولما تاب أخاب ملك اسرائيل عن شره مزق ثيابُهُ ولبس مسحاً على جسدهِ وصام واضجع على المسح.

الخامس والعشرون: لماذا يسمّي اللاهوتيون مقت الخطية انسحاقاً

قد أصاب اللاهوتيون باطلاقهم اسم انسحاق على مقت الخطية دلالةً على قوة التوجع متخذين لذلك شبهاً من الأشياء الجسدية التي تسحق فناناً بحجر أو بمادة أخرى صلبة لكيما يعبروا بهذه اللفظة عن أن قلوبنا المتصلبة بالكبرياء تفتت وتسحق بقوة التوبة ولهذا ما من توجع آخر صادر إما عن موت الاخوة والبنين أو الوالدين أو عن طروء داهية من الدواهي الدهياء يدعى بهذا الاسم بل أنهُ مخصوص فقط بالتوجع الذي نشعر بهِ لفقدنا نعمة الله والبرارة.

السادس والعشرون: بأية ألفاظ قد عبّروا أيضاً عن مقت الخطية

قد اصطلحوا أيضاً على التعبير عن هذا المقت نفسه بألفاظ أخرى فيسمونهُ ندامة القلب لأن الكتاب المقدس كثيراً ما يستعمل اسم القلب بدلاً عن الارادة (تكوين ص 6 عـ 6) (وأيوب ص 1 عـ 5). فكما أن مبدأ حركات الجسد يؤخذ من القلب هكذا الارادة تدبر و

(329)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ترشد جميع قوى النفس. وقد دعا الآباء القديسون شق القلب أيضاً وجعلوا عنوان الكتب التي حرَّروها في الندامة: شق النفس أو القلب.

كالقديس يوحنا الذهبي فمه والقديس ايسيدوروس فكما أن القروح المندملة تشقّ بالمشرط ليُستنزف ما فيها من الصديد هكذا القلوب كانها تبضع الندامة ليخرج منها اسم الخطية الذعاف ولهذا قد سمَّاه النبي يوائل تمزق القلب اذ قال: توبوا اليَّ بكل قلوبكم وبالصوم وبالبكاء والانتحاب مزَّقوا قلوبكم لا ثيابكم (ص 2 عـ 12 و 13).

السابع والعشرون: لماذا ينبغي أن التوجع على الخطايا المعبر عنهُ

بلفظة ندامة يكون عظيماً وشديداً للغاية

اننا نبين بالحجج الآتية أن التوجع على الخطايا المفعولة يجب أن يكون شديداً حتى لا يمكن تصور أشد منه. أولاً لما كانت الندامة الماكلة فعلاً من أفعال المحبة الصادرة عن الخوف المعروف بخوف البنين (يوحنا 1 ص 4 عـ 18) تبين أنهُ من الواجب أن يؤخذ مقياس واحد بعينهِ للمحبة والندامة والحال أن المحبة التي بها تحب الله هي كاملة للغاية فالندامة اذن تشتمل على توجع قلب شديد للغاية فحيث يجب علينا أن نحب الله محبة فائقة يلزمنا أيضاً أن نبغض ما يبعدنا عنهُ أشد بغض. ولا بدَّ لنا هنا أن نعتبر ما ورد في الأسفار الإلهية من الكلام المعبر بهِ عن عظم المحبة والندامة فقيل في المحبة: حبّ الرب الهك من كل قلبك (تثنية الاشتراع ص 6 عـ 5) ونظراً الى الندامة نادى الرب بلسان نبيه يوائل: توبوا من كل قلبكم (ص 6 عـ 5) ثانياً كما أن الله سبحانهُ هو

(330)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الخير الأعظم بين جميع الخيرات المحبوبة هكذا الخطية هي الشر الأكبر بين جميع الشرورالتي يجب على الناس أن يبغضوها. فينتج من ثمَّ أن السبب الذي يحملنا على أن نحب الله أعظم محبة يبعثنا هو بعينه أيضاً على جميع الأشياء تفضيلاً لا يسوغ لنا أن نرتكب الخطية حتى ولا لأجل حفظ حياتنا من التهلكة.

وهذا ما يعلمناه ربنا بصريح العبارة قائلاً: من يحب أباً وأماً أكثر مني فلا يستحقني (متى ص 10 عـ 26) علينا أن نعتبر أيضاً أن بغض الخطية يجب أن يتجاوز كل حدّ وقياس كما أن المحبة على ما شهد القديس برنردس لا يحيزها تخم ولا يحصرها قياس (لأن قياس محبة الله هو أن يحب بدون قياس) ثم يجب أن تكون الندامة عظيمة جداً بل شديدة للغاية وكاملة كمالاً ينفي كل كسل وتراخٍ. فقد ورد في الكتاب المقدس: وتطلب من ثم الرب الهك فتجده اذا التمستهُ بكل قلبك وكل نفسك (تثنية ص 4 عـ 29) وفي بنوة أرميا: وتلتمسونني فتجدونني اذا طلبتموني بكل قلوبكم (29 عـ 13).

الثامن والعشرون: في أن الندامة تكون حقيقية وان لم يكن التوجع

المحسوس على الخطايا كاملاً بالاطلاق

لا تفتا الندامة أن تكون حقيقية وفعالة وان لم يتهيأ لنا أن ندرك التوجع الكامل المطلق على خطايانا اذ كثيراً ما يتفق أن الأشياء الواقعة تحت

(331)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الحواس تؤثر فينا أكثر من الأشياء الروحية وعليهِ نرى البعض أحياناً يشعرون بتوجع على موت أولادهم أعظم من توجعهم على قباحة الإثم ويصح هذا الحكم نفسهُ فيما اذا البكاء لم يصحب مرارة التوجع وان كان محموداً ومرغوباً في التوبة. وقد أجاد القديس اغوسطينوس بقولهِ في هذا الصدد: ليست فيك أيها المسيحي أحشاء المحبة المسيحية ان كنت تنتخب الجسد الذي انفصلت منهُ النفس ولا تنتخب النفس التي ابتعد عنها الله. والى هذا المعنى يتأول كلام مخلصنا المورد أعلاه: الويل لكِ يا كورزين الويل لكِ يا بيت صيداً لأنهُ لوضعُ في صور وصيدا ما صنع فكيما من القوات لتابتا بالمسوح والرماد (ص 11 عـ )

فحسبنا مع ذلك تحقيقاً لهذا الأمر نموذجات أهل نينوي (يونان ص 3 عـ 6) وداود الملك (2 ملوك ص 12 عـ 13) ومريم الخاطئة (لوقا ص 7 عـ 37 و38) وزعيم الرسل (متى ص 26 عـ 75) الذين كانوا بدموع غزيرة يلتمسون رحمة الله فنالوا غفران خطاياهم.

التاسع والعشرون: ينبغي أن نمقت في الندامة الخطايا الرئيسة

كلاً بمفردها

يجب تنبيه المؤمنين واعزاوهم بأن يجتهدوا في أن يندموا ويتوجعوا على كل من الخطايا المميتة هكذا عبر الملك حزقيا عن الندامة بقولهِ: أتذكر جميع سنّي بمرارة نفسي (اشعيا ص 38 عـ 15) فنذكر جميع السنين هو البحث عن كل خطية بمفردها لأجل استئصالها من النفس. وقرأنا أيضاً في نبوة النبي حزقيال: ان تاب المنافق عن جميع آثامهِ

(332)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

حياةً يحيى (ص 18 عـ 31) ووافق القول القديس اغوسطينوس في الفصل 14 من كتابهِ في التوبة الصادقة والكاذبة بقولهِ: فليتأمل الخاطئ كيفية اثمهِ ناظراً الى زمان فعلهِ ومكانهِ ونوعيتهِ والشخص الذي اقترفهُ معهُ أو ضده.

الثلاثون: يكفي أحياناً بغض الخطية بوجه الاجمال

مع ذلك لا يأيَسنَّ المؤمنون في هذا الأمر من جودة الله ورأفته الفائقة. لأنهُ سبحانه يتوق شديداً الى خلاصنا فلا يتأخر أبداً عن أن يمنحنا الغفران بل يحتضن الخاطئ بمحبتهِ الأبوية حالما يرجع عن اثمهِ ويمقت خطاياه بوجه العموم عازماً على ذكرها فرداً فرداً وعلى مقتها في قلبهِ اذا تيسر لهّ ذلك في وقت آخر لأن الرب أمرنا بلسان نبيهِ حزقيال أن نكون على هذا الرجا اذ قال: نفاق المنافق لا يهلكهُ في يوم توبتهِ عن نفاقهِ (ص 33 عـ 12).

الحادي والثلاثون: ما هي الأشياء اللازمة خاصة للندامة الحقيقية

يمكننا أن نلخص مما تقدم ما يطلب من باب اللزوم للندامة الحقيقية. فعلى الشعب المؤمن المؤمن ان يتعلمهُ كي يعرف كل أحد بأي وجه يستطيع سبيلاً الى إدراك الندامة الحقة ويتخذ قاعدة يميز بها عظم ابتعاده عن كمال هذه الفضيلة. فمن اللازم أولاً أن نبغض جميع الخطايا التي اقترفناها ونتوجع عليها لئلا اذا توجعنا على بعضها فقط تكون توبتنا مغشوشة ومصنعة فتفوتنا التوبة الخلاصية. لأن يعقوب الرسول يقول: من حفظ الناموس كله وعثر في أمر واحد فقد صار مجرماً في الكل (يعقوب ص 2 عـ 10).

(333)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ثانياً: ينبغي أن هذه الندامة تكون مقترنة بقصد الاعتراف والوفاء اللذين

سيأتي الكلام عليهما في محلهِ. ثالثاً ان يقصد التائب قصداً وطيداً أن يصلح سيرتهُ في المستقبل وهذا ما علمناه الله سبحانهُ على لسان النبي حزقيال بصريح العبارة قائلاً: والمنافق اذا تاب عن جميع خطاياه التي صنعها وحفظ جميع رسومي وأجرى الحكم والعدل يحي حياةً ولا يموت وجميع معاصيه التي صنعها لا تذكر لهُ (ص 18 عـ 21 و 22) وبعيد ذلك يقول: واذا تاب المنافق عن نفاقهِ الذي صنعهُ وأجرى الحكم والعدل فإنه يحي نفسه (ص 18 عـ 27) ثم قال أيضاً: فتوبوا واستنيبوا بحسب جميع معاصيكم فلا يكون الاثم معثرة لكم. انبذوا عنكم جميع معاصيكم التي عصيتم بها واصنعوا لكم قلباً جديداً وروحاً جديداً (ص 18 عـ 30) ومثلهُ أوعز ربنا يسوع المسيح الى تلك الا مرأة التي أُخذت بفعل الزنا بقولهِ لها: اذهبي ولا تخطئي بعد (يوحنا ص 8 عـ 11). ومثله الى المخلع الذي شفاه عند بركة الضان:

هوذا قد شفيت فلا تخطئ بعد (يوحنا ص 8 عـ 14).

الثاني والثلاثون: يتبين أن التوجع على الخطايا الماضية وقصد

اتقائها في المستقبل مطلوبان من باب الضرورة للندامة

ان الطبيعة والعقل يرشداننا الى أن الندامة تقتضي التوجع على الخطية المقترفة والعزم على مجانبتها والاحتراس من ارتكابها في المستقبل.

لأن من يشاء أن يصالح صديقه الذي أنزل فيهِ الإهانة لزمهُ أن يتوجع على كونهِ قد اهانهُ وشتمهُ ويحترس جهده في ألاَّ يفعل شيئاً

(334)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

في المستقبل يثام صداقته. ومن اللازم أيضاً أن تقترن الطاعة بهذين الأمرين لأن الإنسان يلزمه أن يخضع للشريعة المفروضة عليه سواءً كانت طبيعية أو إلهية أو بشرية. ولهذا ينبغي أن التائب يرد ما أختلسهُ غصباً أو احتيالاً وذاك بتأدية شيء من المال أو من الخدمات ودونك ما قالهُ القديس اغوسطينوس وهو قول قد صار أشهر من نار على علم. لا تغفر الذنوب ما لم يرد المسلوب (في رسالتهِ 54 الى مكدونيوس وغيرها).

الثالث والثلاثون: يلزمنا أن نغفر للغير اذا شئنا ان يغفر لنا

ان من جملة الأشياء المتعلقة بالندامة هو أن نهتم وجوباً بمزيد الاجتهاد في أن نغفر كل ما الحق بنا القريب من الاهانة والافتراء لأنهُ هكذا أوعز لنا ربنا ومخلصنا بقولهِ: فانكم ان غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أبوكم السماوي زلاتكم وان لم تغفروا للناس فأبوكم أيضاً لا يغفر لكم زلاتكم (متى ص 6 عـ 14 و 15) فهذا ما ينبغي على المؤمنين أن يراعوه في التوبة وأما ما بقي من متعلقات الندامة فيسهل للرعاة اطلاعه وليس بلازم لجوهر التوبة الخلاصية لزوماً كلياً بحيث لا تقوم بدونهِ بل يزيدها فقط كمالاً وحسناً.

الرابع والثلاثون: ما هي قوة الندامة وفائدتها على وجه الخصوص

لا يستكفينَّ الرعاة أن يعلموا ما يتعلق بالخلاص بل ينبغي عليهم أيضاً أن يبذلوا كل جهدهم ودرايتهم في أن المؤمنين يوجهون سيرتهم وأعمالهم الى هذا الغرض نفسه ولذلك يفيدهم أكبر فائدة أن يكثروا لهم من أيضاح قوة الندامة وفائدتها. لأن أكثر أعمال

(335)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

التقوى كالإحسان الى الفقراء والأصوام والصلوات وغيرها من المبرّات يرذلها الله أحياناً لذنب من يأتيها من البشر. أما الندامة الحقة فلا يمكن أبداً أن تكون غير مقبولة لديهِ تعالى وغير مرضية لأن النبي داود يقول: القلب المنسحق المنكسر لا ترذلهُ يا الله لا بل ان النبي نفسه يقرر في محل آخر انهُ حالما نذركها باذهاننا يأتينا الله بالصفح عن خطايانا: قلت اعترف للرب بمعاصيَّ وأنت غفرت اثم خطيتي (مزمور 31 عـ 5). ونرى مثال هذه الحقيقة في العشرة البرص الذين أرسلهم مخلصنا الى الكهنة فإنهم برئوا من برصهم قبل أن يبلغوا اليهم. فنعلم من ثمَّ ان للندامة الحقيقية التي نحن في صددها قوة تنولنا من الرب بالحال والسرعة مغفرة سيئاتنا.

الخامس والثلاثون: كيف نتوصل الى كمال الندامة

كذلك مما يفيد قلوب المؤمنين انتعاشاً هو أن الرعاة يعلمونهم طريقةً بها يتمكن كل واحد من ممارسة الندامة فينبغي أن يوعزوا اليهم بأن يكثروا جميعهم من فحص ضمائرهم ليروا هل حفظوا وصايا الله ووصايا كنيستهِ فإن علموا أنهم مجرمون بإثم فليبادروا حالاً الى شكوى ذواتهم للرب ويلتمسوا منهُ الغفران بتذلل ويسألوه فرصة للاعتراف والوفاء ويستمدوا عون النعمة الإلهية خاصة لئلا يعودوا في المستقبل الى ارتكاب هذه الخطايا التي يتوبون عنها توبة شديدة وعلى الرعاة أيضاً أن يهتموا في أن يهيجوا في قلوب المؤمنين البغض الشديد للخطايا بما أن قباحتها فائقة الحد ولكونها تفضي بمقترفيها الى شر الأضرار

(336)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وأدهى المصائب لأنها تغرّ بنا عن جودة الله الذي منهُ نلنا خيرات عظيمة وكان لنا أن نتوقع ونقتبس أعظم منها بما لا يحدّ ولا يقاس ولأنها تقيض لنا عذابات فادحة وموتاً أبدياً في الآخرة. هذا ما كان من أمر الندامة. فبقي علينا الآن أن نأتي بالكلام على الاعتراف وهو القسم الثاني في التوبة.

السادس والثلاثون: ما فضل الاعتراف وما كان من لزوم

رسمه في الديانة المسيحية للخلاص

أما الرعاة فيدركون بلا اشكال كم ينبغي أن يبذلوا من العناء والاجتهاد في بيان الاعتراف من كون الجميع يعلمون يقيناً أن كل ما ذُخِر الى وقتنا هذا في الكنيسة من القداسة والتقوى والديانة بإحسان الله العظيم يعزي كثرة الى الاعتراف. فما من عجب أن عدو الجنس البشري حين عزم على هدم الدين المسيحي بواسطة خدمة كفرهِ وأعوان نفاقهِ قد صوَّب كل قواه الى تقويض هذا الحصن للقوة المسيحية أعني بهِ الاعتراف. يجب أن نعلم أولاً وبدأً أن رسم الاعتراف كان لناس الزم الأمور وأفودها كما حكم المجمع التريدنتيني في الفصل 4 من الجلسة 14 عن التوبة لأننا ان سلمنا بأن الندامة تمحو الخطايا فمن يجهل أنها يجب أن تكون في درجة من الشدة والقوة والاضطرام تستوي بها شدة التوجع وجسامة الآثام. ولكن لما كان القليلون يستطيعون الوصول الى هذه الدرجة فكان من يرجون نوال الغفران بهذه الطريقة قليلين أيضاً. فلذلك اقتضى أن الرب العظيم الرأفة والحنو يتدارك خلاص الجميع بأيسر منوال فدّبره بحكمتهِ العجيبة بتسليم الكنيسة مفاتيح ملكوت السماء.

(337)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

السابع والثلاثون: ان الاعتراف يكمل الندامة

يجب على الجميع أن يؤمنوا إيماناً ثابتاً أنهُ بمقتضى تعليم الديانة الكاثوليكية أن من كان قلبه متشبثاً بالندامة على الخطايا التي اقترفها والعزم على عدم الرجوع إليها في المستقبل ولو كان توجعهُ قاصراً عن تنويلهِ الغفران مع ذلك متى اعترف بخطاياه اعترافاً صحيحاً تترك وتغفر جميع آثامهِ بقوة مفاتيح الحل كما قرر بحق وصواب أباؤُنا القديسون ان مفاتيح الكنيسة تفتح لنا باب السماء. فلا يحلّ لأحد أن يرتاب في هذه القضية حيث حكم المجمع الفلورنتيني بأن مفعول التوبة هو الحل من الخطايا. ولنا أن نعرف أيضاً من ذلك والاختبار يعلمنا ما يولينا الاعتراف من عظم الفوائد اذ لا نرى شيئاً أنفع لذوي الآداب الفاسدة لأجل اصلاح آدابهم من أنهم أحياناً يبيحون بأفكار قلوبهم الخفية وجميع أعمالهم وأقوالهم لصديق صدوق حكيم يقدر أن يمدهم بدرايتهِ وشورهِ. فعلى هذا النحو ينبغي أن أولئك الذين يتسجس ضميرهم بالآثام أن يعدوا أمراً من أحسن الأمور الخلاصية كشف أدواء أنفسهم وكلومها للكاهن بما أنهُ نائب السيد المسيح ومسنونة عليهِ سنة أشد السنين أن يكتم سر الاعتراف للأبد فيظفرون في الحال والسرعة بما يكفيهم من الأدوية المعدة لشفاء أمراض أنفسهم الحاضرة ويفوزون بقوة سماوية تأهبها الى اجتناب العود فيما يأتي الى مثل هذه الرذيلة والداء.

ولا نغفلن أيضاً عن تلك الفائدة الأخرى التي تأتينا من الاعتراف من حيث الاشتراك في المعيشة والارتباط بالألفة اذ من المحقق أن

(338)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الاعتراف السرّي لو ارتفع من الديانة المسيحية لامتلأ العالم كلهُ فواحش خفية يقبح ذكرها ولا يعود الناس الأشرار يهابون أن يرتكبوا مثلها وأفظع منها علناً لأن الحياء من الاعتراف هو بمنزلة لجام يقمع شهوة الخطاة واباحتهِ ويردع البشر عن المعاصي. فبعد أن يكون الرعاة أبانوا فوائد الاعتراف لزمهم أن يبادروا الى تبيين جوهره وقوتهِ.

الثامن والثلاثون: في تعريف الاعتراف السرّي وجوهره

قد عرَّفوه بكونهِ شكوى الخاطئ على نفسهِ بخطاياه تختص بجوهر السر وتصدر بقصد نيل المغفرة بقوة مفاتيح الحل. وبالحق يقال أن الاعتراف شكوى لأن الخطايا لا ينبغي أن نوردها ايراد من كأَنه يفتخر بالقبائح كما يصنع أولئك الذين يسرّون بفعل الشر كما جاءَ في سفر الأمثال (ص 3 عـ 15) أو أن نرويها كمن يروي خبراً يقصد بهِ شرح صدور السامعين القعود بل يجب أن نوردها على سبيل الشكوى على نفوسنا ونشتهي أن ننتقم منها في ذواتنا. فإننا نعترف بالخطايا قصداً لنيل الغفران لأن هذا الحكم يختلف كثيراً عن الحكم الصادر من المحاكم العالمية في المسائل الجنائية الكبيرة المقيض بها العقاب والنكال على من يقر بذنبه لا البرأة من الجريرة والصفح عن الأسية: ويظهر أن الآباء القديسين قد عرّفوا الاعتراف بنفس هذا المعنى على اختلاف العبارات كالقديس أغوسطينوس القائل: ان الاعتراف هو ما بهِ يكشف الداء الخفيّ املاً بالصفح والقديس غريغوريوس: ان الاعتراف هو مقت الخطايا وكلا القولين متضمنان في التعريف المذكور أعلاه ويعودان إليهِ بدون تعسُّف.

(339)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

التاسع والثلاثون: لأي سبب ومتى رسم المسيح الاعتراف

ومما ينبغي أن نعتبره أكثر من سواه هو أن الخوارنة يعلمون ويحققون للمؤمنين بدون أدنى شك أن السيد المسيح الذي عمل كل شئ حسناً ولأجل خلاصنا فقط قد رسم هذا السر بانتداب جودتهِ ورحمتهِ العظيمتين. لأنهُ بعد قيامتهِ من بين الأموات عمد الى الرسل وهم مجتمعون في محل واحد ونفخ فيهم قائلاً: أقبلوا الروح القدس من غفرتم لهم خطاياهم غفرت ومن مسكتموها عليهم مسكت (يوحنا ص 20 عـ 22).

الأربعون: هل يتلخص من آيات أخرى أن المسيح رسم

الاعتراف

نعم يستدل أن المسيح أشار الى هذا الأمر نفسه حين كلّف الرسل يحل الذي أقامه من بين الأموات من القيود التي كان مقيداً بها (يوحنا ص 11 عـ 44) فدونك تفسير القديس أغوسطينوس لهذه الآية:

ان الكهنة يقدرون أن يفيدوا المعترفين أكبر فائدة ويغفرون لهم أكمل مغفرة اذ يحلونهم من الآثام أي أن الرب بواسطة الرسل أنفسهم دفع العازر الذي أقامهُ من الموت الى التلاميذ ليحلوه دلالةً على منحه الكهنة سلطان الحل وقد أشار الى ذلك أيضاً حين أمر أولئك الذين شفوا من البرص على الطريق أن يروا نفوسهم للكهنة ويخضعوا لحكمهم (لوقا ص 17 عـ 14 و 15).

(340)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الحادي والأربعون: كيف يتبين من كلام الرب لزوم عمل

الاعتراف للكاهن وان خلفاء الرسل هم قضاة أيضاً

لما قلد الرب الكهنة سلطاناً على مسك الخطايا وتكرها تحقق أنه أقامهم قضاة أيضاً في هذا الأمر (يشهد بذلك القديس أغوسطينوس في الفصل 9 من كتابهِ في مدينة الله والقديس امبروسيوس في كتابهِ 2 عن قايين وهابيل في الفصل الرابع منهُ) فقرر المجمع التريدنتيني المقدس بحكمة وصواب في الفصل 5 والقانون 7 من الجلسة 14 عن التوبة أنهُ لما كان كل أمر يقام فيهِ حكم ويقضى بالعقاب على الذنوب لا يمكن أن يراعى فيهِ حق العدالة ما لم ينظر في الدعوى لزم من باب الضرورة أن التائبين يكشفون للكهنة خطاياهم كلها فرداً فرداً بالاعتراف. فعلى الرعاة اذن أن يعلموا هذه الحقيقة التي جزم بها المجمع التريدنتيني المقدس واستلمتها الكنيسة الكاثوليكية وحافظت عليها على الدوام. فإن طالعنا كتب الآباء القديسين بتمعن وجدنا في كل فصل منها بينات صريحة العبارة تثبت أن السيد المسيح رسم هذا السر وأن سنة الاعتراف هي من سنن الانجيل المرعية كما قال القديس اكليمنضوس الرماني في رسالته الأولى الى يعقوب الرسول أخي الرب والقديس قبريانوس في رسالته العاشرة عن الساقطين والخامسة والخمسين الى كرنيلوس والقديس باسيليوس في البحث 288 في مفاوضات قوانينه المختصرة والقديس لاون البابا في رسالته 89 الى تاودوريطوس. وان استقصينا صور العهد القديم تحققنا بدون شبهة أن الاعتراف بالخطايا مدلول عليه بتلك الذبائح التي كان

(341)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يقدمها الكهنة تكفيراً عن الخطايا وجميعها على تعدد أنواعها كانت رموزاً الى الاعتراف المرسوم في الديانة المسيحية.

الثاني والأربعون: أية منفعة من إضافة الكنيسة بعض

احتفالات الى الاعتراف السري

فكما يجب أن يعلم المؤمنون أن ربنا ومخلصنا رسم الاعتراف هكذا ينبغي أن يوعز إليهم أن الكنيسة أضافت إليهِ بعض طقوس واحتفالات التي وان لم تكن متعلقة بجوهر السر مع ذلك تزيده جلالاً بأعين قابليتهِ وتضرم قلوب المعترفين بنار العبادة والتقوى وتأهبهم الى اقتباس النعمة الإلهية بأيسر منوال لأننا لما نكشف عن رؤُوسنا ونخرّ أمام الكاهن ونطرق نظرنا بالأرض ونبسط يدينا بالضراعة ونبدي ما شاكل ذلك من علائِم الاتضاع الغير المطلوبة من باب اللزوم الى جوهر السر ونعترف بخطايانا نبين جلياً أننا نعرف قوة سماوية في السرّ وإنهُ من الواجب أن نلتمس الرحمة الإلهية ونطلبها باجتهاد.

الثالث والأربعون: من كان متقلباً بخطايا مميتة لا يستطيع

نوال الخلاص بدون الاعتراف

لا يخالنَّ في بال أحد أن الرب رسم الاعتراف ولم يأمر باستعمالهِ.

فليتيقنُّ المؤمنون اذن أن من كان مثقلاً بخطية مميتة لا ينال الحياة الروحية الاَّ بسر الاعتراف وقد أشار الرب الى ذلك اشارة جلية بتلك العبارة الجليلة اذ عبر عن منح هذا السر بمفاتيح ملكوت السماوات فكما لا يستطيع أحد سبيلاً الى دخول مكان مقفلة أبوابهِ الاَّ على يد من سلمت

(342)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

اليهِ مفاتيحهِ كذلك نعقل أن ليس أحد من المكبلين بالخطايا المميتة يقبل في السماء ما لم تفتح لهُ أبوابها الكهنة الأمناء الذين قلدهم الرب مفاتيح ملكوت السماوات بخلاف ذلك لا يكون محل قط لاستعمال المفاتيح في الكنيسة. وكان عبثاً يمنع من تقليد سلطان المفاتيح أحداً من الدخول الى السماء اذا أمكنهُ الدخول اليها من طريق آخر. وقد عرف ذلك جلياً القديس أغوسطينوس أذ قال في مقالتهِ 40 من كتابهِ الخامس.

لا يقولنَّ أحد في ذاتهِ: انني أتوب للرب سراً والله عارف بما أفعلهُ في قلبي فيصفح لي. العلٌّ الرب اذن بدون سبب قال: مهما حللتموه على الأرض يكن محلولاً في السماء وبدون سبب أيضاً أعطيت كنيسة الله المفاتيح. وقال هذا القول نفسهُ القديس امبرسيوس في كتابهِ عن التوبة دحضاً لبدعة نوفاتوس الاراتيكي الذي كان يزعم أن السلطان على ترك الخطايا قد حفظ للسيد المسيح وحده. وهذا كلامه: ترى من يكرم الله أفضل تكريم هل من يطيع وصاياه أو من يعصاها أن الله سبحانهُ يأمرنا بالطاعة لخدمهِ فإذا أطعمناهم كرّمنا الله وحده.

الرابع والأربعون: في أي عمر وبأي وقت من السنة يلزم

الاعتراف

فحيث ما من أحد يشك أن السيد المسيح سنَّ ورسم سنة الاعتراف بقي علينا أ، نرى من وفي أي زمن من العمر وبأي وقت من العام يلتزم الناس بطاعتها. فأولاً يتحقق من قانون المجمع اللتراني الذي بدءه (ان كلا النوعين): ان ما من أحد يتقيد بسنة الاعتراف قبل أن يدرك سن الرشد.

(343)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

ولم يعين المجمع المقدس عدد السنين من العمر السابقة الاعتراف إنما على ما يظهر ينبغي أن ترسم هذه القاعدة بالعموم وهو ان الاعتراف فرض على الصغير متى يقدر أن يميز الخير من الشر ويقع في قلبهِ التوجع لأنهُ متى بلغ كل انسان الى درجة من حياتهِ تقضي عليهِ الاهتمام بأمر الخلاص لزمهُ حينئذٍ أن يبادر الى الاعتراف اذ بخلاف ذلك لا يؤمَّل نوال الخلاص من كان ضميره مثقلاً بالخطايا.

أما الكنيسة المقدسة فقد عينت على الخصوص الوقت الذي يجب فيهِ الاعتراف بموجب الوصية التي ذكرناها آنفاً فإنها تأمر المؤمنين بالاعتراف اقلمَّا يكون مرةًّ في السنة.

الخامس والأربعون: كم مرة يلزم المؤمنين أن يغتنموا هذا

الإحسان أي الاعتراف

اذا اعتبرنا ما يقتضيه أمر خلاصنا يلزم الاعتراف حقاً كلما دهمنا خطر الموت أو أقدمنا على أمر لا يليق بالإنسان عمله وهو مدنس بالآثام كأن نلتزم أن نخدم الأسرار أو نتناولها فلا يجوز مباشرتها دون اعتراف ويجب أن نراعي هذا الأمر نفسه حين نخشى من أن ننسى الخطية التي اقترفناها اذا تأخرنا عن الاعتراف بها لأننا لا نستطيع أن نعترف بخطايا لا نتذكرها ولا ننال من الرب صفحاً عن الآثام ما لم يتركها سر التوبة بواسطة الاعتراف.

السادس والأربعون: ينبغي كشف الخطايا بالاعتراف فرداً فرداً

لما كان واجباً علينا أن نلاحظ في الاعتراف أموراً كثيرة منها ما يتعلق

(344)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

بجوهر السر ومنها ما ليس في هذه الدرجة من اللزوم اقتضى أن نتكلم على الأولى ولا تعوزنا كتب وتفاسير نقتبس منها بياناً لجميعها إنما على الخوارنة أن يعلموا خاصة أن يصير الاهتمام بالاعتراف كي يكون كاملاً تاماً أي يجب كشف الخطايا المميتة كلها للكاهن لأن الخطايا العرضية التي لا تفصلنا عن نعمة الله وكثيراً ما نسقط فيها ولو كان الاعتراف بها حسناً مفيداً حسب اصطلاح الأنام الأفاضل مع ذلك لا يذيب من يهمل ذكرها في الاعتراف لأنها تغفر من وجوهٍ كثيرة أما الخطايا المميتة كما قلنا فيجب ايرادها جميعاً فرداً فرداً وان كانت خفية جداً ومن نوع الآثام المجرمة بالوصية الأولى والأخيرة من الوصايا العشرة. اذ قد يتفق على الغالب ان ما توقعهُ في النفس من الجراح يكون أشد خطراً مما توقعهُ فيها الخطايا التي من عادة الناس ان يقترفوها جهاراً هكذا حكم المجمع التريدنتيني المقدس وسلمتنا الكنيسة المقدسة في كل حين كما يتبين جلياً من نصوص الآباء القديسين بشهادة القديس امبروسيوس القائل في الفصل 14 من كتابه عن الفردوس وفي الفصل 7 من كتابه الثاني عن التوبة: لا يستطيع أحد أن يتبرر من اثمه ما لم يعترف بخطيتهِ. ثم القديس ايرونيموس في تفسيرهِ سفر الجامعة يقول: ان كان الشيطان تلك الحية القديمة يلذع أحداً خفيةً ويفسده بسم الخطية ولم يعلم بهِ أحد. فإن سكت ولم يتب ولم يرد أن يكشف جرحه لأخيهِ أو لمعلمهِ فالمعلم القادر بلسانهِ أن يشفيهِ لا يقدر أن يفيده شيئاً. ثم القديس كبريانوس في كلامهِ على الساقطين يعلم بصريح العبارة قائلاً: وان لم يتورطوا بقباحة تقدمة

(345)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

الذبيحة للأوثان ولا نالوا شهادة من الحاكم فحيث افتكروا بذلك فليعترفوا بهِ عند كهنة الله ويقرّوا بهِ بخلوص وندامة ويلقوا عنهم ثقل نفسهم ويتناولوا علاجاً لشفاء جروحهم وان قليلة وطفيفة. وفي الآخر قد اجتمعت علماء الكنيسة على هذا التعليم باتفاق الكلمة.

السابع والأربعون: يلزم التائب في اعترافه أن يبين ظروف الخطية

يلزم في الاعتراف أن بنذل اعتناءً عظيماً كالذي نبذلهُ في الأمور الخطيرة واجتهاداً بليغاً كي نشفي كلوم نفسنا ونستأصل منها جراثيم الخطية.

ولا ينبغي أن نورد الخطايا الثقيلة فقط بل تلك الظروف أيضاً التي تزيد الخطية جسامة أو تخففها. لأن بعض الظروف تكون ثقيلة حتى يقوم بها وحدها نوع الخطية المميتة فلذا لابد من الاعتراف بهذه الظروف دائماً. فمن قتل انساناً لزمهُ أن يبين هل كان القتيل مرسوماً بالدرجات المقدسة أو عالمياً ومن اللازم أيضاً أن من زنى بامرأة يوضح كيفية حالها هل من بنت أو أرملة أو مقيدة بالزواج أو نسيبة الزاني أو مقيدة بنذر العفاف لله لأن كل هذه الظروف تغير أنواع الخطايا فالنوع الأول يسميه العلماء زنى بسيطاً والثاني فسقاً والثالث اختلاط الدم والرابع سكر يليج أي تدنيس الالهيات ثم السرقة أيضاً تحسب بين جملة الخطايا التي يجب أن تبين ظروفها. فمن سرق مثلاً ذهباً واحداً فلا شك أنهُ يخطئ ولكن خطاه أخف من الذي يسرق مائة ذهب أو مائتين أو مبلغاً كبيراً من الذهب لاسيما اذا كان المسروق شيئاً مقدساً كرزق الكنيسة

(346)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وأوانيها المكرسة لله ومثل ذلك ما يتعلق بظرفي المكان والزمان وأمثاله بينة من كتب كثيرين فلا حاجة أن نذكرها فإذاً كما قلنا ينبغي أن تورد في الاعتراف الظروف التي تزيد كثيراً قباحة الخطية أما الظروف التي لا تزيد حقاً قباحة الخطايا فيسوغ للمعترف أن يهمل ذكرها في الاعتراف بدون خطأ.

الثامن والأربعون: يلزم أن يراجع الاعتراف الذي أخفى فيهِ

الخاطي خطية مميتة عمداً واختياراً

يجب من باب الضرورة كما قلنا آنفاً أن يكون الاعتراف كاملاً تاماً بحيث اذا أخفى المعترف عمداً بعض الخطايا التي ينبغي الاقرار بها واكتفى بإيراد البعض الأخر ففضلاً عن أنهُ لا يستفيد شيئاً من هذا الاعتراف فإنهُ يقترف اثماً جديداً ولا يصح أن يسمى مثل هذا الاعتراف سراً بل لابد للتائب من أن يراجع اعترافه ويقرّ أنهُ اجرم أيضاً لكونه أهان قداسة السر باعتراف كاذب نفاقي.

التاسع والأربعون: لا يراجع الاعتراف الذي فيهِ أهمل شيء

من باب السهو أو التهاون الطفيف

أما اذا اتفق ان الاعتراف نقص شيئاً بسبب آخر أما لأن التائب نسي بعض خطايا أما لأنهُ لم يفحص خفايا ضميره بالتدقيق ومع ذلك كان في عزمهِ أن يعترف اعترافاً كاملاً بخطاياه فلا حاجة لهُ مطلقاً الى مراجعة الاعتراف بل حسبه أن ينوي ويعزم أن يعترف للكاهن بتلك الخطايا التي كان قد نسيها متى خطرت في بالهِ في

(347)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

وقت آخر إنما ينبغي الحذر في هذا الخصوص من أن نتهاون ونتراخى كثيراً في فحص الضمير وقلما نجتهد في تذكر الآثام التي اقترفناها كأننا لا نريد أن يتهيأ لنا تذكرها فإن كان جرى مثل هذا الأمر اقتضى ضرورة مراجعة الاعتراف.

الخمسون: يجب أن يكون الاعتراف بسيطاً مجرداً صريحاً

ثم يجب أن نعتني في أن يكون الاعتراف مجرداً بسيطاً صريحاً لا مسروداً بتصنع كما يفعل بعض الناس كإنهم لا يعترفون بخطاياهم بل بالأحرى على ما يظهر يوردون قصة حياتهم فينبغي أن يكون الاعتراف اعترافاً نكشف بهِ للكاهن خطايانا كما نعرفها بضميرنا. الأكيدة أكيدة والمشكوك فيها مشكوكاً فيها أما ان منا لا نقرّر خطايا أو نسرد بالاعتراف أحاديث غريبة عن موضوعهِ فيتحقق ان الاعتراف عارٍ من الصفات التي ذكرناها.

الحادي والخمسون: يجب أن يجري الاعتراف بافراز واحتشام

يجب أن يوصى التائبون شديداً بأن يستعملوا الفطنة والاحتشام في الاعتراف أي أنهم لا يكثرون من الكلام بل أن يقتصروا منهُ على ما يتعلق بطبع كل خطية ونوعيتها فيوردونها بكلام وجيز مقترن بالحكمة والافراز.

الثاني والخمسون: لا يصح الاعتراف برسول أو رسالة

يجب أن يعتني المعترف والكاهن غاية الاعتناء أن يكون حديثهما في الاعتراف سراً ولهذا لا يجوز لأحد قطعاً أن يعترف بخطاياه

(348)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

بواسطة رسول أو رسالة اذ لا يمكن أن يتم شيء سراً بهذه الطريقة.

الثالث والخمسون: من الأمور المفيدة للمسيحي أن يكثر

من الاعتراف

ما من أمر من الأمور يقضي على المؤمنين الاهتمام مثل اهتمامهم بتطهير نفوسهم بالاعتراف المتواتر لأن الإنسان متى كان مثقلاً بخطية مميتة لا يمكن أن يجد شيئاً أفود لهُ وادعى للخلاص من المبادرة في الحال والسرعة الى الاعتراف بخطاياه بداعي الأخطار الكثيرة المحدقة بحياتهِ لأن من ضروب القباحة حقيقةً أن يعد الإنسان نفسه بطول الحياة وأن لا يبذل من الاجتهاد والاعتناء في وقاية بهاء نفسه من أدران الإثم القبيحة ما يبذلهُ في رحض جسده وملابسه من الأوساخ.

الرابع والخمسون: بكم سلطان يجب أن يكون مقلداً خادم

سر التوبة

علينا أن نتكلم الآن على خادم هذا السر فنقول. يتضح من رسوم الكنيسة أن الخادم هو الكاهن المقلد سلطاناً مألوفاً أو موكولاً على الحل من الخطايا. فيلزم اذن من يقوم بهذه الوظيفة لا أن يكون كاهناً فقط بل مقلداً سلطان الولاية أيضاً ولنا أصرح شهادة وأصدقها بهذه الخدمة كلام الرب الوارد في بشارة يوحنا: من غفرتم لهم خطاياهم غُفرت ومن مسكتموها عليهم مُسكت (ص 20 عـ 23) ومن المحقق أن هذا الكلام لم يُقل للجميع بل للرسل فقط وللكهنة الذين يخلفونهم في هذه الوظيفة. ولا غرو أن ذلك أمر هو أنسب الأمور وأحكمها موقعاً. فلما كان كل نوع من النعمة التي

(349)

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

يخولناها هذا السر تصدر من المسيح الرأس الى الأعضاء وجب من باب الحق والصواب أو يوزعها على جسد المسيح أي المؤمنين من تقلدوا سلطاناً على تقديس جسده لاسيما أن المؤمنين يعودون بسر التوبة جديرين بتناول سر الافخارستيا أما كون سلطان الكاهن هذا المألوف قد حفظ مرعباً بما لا مزيد عليهِ من الاحترام في الكنيسة من قديم الزمان فنستدل عليهِ من مراسيم الآباء الأقدمين التي بها حذَّروا من ان الأسقف والكاهن يتطاول على رعية غيره ويبدي فيها عملاً ما بدون اذن من تولى أمورها أو بدون أن تدعو الضرورة القصوى وهكذا قد رسم الرسول الأمم حين أوصى تلميذه طيطوس باقامة كهنة في كل كنيسة يغذون المؤمنين بطعام التعليم والأسرار السماوي ويهذبونهم على البر والصلاح.

الخامس والخمسون: ان كل كاهن يستطيع عند الضرورة

أن يحل اي خاطئ كان

ان المجمع التريدنتيني قد علم في الفصل 6 من الجلسة 14 في سر التوبةُ اذا دهم خطر الموت والكاهن غير مولى فيجوز لكل كاهن أن يحل من الخطايا أيتها كانت ومن وثاق الحرم أيضاً وقد روعي هذا الأمر في بيعة الله لئلا يهلك أحد في مثل هذا الحادث.